من بلاغة النظم العربي

دراسة وتحليل لمسائل علم المعاني

تأليف

الدكتور
عبد العزيز عبد المعطي عرفة
كلية البنات الإسلامية
جامعة الأزهر

الطبعة الأولى
١٤٠٠ – ١٤٠١هـ
١٩٨٠ – ١٩٨١م

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله .

وبعد :

فإن رسالة الناقد الأدبي لجد خطيرة ، إذ يقوم بدراسة النص الأدبي ، ويقدمه للدارسين ليتفهموه ويتذوقوه ، ويحكموا عليه بالجودة أو الرداءة ، ثم يتأثروا به في أثناء قيامهم بخدمة دينهم ووطنهم ومجتمعهم .

وإذا كانت هذه هي مهمة الناقد وهذا أثره في الدين والفرد والمجتمع ، فنحن أمام عالم قد ألم بجميع المعارف الإنسانية ، وأتقن لغته الأصلية ، فدرس بلاغتها ونحوها وصرفها وفقهها وعروضها وطرق التعبير فيها ، وأتقن بجانب ذلك لغة أجنبية على الأقل .

لذلك فإن الناقد الأدبي ينظر إلى النظم العربي من نواح عدة : نفسية واجتماعية وتاريخية ولغوية وطبية ، وخُلُقِيَة وَخَلْقِية مستخدماً كل طاقاته في تقويم النص وتقديمه للدارسين .

وهذا الكتاب (من بلاغة النظم العربي) يدرس النظم العربي من الناحية البلاغية ، ويحاول مخلصا أن يسهم مع الأديب والناقد والدارس في فهم النص العربي والوقوف على خصائص الجمال فيه ، وجهات تأثيره ليسير الأدب في اتجاهه الصحيح نحو خدمة الدين والفرد والمجتمع .

وحينما نزل القرآن الكريم وكان المشافهون به يتفهمونه بإحساسهم الأدبي الصادق ، وذوقهم اللغوي الصافي ، وطبعهم العربي الأصيل ، وتذوقهم الفطري السليم ، عندئذ تأثروا بالنظم العربي تأثرا قويا ، وظهر

منهم رجال جاهدوا فى الله حق جهاده، وقدموا للعالم أسمى الحضارات، وأرق المدنيات.

لذلك كان الهدف من هذا الكتاب شريفاً والمقصد منه عظيما.

نرجو من الله — جلت قدرته — أن يمدنا بالعون والهداية والتوفيق، لنحقق هذا الهدف العظيم ونقف على مواطن الجمال فى لغة قرآنه المجيد.

د. عبد العزيز عبد المعطى عرفه

مدينة نصر: غرة رمضان سنة ١٤٠٠ هـ
١٢ من يوليو سنة ١٩٨٠ م

تمهيد :

— ١ —

تقول أمهات كتب اللغة : « إن النظم يرادف التأليف ، ونظمت اللؤلؤ أى جمعته فى السلك ، والتنظيم مثله ، ومنه نظمت الشعر ، وكل شيء قرنته بآخر أو ضممت بعضه إلى بعض فقد نظمته .

والنظم نظمك الخرز بعضه إلى بعض فى نظام واحد . كذلك هو فى كل شيء »(١) .

فإذا قلنا : إن ضم الكلمات بعضها إلى بعض يسمى من الناحية اللغوية نظما لم نبعد .

ونظم الكلام عند البلاغيين هو تنسيق دلالة الألفاظ وتلاقى معانيها بما تقوم عليه من معانى النحو المتخيرة والموضوعة فى أماكنها على الوجه الذى يقتضيه العقل ، وسنعود إلى هذا التعريف مرة أخرى ، فيما يستقبل من البحث .

— ٢ —

والحديث عن نظم الكلام أو تأليفه أو ترتيب أجزاء الكلام لم يظفر بعناية الباحثين إلا فى أوائل العصر العباسى الأول حينما كثر التأليف حول القرآن الكريم والأدب العربى بعامة كما سنرى .

وفى العصر الجاهلى لم يصلنا عن أهله حديث عن (النظم) ولا عن

---

(١) لسان العرب لابن منظور ج١٦ ص٦٥ الدار المصرية للتأليف ، والترجمة والنشر . والقاموس المحيط ص ١٨١ : ج٥ الطبعة الخامسة نشر التجارية .

كيفية ترتيب أجزاء الكلام ترتيبا فنيا ، ولا عن تفسير التأليف تفسيرا علميا ، بل اكتفوا بإحساسهم بروعة النظم وتأثيره ، ولم يحتاجوا إلى إبراز خصائصه ، ولا شرح الأسباب الموضوعية الفنية التي من أجلها يتفوق شاعر على شاعر وكلام على كلام ، مع أن العصر الجاهلي قد اشتهر أهله بالفصاحة ، والبلاغة وذلاقة اللسان ، وبلغت لغتهم من الرقي والحضارة والغنى مبلغا عظيما حتى كانت بحق جديرة بأن يختارها المولى جل وعلا لتكون لغة قرآنه المجيد :

كما جاء في أقدم المأثور من أشعارهم ألوان بيانية : كالتشبيه وأنواع المجاز وألوان البديع .

ولكن لم ترد هذه الألوان على شكل علمي محدد كما عهدناها عند السكاكي ومن لف لفه ،

كما وردت عنهم أحكام نقدية عامة تركزت في جمل سارت على كافة الألسنة ، كقولهم :

أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب(١) .

— ٢ —

وفي عصر صدر الإسلام سحر القرآن العرب ، وأعجبوا ببلاغته ، وشعروا بسموه عن قول البشر ووصفوه بأنه سحر ، ومعنى هذا أنهم يعتقدون أن القرآن الكريم لا يستطيع أن يقوله إلا من أوتي قوة خارقة ليست من جنس قوى البشر .

---

(١) الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ٢٣ طبع الحلبي تحقيق البجاوي وآخر وانظر أيضا إعجاز القرآن للباقلاني ص ٥٤ تحقيق د خفاجي.

لقد أعجزهم القرآن الكريم ، وحيرّ عقولهم ، والذى أعجزهم منه هو : نظمه البديع وتأليفه العجيب ولكنهم لم يفصلوا القول فى النظم ، ولم يشرحوا كيف يكون النظم ؟ وما أسراره ؟

لقد كانوا يعرفون من القواعد البلاغية والأسس النقدية التى يقوم عليها تأليف الكلام الفنى الجليل ، وتمييز جيده من رديئه — ما نعرف منها وفوق ما لا نعرف — ولكنهم لم يحتاجوا إلى تدوينها ؛ لأنها كانت مركوزة فى طبائعهم(١) .

لقد تحداهم القرآن الكريم وأمعن فى ذلك التحدى وقرعهم وأثار حميتهم ، وطالبهم بالمعارضة وألح فى ذلك إلحاحا ، ولكنهم حينما سمعوه ؛ ونظروا فيه ، وبين قومهم اعترفوا بتفوقه وسمو مكانه ، سواء من هداه الله للإيمان ، ومن جعل على بصره غشاوة .

وكان للبيان العربى مكانة عالية فى نفوسهم ، وكان أجل وأعظم من أن يخونوه . فلم يتفوهوا بكلمة زور وبهتان ، وكانوا — بحق — أهلا ، لأن يجعلهم الله حكاما على البيان .

ولو أن نفوسهم حدثتهم بأن يقولوا : فى القرآن الكريم شيئا ، لا نبرى لهم الرسول ﷺ ؛ والصحابة — رضوان الله عليهم — ومن هداه الله للإيمان ؛ وكلهم من فصحاء العرب — وكان لنا كلام يؤثر فى القواعد البلاغية ، وطرق نظم الكلام ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث .

---

(١) عروس الأفراح ضمن شروح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكى جـ ١ ص ٥٣ طبع الحلبى .

إنتهى عصر صدر الاسلام وكذلك العصر الأموى ولم يرد الينا شيء يفيد بأن أحدا قد قام بتفسير نظام الكلام وتوضيحه وابراز أسرار بلاغته .

وجاء العصر العباسى الأول واشتد الاختلاط بين العرب والعجم ، وانتشرت اللغة العربية واتسعت رقعتها وكثر عدد الناطقين بها . وفشا اللحن على ألسنة بعض المتكلمين بها . وأخذ الذوق العربى ينحرف، وبدأت الملكات تضعف ، وبدأ بالتالى الإحساس ببلاغة الكلام يقل خاصة عند العرب الذين خالطوا الأعاجم ، أو بعدوا عن موطن اللغة الأصلى ، أوعند طبقة الموالى ، الذين أخذوا العربية تعلماً لا سليقة .

وكان من الضرورى المحافظة على سلامة الذوق العربى الأصيل ليتمكن من فهم القرآن الكريم ، والأدب العربى بعامة، وتذوق عناصر الجمال فيهما.

ولذلك قام علماء المسلمين بجهود محمودة تجاه القرآن الكريم ولغته ففسروا تراكيبه ودرسوا أسلوب بيانه ، ووضحوا مجمله ، وبينوا أسباب نزوله ، وأوجه قراءاته كما شرحوا غريبه ، وقاموا بوضع علم (النحو) و(اللغة) لحمايته والتمكن من فهمه .

واحتاج النحاة واللغويون حينما طفقوا يقننون اللغة العربية ويضعون أسسها أو يحددون مدلول اللفظ — الى الشاهد العربى الخالص من الشعر والنثر والحكمة والمثل — فهموا الى جمع اللغة والشعر من موطنهما الأصلى فخرجوا الى البادية لهذا الغرض أو التقوا بالأعراب الوافدين الى المدينة(١).

---

(١) أنظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام ج ١ ص ٤٧ تحقيق محمود شاكر مطبعة المدنى .

وقد شجع جمع اللغة والشعر وروايته العلماء على التأليف حول القرآن والشعر والبيان ، وتطالعنا آراء قيمة حول النظم العربي تحاول أن تتصوره وتوضح أسراره وتكشف عن بلاغته .

فهذا سيبويه المتوفى سنة ١٨٠ هـ الذى أدرك أثر تنظيم الكلمات فى المعنى تراه فى كتابه المشهور يقوم بشرح بعض العبارات التى حدث فيها تصرف بلاغى كما يوضح الوجه الذى يستقيم عليه المعنى . كما شرح لنا كثيرا من أساليب النفى والاستفهام والشرط والتقديم والحذف التى حدثت فيها تصرفات بلاغية (١) .

—٥—

وقد حاول أبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١٠هـ فى كتابه « مجاز القرآن » أن يشرح ما فى النظم العربى من تقديم أو تأخير أو حذف أوغير ذلك ، وقد سمى بحثه المجاز ، أى : طريق التعبير قال :(٢)ومن مجاز ما خبر عن اثنين مشتركين أو عن أكثر من ذلك فجعل الخبر لبعض دون بعض ؛ وكفى عن خبر الباقى ، قال تعالى: (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله (٣) ...) .

ويقول : ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تركت ، وحولت مخاطبته إلى مخاطبة الغائب .

---

(١) انظر الكتاب جـ١ صـ٨ مثلا طبع المثنى .

(٢) انظر « مجاز القرآن » لأبى عبيدة جـ١ صـ١١ ، ١١٤ تحقيق د سزكين طبع الخانجى .

(٣) سورة التوبة آية ٣٤

قوله تعالى : (حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم (١)) .

ويقول : ومن مجاز المقدم والمؤخر قوله تعالى : (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت (٢)) أراد ربت واهتزت .

ويقول أبو عبيدة : ومن مجاز المكرر للتوكيد قوله تعالى : (إنى رأيت أحد عشر كوكبا « والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين (٣)) .

هذه نظرات أوردها وغيرها أبو عبيدة فى كتابه « مجاز القرآن » كانت محاولة رائدة للنظر فى أحوال تراكيب العبارة والتصرفات البلاغية التى تحدث فى النظم العربى .

وسار على نهجه أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ فى كتابه « معانى القرآن » .

وقد عالج فيه بعض التصرفات البلاغية التى أشكلت على الدارسين .

— ٦ —

وممن نظر فى « النظم » الجاحظ المتوفى سنه ٢٥٥ هـ وهو أبو عثمان بن بحر محبوب المعروف بالجاحظ العالم صاحب التصانيف فى كل فن ، وهو زعيم للبيان العربى غير منازع .

عرف الجاحظ « النظم » وفرق بين نظم القرآن ونظم سائر الكلام، ودعا إلى دراسة الأدب العربى بعامة وفنونه وضروبه وأغراضه لكى

---

(١) سورة يونس اية ٢٢ .
(٢) سورة الحج آية ٥ .
(٣) سورة يوسف اية ٤ .

يعرف الدارس الفرق بين النظمين : نظم القرآن ونظم سائر الكلام .

يقول الجاحظ : « وفرق مابين نظم القرآن وتأليفه ، ونظم سائر الكلام وتأليفه — فليس يعرف فروق النظم واختلاف البحث والنثر إلا من عرف القصيد من الرجز ، والمخمس من الأسجاع والمزاوج من المنثور ، والخطب من الرسائل (١) » .

وللجاحظ كتاب « نظم القرآن » ولكن الكتاب ضاع مع الأيام أما طريقة ، معالجة الجاحظ للنظم العربى فلم نعثر على شىء بدل دلالة واضحة عليها ، لكن له حديث عن اقتران الحروف والألفاظ يمكن من النظر والتمعن فيه أن تكون فكرة عن تصور الجاحظ للنظم .

تحدث الجاحظ عن الكلمة إحدى مفردات النظم واشترط لفصاحتها أن تكون بريئة من تنافر الحروف حتى تبـــدو كأنها بأسرها حرف واحد (٢) .

ويرى ألا يكون اللفظ عاميا ولا ساقطا سوقيا . ولا ينبغى أن يكون غريبا وحشيا (٣) : « وأن تكون الكلمة جارية على القواعد النحوية والصرفية(٤) .

كما يرى الجاحظ أن تكون الألفاظ فى تحدرها وسهولتها ولينها على اللسان كأنها لفظ واحد .

يقول : « وأجود الشعر مارأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج فتعلم

---

(١) العثمانية للجاحظ ص ١٦ بتحقيق هارون ـ دار الكتاب العربى :
(٢) البيان جـ١ ص٦٧ تحقيق هارون نشر الخانجى بمصر والمثنى ببغداد
(٣) المرجع السابق جـ١ ص ١٤٤،
(٤) نفس المرجع جـ١ ص ٧٤.

بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدا ، وسبك سبكا واحداً ، فهو يجرى على اللسان كما يجرى الدهان (١) .

من هذا العرض أكان الجاحظ يرى أن « النظم » ضم لفظ إلى لفظ كيف جاء واتفق ؟ أم أنه كان يطلق النظم ويريد منه شيئا آخر ؟

الذى يظهر لنا مما تقدم أنه كان يطلق على نظم الحروف وتلاؤم مزاجها وانسجام أجراسها حتى تكون فى خفتها ورشاقتها كالحرف الواحد ، وحتى تكون الألفاظ كأنها لفظ واحد .

وليس من البعيد أن الجاحظ كان يرى أن « النظم » ضم لفظ إلى لفظ بناء على تناسق دلالة الألفاظ . وتلاقى معانيها على الوجه الذى يقتضيه العقل .

— ٧ —

ونصل إلى ابن قتيبة وهو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ هـ وكان فاضلا ثقة وتصانيفه كلها مفيدة (٢) . فنجده يتحدث عن النظم العربى من خلال حديثه عن النظم القرآنى خاصة إذ جعل القرآن الكريم معجزاً بتأليفه البديع ونظمه العجيب ثم وضح أسرار النظم القرآنى فيما يلى :

١ — ما فيه من الجمال التوقيعى الفريد ، والنسق الصوتى البديع يقول : وجعله متلوا لا يمل على طول التلاوة وغضا ومسموعا لا تمجه الآذان (٣) .

٢ — ما فيه من معان خالدة وعلوم فوق متناول البشر يقول :

---

(١) البيان جـ١ صـ٦٧ .
(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ٢ صـ٢٤٦ تحقيق محى الدين .
(٣) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبه ص ٣ بتحقيق صقر طبع الحلبى .

« لايخلق على كثير الرد ، وعجيبا لاتنقضى عجائبه ، ومفيدا لا تنقضى فوائده (١) » .

٣ — مافيه من المعانى البلاغية التى تعتمد على دقة التعبير وإجادة التصوير بأسلوب يثير الخيال ويحفز على العمل ، وقد ذكر منها ابن قتيبة — عقب رأيه هذا — « أسلوب الإيجاز » الذى هو التعبير عن المعانى الكثيرة بدقة وعمق بألفاظ قليلة ، يقول(٢) : « وجمع الكثير من معانيه فى القليل من لفظه وذلك معنى قول رسول الله ﷺ : « أوتيت جوامع الكلم » ثم يقول : فإن شئت أن تعرف ذلك فتدبر قوله تعالى : (خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين (٣) كيف جمع له بهذا الكلام كل خلق عظيم » ثم يقارن بين إيجاز النظم القرآنى ، والإيجاز فى سائر الكلام ، ويوضح تفوق النظم القرآنى .

يقول فى قوله تعالى فى المنافقين : (يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو(٤)) فدل على جبنهم . . . « وأخذ هـــذا المعنى شاعر من الشعراء وأنّى له هذا الاختصار فقال :

ولو أنها عصـــفورة لحسبتها   مسومة تدعو عبيدا وأزنما

يقول : لو طارت عصفورة لحسبتها من جبنك خيلا تدعو هاتين القبيلتين (٥) .

لقد استطاع ابن قتيبة أن يتحدث عن عناصر النظم : الألفاظ ، والمعانى

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٣   (٢) نفس المرجع
(٣) سورة الأعراف آية ١٩٩ .
(٤) سورة المنافقون آية ٤ .
(٥) تأويل مشكل القرآن ص ٣ .

الأصلية ، والمعانى البلاغية وبذلك فتح الطريق لمن أتى بعده من البلاغيين أمثال الخطابي — فى رسالته بيان إعجاز القرآن — أن يتحدثوا بثراء عن عناصر الكلام .

— ٨ —

أما أبو العباس المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ﻫ فله حديث عن الفروق اللغوية التى تحدث بسبب التصرف فى « النظم » وذلك فى المحاورة القيمة التى جرت بينه وبين الكندى المتفلسف ، إذ قال له يا أبا العباس : إنى لأجد فى كلام العرب حشوا فقال له أبو العباس المبرد : فى أى موضع وجدت ذلك ؟

فقال الكندى : أجد العرب يقولون : عبد الله قائم ، ثم يقولون : إن عبد الله قائم ، ثم يقولون : إن عبد الله لقائم .

فالألفاظ متكررة والمعنى واحد ، فقال أبو العباس المبرد : بل المعانى مختلفة لاختلاف الألفاظ ، فقولهم : عبد الله قائم ، إخبار عن قيامه ، وقولهم : إن عبد الله قائم ، جواب عن سؤال سائل ، وقولهم : إن عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر قيامه ، فقد تكررت الألفاظ لتكرار المعانى (١) .

وتراه فى كتابه « البلاغة » يذكر بلاغة الشعراء ويوازن بينهم ، ويفضل بعضهم على بعض ، ثم يجعل قول الرسول ﷺ فوق كلامهم ؛ فإذا ماوصل إلى القرآن الكريم جعله فوق هذا وذاك . لم يقدم لنا أسبابا موضوعية ولم يضع يدنا على خصائص فنية ؛ لهذا التفضيل وتلك الموازنات ، وإنما اعتمد على إحساسه الصادق وعلى ذوقه الصافى ، يقول : « فإذا جاء أمر القرآن

---

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ص٢٠٦ تحقيق المراغى .

نظرت إلى الشيء الذى هو أوحد، والقول الذى هو منبت، ألا ترى أن الله جعله الحجة والبيان والداعى والبرهان، وإنما وضع السراج للبصير لا الأعمى والمتعامى»(١) ثم يوازن بين النظم القرآنى وبين نظم الشعراء فيقول: قال أحد الشعراء فى وصف قوم يحملون الشعر ولا يفهمونه — قولا أجاد فيه، وتقدم كلام كثير من المخلوقين قال:

زَوامِلُ للأشعارِ لا عِلْمَ عندَهُم
بجيِّدِها إلا كَعِلْمِ الأباعِرِ

لعمرُك ما يدرِى البعيرُ إذا غدا
بأوْساقِهِ أوْ رَاحَ ما فِى الغَرائِرِ

فيهات هذا من قول الله تعالى: (مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الحمارُ يحمِلُ أسْفَارًا)(٢).

وقالت الخنساء ترثى أخاها صخراً:

ولَوْلا كَثْرَةُ الباكِين حَوْلِى
عَلَى إخْوانِهِم لقتلْتُ نَفْسِى

وما يَبْكُونَ مِثْلَ أخِى ولكِنْ
أُعَزِّى النَّفْسَ عَنْهُ بالتَّأسِّى

وقال الله عز وجل للمشركين (ولن يَنْفَعَكُمُ اليومَ إذْ ظَلَمْتُمْ أنَّكُمْ فى العذابِ مشتركون)(٣) أى ما نزل بكم أجلّ من أن يقع معه التأسى.

قال: «أردشير بن بابك» فى عهده: «وقد قال الأولون منا: القتل

---

(١) البلاغة للمبرد ص ٦٦ تحقيق د. رمضان عبد التواب.

(٢) سورة الجمعة آية ٥.

(٣) سورة الزخرف آية ٣٩.

أقل للقتل » ، يقول : إذا قتل القاتل امتنع غيره من التعرض للقتل ، فهذا أحسن الكلام من كلام مثله .

ولو اعترض ، فقال : من القتل ما يهيج القتل ، ويبعث عليه لكان ذلك له ، وإن لم يكن ما قصد له القائل .

فإذا جاء قوله جل وعز : (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب)(١) جاء ما لا اعتراض عليه ، ولا معارضة له ، وقوله : (يا أولى الألباب) خطر ثان ، فتبارك الله الذى ليس كمثله شيء »(٢) .

فواضح مما تقدم أن هذا كله إحساس بروعة النظم ولم يصل إلى مرتبة الشرح والتفسير والتعليل .

— ٩ —

أما العالم النحوى على بن عيسى الرمانى فقد فتح فى رسالته « النكت فى إعجاز القرآن » بابا بعنوان « باب التلاؤم » حاول فيه أن يتصور نظم الكلام .

وواضح من صنيعه فى بيان فائدة التلاؤم : أنه يقصد به القشرة السطحية للنظم القرآنى وهى الناحية الموسيقية من حيث تركيب سكناته ، وحركاته فى صورة ترتاح لها النفس ، وتتقبلها الأذن ، وهذه الناحية مع حسنها ، وبلوغ القرآن فيها حد الإعجاز إلا أنها لا تقوم به كاملا .

وقد أحس الرمانى بذلك فقال بعدما بين فائدة التلاؤم : « فإذا انضاف

---

(١) البقرة آية ١٧٩ .
(٢) البلاغة للمبرد ص ٦٦ .

إلى ذلك حسن البيان فى صحة البرهان فى أعلى الطبقات ظهر الإعجاز للجيد الطباع البصير بجواهر الكلام .

ولعله يريد بحسن البيان الناحيه الأخرى فى القرآن الكريم التى يطلق عليها الشيخ عبد القاهر الجرجانى كلمة النظم كما سنرى — ويطلق الرمانى عليها : دلالة التأليف التى لانهاية لها(١) .

فإذا قلنا : إن الرمانى يقصد بالتلاؤم تعديل النظم أو خلو الكلام من كل ما يشين الفصاحة ، ويقصد من دلالة التأليف التى لا نهاية لها : المعانى التى يحدثها النظم — لم نبعد — وإن كان الرمانى كما ترى لم يقدم لنا تفسيرا عليها للنظم وبيان أسراره .

— ١٠ —

وعلم المحدثين ابو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ توصل فى رسالته « بيان إعجاز القرآن » إلى وضع نظرية فى الكلام تقول(٢) : وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة :

لفظ حامل .

ومعنى به قائم .

ورباط لهما ناظم .

---

(١) النكت فى إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٨٩ تحقيق خلف الله وسلام طبع دار المعارف .

(٢) بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٢٤ طبع دار المعارف تحقيق خلف الله وسلام .

هذه الأشياء الثلاثة إذا جاءت مجموعة وعلى أحسن ما يكون كان الكلام المشاد الذى يصل الى حد الإعجاز .

ولقد أبرز الخطابى — متأثرا بابن قتيبة — عناصر الجمال فى العبارة ، وحصرها فى ثلاثة :

أولا : اللفظ .

ثانيا : المعنى الأصلى .

ثالثا : نظوم تأليف العبارة ووقف طويلا أمام « نظوم تأليف العبارة ، ثم ذكر أن رسوم النظم تحتاج الى حذق ومهارة ووضح أمرين هامين :

الأمر الأول : أن رسوم النظم عبارة عن ارتباط الكلمات بعضها ببعض والتئامها .

الأمر الثانى : أن هذا الإرتباط ، وذلك الإلتئام يحدث صورة فى النفس يتشكل بها البيان .

ولكن الخطابى لم يكشف لنا عن سبب هذا الارتباط ، وذلك الإلتئام ، وبم يكون ؟ وعن أى شىء يحدث ؟

وما الأمور التى تقوى الإرتباط والالتئام بين أجزاء العبارة — هذا ما ترك للإمام عبد القاهر الجرجانى .

ويأتى أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ صاحب كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر ، وهو من الكتب الجامعة التى حوت بين دفتيها خلاصة ما كتبه السابقون فى النقد والأدب .

لم يحاول أبو هلال أن يرسم نظرية للنظم على نحو ما فعل الشيخ عبد القاهر الجرجانى كما سيجىء .

ولكن له حديث عن حسن التأليف ، ودوره فى التعبير الفنى الجميل يقول(١) : « وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحا وشرحا ، ومع سوء التأليف ورداءة الرصف والتركيب شعبة من التعمية .

ويحاول أبو هلال أن يتصور النظم ، فيشبهه بالعقد المنظم إذا اختل منه خرزة كان مشوّها ؛ وإذا جعل كل خرزة منه مع ما يليق بها كان رائعا فى المرأى .

— ١٢ —

أما علم المعتزلة فى عصره أبو الحسن عبد الجبار الأسد آبادى قاضى قضاة الدولة البويهية المتوفى سنة ٤١٥ هـ فهو الذى وضع أسس نظرية النظم بمعناها العلمى الدقيق إذ تناول أجزاء الكلام ، وأدلى فى كل جزء منها برأيه(٢) فالميزة البلاغية أو الفصاحة لا تتعلق بالألفاظ من حيث ذواتها —

(١) الصناعتين ص١٦١ الطبعة الأولى بتحقيق البجاوى وآخر .
(٢) أنظر المغنى ج١٦ ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ تحقيق أمين الخولى .

أى أنها لا تكون فصيحة فى نفسها ، وإنما تكون فصيحة بملاحظة صفات مختلفة ـ كالإبدال التى تختص به وحركاتها فى الإعراب ، وموقعها فى التقديم والتأخير ، أو بمعنى آخر . تكون الكلمة فصيحة بملاءمتها لجاراتها وتعلقها بأخواتها وارتباطها بهم ووقوعها فى موقعها التى لا ترضى به بدلا ولا تبغى به حولا . ويحدث من ارتباطها وتعلقها بجاراتها صورة تؤدى دورا يزيد المعنى المراد وضوحا ويمكنه فى نفس المتلقى .

ويقول : إن الدليل على أن الكلمة لا تتعلق بها الفصاحة من حيث ذاتها أننا نجدها فصيحة فى موطن ، وغير فصيحة فى موطن آخر .

وأما المعانى ، ويقصد بها المعانى الغفل الخام فيرى القاضى عبد الجبار أنها لا تصلح أن تكون مقياسا للفصاحة ، وإن كان لا بد منها . والدليل على ذلك أننا نجد الشاعرين يعبران عن المعنى الواحد ، ويكون أحدهما أفصح من الآخر .

وإنما تظهر ميزة الكلام فى جزئه الثالث الذى هو ضم الكلمات بعضها إلى بعض على طريقة مخصوصة ، وهذه الطريقة تكون بالإبدال الذى تختص به الكلمات ، أو التقدم والتأخر الذى يختص به الموقع ، أو الحركات التى تختص الإعراب .

فهل كان القاضى عبد الجبار يريد بضم الكلمات بعضها إلى بعض على طريقة مخصوصة توخى معانى النحو فيما بين الكلم ؟ ندع صاحب توخى معانى النحو الإمام عبد القاهر الجرجانى يعترف لنا بذلك يقول موضحا عبارة القاضى عبد الجبار سالفة الذكر بما نصه : « فقولهم : (بالضم) : لا يصح أن يراد به النطق باللفظة بعد اللفظة من غير اتصال يكون بين معنييهما ، لأنه لو جاز أن يكون لمجرد ضم اللفظ إلى اللفظ تأثير فى الفصاحة

لكان ينبغى إذا قيل (ضحك خرج) أن يحدث من ضم (خرج) إلى ضحك فصاحة .

وإذا بطل ذلك لم يبق إلا أن يكون المعنى فى ضم الكلمة إلى الكلمة توخى معنى من معانى النحو فيما بينهما ، وقولهم : « على طريقة مخصوصة » يوجب ذلك أيضا :

وذلك أنه لا يكون للطريقة إذا أنت أردت مجرد اللفظ معنى ، وهذا سبيل كل ما قالوه . إذا أنت تأملته تراهم فى الجميع قد دفعوا إلى جعل المزية فى معانى النحو وأحكامه من حيث لم يشعروا بذلك ، لأنه أمر ضرورى لا يمكن الخروج منه[1] .

وعلى ذلك إذا قلنا : إن القاضى عبد الجبار حينما يشير إلى الحركات التى تختص الإعراب أنه يريد بذلك معانى النحو وتوخيها بين الكلم لم نبعد .

ومهما يكن من شىء فقد أبقى القاضى عبد الجبار للإمام عبد القاهر الجرجانى شرح هذه النظرية ، وتقريرها ، وتصويرها ، والبرهنة على صحتها ، والدفاع عنها ، وإطلاق اسم «النظم» عليها كما سنرى .

— ١٣ —

وكان من أقوى الشخصيات البلاغية فى القرن الخامس الهجرى ، الشيخ عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ ، أو ٤٧٤ هـ الذى شرح نظرية النظم ، وخصص لها كتابه المشهور : « دلائل الإعجاز » من أوله إلى

---

(١) دلائل الإعجاز ص٢٥١ .

إلى آخره يبدى ، ويعيد لعله يجد من يفهم عنه أو يظفر بمن له طبع إذا قدحه ورى[١] .

يرى الشيخ عبد القاهر : أن الناظم إذا أراد أن ينظم كلاما فى أى غرض : يبدأ فيرتب المعانى فى نفسه أولا ، ويبذل جهدا فى ترتيبها ، ثم يحذو على ترتيبها الألفاظ فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا فى النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا فى النطق .

فالناظم يبذل فكرا فى ترتيب المعانى فى النفس وتنسيق دلالتها ، ولا يحتاج إلى أن يستأنف فكرا جديدا فى ترتيب الألفاظ وتوالى نطقها ، وبناء على ذلك يرى أن الذى يستحق أن نطلق عليه كلمة (النظم) هو : ترتيب المعانى فى النفس لا توالى الألفاظ فى النطق ، لأن النظم الذى يريده، ويجعله مكان المزية ، لا يتأتى إلا بالفكر والروية .

ولكى يوضح رأيه فرّق بين حروف منظومة وكلم منظومة وذلك أن نظم الحروف هو توالیها فى النطق فقط ، وليس نظمها بمقتض عن معنى ، ولا الناظم لهما بمقتض فى ذلك رسما من العقل اقتضى أن يتحرى فى نظمه لها ما تحراه ، فلو أن واضع اللغة كان قد قال (ربض) مكان (ضرب) لما كان فى ذلك ما يؤدى إلى فساد[٢] .

وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك ، لأنك تقتضى فى نظمها آثار

---

(١) أنظر الشافية للشيخ عبد القاهر الجرجانى الفصل الأخير ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن تحقيق خلف الله وسلام دار المعارف .

(٢) أنظر دلائل الاعجاز ص ٣٥ — ٣٨

المعانى ، وترتبها على حسب ترتيب المعانى فى النفس ، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ، وليس هو النظم الذى معناه ضم الشىء إلى الشىء كيف جاء واتفق . ولذلك كان عندهم نظيرا للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشى والتحبير وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض حتى يكون لوضع كل جزء حيث وضع علة تقتضى كونه هناك ، وحتى لو وضع فى مكان غيره لم يصلح ، هذا هو الشطر الأول من النظرية .

أما الشطر الثانى من النظرية فهو المعانى التى يتعلق بها الفكر ويرتبها فى النفس ، أهى معانى الكلمات فى أنفسها ؟

أم معانى النحو ؟ أوهما معا ؟

يجيب الشيخ عبد القاهر : « بأنه لا يتصور أن يتعلق الفكر بمعانى الكلم أفرادا ومجردة عن معانى النحو ، فلا يقوم فى وهم ، ولا يصح فى عقل أن يتفكر متفكر فى معنى « فعل » من غير أن يريد إعماله فى « اسم » ولا أن يتفكر فى « اسم » من غير أن يريد إعمال « فعل » فيه وجعله فاعلا له أو مفعولا ، أو يريد منه حكما سوى ذلك من الأحكام مثل أن يريد جعله مبتدأ أو خبرا أو صفة أو حالا أو ما شاكل ذلك .

وإن أردت أن ترى ذلك عيانا فاعمد إلى أى كلام شئت ، وأزل أجزاءه عن مواضعها وضعا يمتنع معه دخول شىء من معانى النحو فيها فقل فى :

« قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » .

« من نبك قفا حبيب ذكرى منزل » .

ثم انظر هل يتعلق منك فكر بمعنى كل منها[1] » ؟ .

وإن أردت مثالا نخذ بيت بشار :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا   وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وأنظر هل يتصور أن يكون بشار قد أخطر معانى هذه الكلم بباله أفرادا عارية عن معانى النحو التى تراها فيها ، وأن يكون قد وقع (كأن) فى نفسه من غير أن يكون قصد إيقاع التشبيه منه على شىء ، وأن يكون فكر فى (مثار النقع) من غير أن يكون أراد إضافة الأول إلى الثانى ، وفكر فى (فوق رءوسنا) من غير أن يكون قد أراد أن يضيف (فوق) إلى الرءوس ، وفى الأسياف من دون أن يكون أراد عطفها بالواو على (مثار) وفى الواو من دون أن يكون أراد العطف بها ، وأن يكون كذلك فكر فى (الليل) من دون أن يكون أراد أن يجعله خبرا (لكأن) ، وفى (تهاوى كواكبه) من دون أن يكون أراد أن يجعل تهاوى فعلا للكواكب ، ثم يجعل الجملة صفة لليل ، ليتم الذى أراد من التشبيه ؟

أو لم تخطر هذه الأشياء بباله إلا مرادا فيها هذه الأحكام والمعانى التى تراها فيها ؟ .

فواضح من هذا أن الفكر لا يتعلق إلا بمعانى النحو التى يقوم على أساسها ترتيب معانى الكلم فى النفس . ثم ترتب الكلم على أساس ترتيب معانيها عند تواليها فى النطق .

فأنت إذا تأملت بيت بشار وجدته كالحلقة المفرغة التى لا تقبل التقسيم ، ورأيته قد صنع فى الكلم التى فيه ما يصنعه الصانع حين يأخذ كسرا من

---

(١) أنظر دلائل الإعجاز ص ٢٥٩ — ٢٦٢

الذهب ، فيذيبها في قالب ، ويخرجها لك سوارا أو خلخالا ، وإن أنت حاولت قطع بعض ألفاظ البيت عن بعض ، كنت كمن يكسر الحلقة ويفصم السوار ، وذلك أنه لم يرد أن يشبه النقع بالليل على حدة ، والأسياف بالكواكب على حدة ولكنه أراد أن يشبه النقع والأسياف تجول فيه بالليل في حال ما تنكدر الكواكب وتتهاوى فيه ، فالمفهوم من الجميع مفهوم واحد ، والبيت من أوله إلى آخره كلام واحد ، فانظر الآن ما تقول : في اتحاد هذه الكلم التي هي أجزاء البيت ، أتقول : إن ألفاظها اتحدت فصارت لفظة واحدة أم تقول : إن معانيها اتحدت فصارت من أجل ذلك كأنها لفظة واحدة ؟.

لاشك أن الاتحاد الذي تراه هو في المعاني ، لأنه من فساد العقل أن يتوهم متوهم أن الألفاظ يندمج بعضها في بعض حتى تصير لفظة واحدة.

وإذا ثبت الاتحاد وثبت أنه في المعاني فينبغي أن تنظر إلى الذي به اتحدت المعاني في بيت بشار ، وإذا نظرنا لم نجدها اتحدت إلا بأن جعل مثار النقع اسم كأن ، وجعل الظرف الذي هو (فوق رءوسنا) معمولا « لمثار » ومعلقا به ، وأشرك الأسياف في « كأن » بعطفه لها على « مثار » ثم بأن قال : « ليل تهاوى كواكبه » ، فأتى بالليل نكرة وجعل جملة قوله : « تهاوى كواكبه » له صفة ، ثم جعل بجموع « ليل تهاوى كواكبه » خبرا « لكأن »(1) .

وهذه العلاقات كلها من معاني النحو ، وإذا كان الأمر كذلك . . . علمت علما لا يعترضه الشك ألا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض ، وتجعل هذه بسبب من تلك .

يقول : « واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي

---

(1) أنظر الدلائل ص ٢٦١ ، ٢٦٢ .

يقتضيه « علم النحو » ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم الذى رسمت لك فلا تخل بشىء منها . وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر فى وجوه كل باب وفروقه ، فينظر فى الخبر إلى الوجوه التى تراها فى قولك : زيد منطلق ، وزيد ينطلق ، وينطلق زيد ، ومنطلق زيد ، وزيد المنطلق ، والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق .

وفى الشرط والجزاء إلى الوجوه التى تراها فى قولك : إن تخرج أخرج ، وإن خرجت خرجت . وإن تخرج فأنا خارج ، وأنا خارج إن خرجت ، وأنا إن خرجت خارج .

وفى الحال إلى الوجوه التى تراها فى قولك : جاءنى زيد مسرعا، وجاءنى يسرع ، وجاءنى وهومسرع ، أو وهو يسرع ، وجاءنى قد أسرع، وجاءنى وقد أسرع فعرف لكل من ذلك موضعه : ويجىء به حيث ينبغى له ، وينظر فى الحروف التى تشترك فى معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية فى المعنى ، فيضع كلا من ذلك فى خاص معناه ، نحو : أن يؤتى « بما» فى نفى الحال ، وبلا إذا أراد نفى الاستقبال ، وإن فيما يترجح بين أن يكون وألا يكون ، وبإذا فيما علم أنه كائن .

وينظر فى الجمل التى تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقه الوصل : موضع « الواو » من موضع « الفاء » وموضع « الفاء » من موضع « ثم » وموضع « أو » من موضع « أم » ، وموضع « لكن » من موضع « بل » .

ويتصرف فى التعريف والتنكير ، والتقديم والتأخير فى الكلام ، وفى الحذف والتكرار ، والإظهار والإضمار ، فيضع كلا من ذلك مكانه ، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغى له .

هذا هو السبيل فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان خطأ إلى «النظم» ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معانى النحو قد أصيب به موضعه ووضع فى حقه ، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه ، واستعمل فى غير ماينبغى له ، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أوفساده ، أو وصف بمزية وفضل فيه إلا أنت تجد مرجع تلك الصحة، وذلك الفساد . وتلك المزية وذلك الفضل إلى معانى النحو وأحكامه، ووجدته يدخل فى أصل من أصوله ، ويتصل بباب من أبوابه[1] ثم يطبق الشيخ عبد القاهر نظريته على بعض آى القرآن الكريم يقول : «وهل تشك إذا فكرت فى قوله تعالى : (وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين)[2] .

فيتجلى لك منها الإعجاز ، ويبهرك الذى ترى وتسمع أنك لم تجـــد ماوجدت من المزية الظاهرة ، والفضيلة القاهرة، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وإن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية ، والثالثة بالرابعة . وهكذا إلى أن تستقر بها إلى آخرها ، وأن الفضل حصل من مجموعها . وإن شككت فتأمل هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهى فى مكانها من الآية ؟ . قل (ابلعى) واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ماقبلها وإلى مابعدها ، وكذلك فاعتبر سائر مايليها . وكيف بالشك فى ذلك ، ومعلوم أن مبدأ العظمة فى أن نوديت الأرض، ثم أمرت، ثم فى أن كان النداء «بيا» دون «أى» نحو ياأيتها الأرض ، ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال : ابلعى الماء ، ثم أن نداء الأرض وأمرها

---

(١) أنظر دلائل الإعجاز ص ٥٥ ، ٥٦ .
(٢) سورة هود آية ٤٤ .

بما هو من شأنها اتبع نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها ، ثم أن قيل : « وغيض الماء » فجاء الفعل على صيغة فعل الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر ، وقدرة قادر ، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى : « وقضى الأمر » ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو « واستوت على الجودى » ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ثم مقابلة قيل فى الخاتمة بقيل فى الفاتحة .

أفترى لشىء من هذه الخصائص التى تملؤك بالإعجاز روعة ، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى فى النطق ؟ أم كل ذلك لما بين معانى الألفاظ من الاتساق العجيب »(١) .

ويقول : « فقد اتضح إذن اتضاحا لا يدع مجالا لشك أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هى كلم مفرد ، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها من ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ما أشبهه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ »(٢) .

ويسوق دليلا آخر فيقول : « ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك ، وتوحشك فى موضع آخر كلفظ (الأخدع) فى بيت الحماسة :

تلفت نحـــو الحى حتى وجدتنى وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا

وبيت البحترى :

وإنى ، وإن بلغتنى شرف الغـــنى وأعتقت من رق المطامع أخدعى

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٢ - ٣٣

(٢) دلائل الإعجاز ص ٣٣

فإنك تجد لها فى هذين المكانين مالا يخفى من الحسن .

ثم إنك تتأملها فى بيت أبى تمام :

يادهر قوم من أخدعيـــك فقد   أضججت هذا الأنام من خرقك

فتجد لها من الثقـــل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضعاف ماوجدت هناك من الروح والخفة ، والإيناس والبهجة(١) .

ويعقد مقارنة أخرى ويقول : « لو كانت الكلمة إذا حسنت حسنت من حيث هى لفظ ، وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك فى ذاتها وعلى انفرادها دون أن يكون السبب فى ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها فى النظم ، لما اختلف بها الحال ولكانت إما أن تحسن أبدا أو لا تحسن أبدا(٢) والحق أن الشيخ عبد القاهر — كما يقول المرحوم الدكتور محمد مندور فى كتابه النقد المنهجى عند العرب — قد اهتدى فى العلوم اللغوية كلها إلى مذهب لا يمكن أن نبالغ فى أهميته ، مذهب يشهد لصاحبه بعبقرية لغوية منقطعة النظير(٣) .

وعلى أساس هذا المذهب كون مبادئه فى إدراك « دلائل الإعجاز » فى القرآن الكريم ، وفى النثر العربى والشعر على السواء .

ومذهب عبد القاهر هو أصح وأحدث ماوصل إليه علم اللغة فى أوربا فى العصر الحديث »(٤) .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٤ .

(٢) نفس المرجع ص ٣٥ .

(٣) انظر النقد المنهجى عند العرب ص ٣٢٧ للمرحوم د . مندور نشر دار نهضة مصر — القاهرة .

(٤) انظر النقد المنهجى عند العرب ص ٣٢٧ .

فواضح من نظرية عبد القاهر فى «النظم» أن ترتيب الكلمات يقوم على جهد فكرى ، ونظر عقلى ، ولذلك أطلق عليه كلمة « النظم » وأن ترتيب الكلم لا يطلق عليه كلمة « النظم » إلا إذا كان موافقا للقواعد النحوية ، والصرفية واللغوية .

وإذا تصرف الأديب فى التأليف بأن قدم أو أخر أو عرف ونكر ، أو استعار إلى آخر التصرفات البلاغية التى من شأنها تساعد فى وضوح المعنى فهذا العمل من مقتضيات النظم وبه يتفاضل كلام على كلام وشاعر على شاعر وكاتب على كاتب .

ويقول عبد القاهر إن الفروق بين دلالة التراكيب لا نهاية لها ، وليس لها غاية تقف عندها(١) .

ولقد درس منها فى كتابيه المشهورين : « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » ما استطاع أن يدرس ، وكانت دراسته خصبة أثرت البلاغة العربية والنقد ، ومازال المنصفون يعتزون بها حتى اليوم هذه الدراسات المزدهرة استطاع البلاغيون - من بعد عبد القاهر - أن يضعوها فى قواعد منضبطة ورتبوها ترتيبا منطقيا عليا ثم ابتليت بالتلخيص وبأشياء خارجة عن البحث البلاغى - مما جعلها لا تنهض بالغاية المرجوة منها .

وهذا الكتاب محاولة مخلصة جادة للإفادة منها ، وللإسهام فى خدمتها .

— ١٤ —

وقبل أن نعرض عليك الدلالات البلاغية لتراكيب النظم نود أن نوضح لك موقف الأديب منها .

والأديب هو ذلك الإنسان الحساس المرهف الشعور الذى يتأثر

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٦٠ .

بما يدور فى نفسه من مشاعر ، وما يقع حوله من أحداث ويصور لنا هذا كله فى صورة أدبية : شعرية أو نثرية — مستخدما فى ذلك اللغة التى هى أداة فنه ووسيلة اتصاله بالسامع أو القارىء .

وهذا الأديب أو البليغ تدفعه عاطفته القوية إلى إنشاء الكلام الفنى الجميل متى أراد ذلك .

هذه العاطفة هى تجربته الشعرية التى تتشبع فيها نفسه بموضوع أو مشاهدة يتأثر بها تأثرا قويا ، يدفعه إلى إفراغ مافى نفسه .

وهذه العاطفة القوية لا تحيا دون الاعتماد على الفكرة ، وإلا فكيف نأسى ونحزن إذا لم تكن هناك حقيقة هى : فكرة الموت وسلطانه وكيف نفرح إذا لم تكن فكرة النصر ماثلة أمام أبصارنا .

هذه العاطفة القوية المعتمدة على الفكرة لا تستطيع اللغة العادية أن تنقلها إلى المتلقى أو القارىء .

لذلك ترى الأديب أو البليغ يحاول أن يصطنع لغة أخرى تسمو إلى مستوى نفسه الثائرة ، وتستطيع تصوير مافيها ، والتعبير عنها .

هذه اللغة المخترعة تقوم على الصور التى تجسم المعانى وتنقلها إلى درجة أرقى لتزداد قوة وجمالا .

هذه الصورة يأتى بها الأديب فى كلامه من استعماله للتشبيه أو الاستعارة أو الكناية أو المبالغة أو التخييل أو ما يسمى فى البلاغة بعلم « البيان » .

هذه اللغة المخترعة أو الأسلوب الأدبى أو الوسيلة البيانية التى تستمد مقوماتها من الطبيعة والأشياء التى يؤلفها الأديب بطريق التشبيه أو المجاز أو الكناية مثلا .

هذه اللغة هى : الخيال المصور الذى هو الأداة اللازمة لإثارة العاطفة

وإبرازها قوية واضحة ، ومؤثرة نافعة بفضل مافيها من جمال الأداء وحسن التصوير(١) .

وترى الأديب يتأنق فى ترتيب أفكاره ، وتنسيقها ليكون كلامه مفهوما . ويختار الألفاظ الفصيحة التى تعبر عن قوة عاطفته وانفعاله ، والتى تثير الشعور بالمتعة ، وتدخل على نفس القارىء السرور والإعجاب .

ثم هو يتصرف فى بناء العبارة أو الجملة على غير ماعهدنا فى اللغة العادية فتراه يقدم ويؤخر ، ويحذف ويذكر . ويوجز ويطنب .

وقد يصل بين الجمل وقد يفصل بينها ، وقد يعرض المعنى فى أكثر من جملة ، وقد يعرض الجملة فى صورة خبرية ، ويعرض الأخرى فى شكل أمر أو استفهام أو تمنى أو نحوها .

وقد يعرف المسند إليه والمسند ، وقد ينكرهما إلى غير ذلك من ألوان التصرف البلاغى الذى يسمى فى البلاغة « علم المعانى » .

وتراه أيضا يعنى بالنص الذى كتبه فيزينه ويزخرفه ويجعله رشيقا عذبا تهش له الآذان وتستجيب له القلوب يطابق فى كلامه أو يزاوج أو يجانس إلى غير ذلك مما يسمى فى البلاغة « علم البديع » .

ومن هنا توزعت مباحث البلاغة إلى ثلاثة علوم : « المعانى والبيان والبديع » .

فالأديب يجب أن يكون على علم بهذه العلوم التى يستعملها فى إنتاجه ، وكذلك القارىء أو السامع أو الناقد لتتم عملية التذوق الأدبى ، ويحس بكل

---

(١) أنظر الأسلوب للشايب ص ٣ وما بعدها الطبعة الثانية مطبعة الاعتماد بمصر نشر مكتبة النهضة المصرية .

ما أراد الأديب أن ينقله من دلالات وأفكار لابد أن يزود المتلق بقدر كاف من العلوم البلاغية لكى يشارك الأديب أحاسيسه . ويفهم كل ألوان التصرف البلاغى التى استعان بها الأديب فى تعبيره .

— ١٥ —

وإذا كان الأدب هو : كل النصوص الأدبية التى يصور بها الأديب مظاهر الحياة وخواطر النفس بأسلوب جميل يهز المشاعر، ويأسر القلوب فالنقدالأدبى هو : دراسة هذه النصوص وبيان ما فيها من حسن وقبح وتقليد وابتكار ، ويأتى التاريخ الأدبى . فيقوم تلك النصوص ، ويرتبها تبعا لما بينها من صلات فى الموضوع والصياغة ، وعلى ضوء تسلسل تلك الصياغات يضع تاريخ التيارات العقلية والأخلاقية ، وبملاحظة وجوه الشبه بين بعض الألوان وبعض المناحى الفنية المتشابهة فى النصوص التى من نوع أدبى واحد ، ومن تآليف أدباء مختلفين ، يضع تاريخ عصور الذوق .

أما البلاغة فمع الأديب فى أثناء نتاجه الأدبى فى الأغراض المختلفة إنها هى التى ترشده وتهديه إلى الطريق الصواب حتى يؤلف كلاما بليغا يثير لدى القارىء أو السامع الإعجاب والسرور .

فهى معه تأخذ بيده وترشده إلى الإنشاء البليغ وإلى الطرق والوسائل المختلفة لتأليف الكلام الفنى الجميل فهى متقدمة الوظيفة على النقد الأدبى الذى يفترض أن الكلام قد تم إنشاؤه ، وانتهى منه صاحبه ، ثم يعرض علينا مقاييسه للحكم الأديب أوعليه فهو يعنى بدراسة النصوص، وبمحاسبة الأديب بعد أن ترشده علوم البلاغة إلى طرق الأداء وحسن التعبير الممتاز القادر على الإقناع والتأثير(١) .

---

(١) أنظر الأسلوب للشايب ص ٤ ومابعدها .

— ١٦ —

حينما ندرس قواعد البلاغة ومسائلها دراسة نظرية منظمة، يقال : إننا ندرس « علم البلاغة » ، كدراستنا لباب المسند إليه والمسند والقصر والإنشاء والفصل والوصل والمجاز والكناية وألوان البديع وغيرها .

فإذا ما أخذنا نطبق هذه القواعد تطبيقا عمليا ونسير على هديها بإنشاء الكلام الجيد ، قيل : إننا نعالج « البلاغة » كأن نكتب الرواية أو القصة أو نرتجل الخطابة أو نقرض الشعر أو غير ذلك .

— ١٧ —

قبل أن نعرض عليك أحوال النظم العربى ومقتضياته ، والتصرفات التى يحدثها الأديب فى نظمه ليطابق بها مقتضى الحال — نوضح لك : أن الناقد الأدبى ينظر إلى النظم العربى من ناحية ألفاظه ومن ناحية تراكيبه ، فينظر إلى الكلمات وبناء كل كلمة من حروف متآلفة . وموافقتها للقواعد الصرفية ، مع وضوح معناها وكثرة تداولها بين الشعراء والكتاب الموثوق بعربيتهم .

فإذا اطمأن إلى ذلك ، انتقل إلى التراكيب وتأكد من تأليفها من كلمات فصيحة يسهل على اللسان النطق بها : ويسهل على العقل فهمها لترتيب ألفاظها وفق ترتيب المعانى ووضع مفرداته للمعانى التى وضعت لها ،

وطابق الكلام مقتضى الحال أى كان الأديب مع الأحداث .

وللناقد نظرات إلى النظم العربى أخرى : نفسية واجتماعية وغيرها .

وسنصحبك فى هذا الكتاب مع دراسة علمية المفردات والتراكيب فنعرف بها كيف يكون اللفظ بليغا والأديب مع أحداث مجتمعه .

الفصاحة والبلاغة

الفصاحة والبلاغة ، والبيان والبراعة . وكل ماشاكل ذلك مما يعبر عن فضل بعض القائلين على بعض يرى الشيخ عبد القاهر الجرجانى أنه لا معنى لهذه العبارات سوى وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة ، ثم تبرجها فى صورة هى أبهى وأزين ، وأحق بأن تنال الحظ الأوفر من ميل القلوب(١) .

ويذكر أبو هلال العسكرى أن البلاغة من قولهم : بلغت الغاية إذا انتهيت إليها ، وبلغتها غيرى ، ومبلغ الشىء منتهاه ، والمبالغة فى الشىء : الانتهاء إلى غايته ، فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهى المعنى إلى قلب السامع فيفهمه(٢) .

والفصاحة من قولهم : أفصح فلان عما فى نفسه إذا أظهره ، والشاهد على أنها هى الإظهار قول العرب : أفصح الصبح إذا أضاء ، وأفصح اللبن إذا انجلت عنه رغوته فظهر ، وفصح أيضا ، وأفصح الأعجمى إذا أبان بعد أن لم يكن يفصح ويبين ، وفصح اللحان إذا عبر عما فى نفسه وأظهره على جهة الصواب دون الخطأ .

وإذا كان الأمر على هذا فالفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وإن اختلف أصلاهما ، لأن كل واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعنى

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ٣٠ ، ٣١ .

(٢) الصناعتين ص٦ لأبى هلال العسكرى تحقيق على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة الأولى ١٣٧١ هـ — ١٩٥٢ م نشر الحلبى .

والإظهار له(١) . وهذا الرأى يتفق مع رأى عبد القاهر وهو الذى نميل إليه .

وهناك رأى آخر يقول : الفصاحة تمام آلة البيان ، فعلى هذا تكون الفصاحة والبلاغة مختلفتين، وذلك أن الفصاحة تمام آلة البيان فهى مقصورة على اللفظ ، لأن الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى ، والبلاغة إنما هى إنهاء المعنى إلى القلب فكأنها مقصورة على المعنى(٢) .

والفصاحة تقع وصفا للكلمة والكلام والمتكلم فتقول : كلمة فصيحة ، وكلام فصيح ومتكلم فصيح .

والبلاغة تقع وصفا للكلام والمتكلم . فتقول كلام بليغ، ومتكلم بليغ.
ولذلك سوف يكون بحثنا حول النقاط الآتية : ما فصاحة الكلمة ؟ ، وما فصاحة الكلام؟ وما فصاحة المتكلم؟ ، وما بلاغة الكلام ؟ ، وما بلاغة المتكلم ؟ .

بالإجابة عن هذه الأسئلة نكون قد انتهينا من الحديث عن القول فى الفصاحة والبلاغة .

---

(١) الصناعتين ص ٧ .
(٢) الصناعتين ص ٧ ، ٨ .

فصاحة الكلمة

الكلمة الفصيحة هى : الكلمة المؤلفة من حروف متآلفة يسهل على اللسان نطقها من غير عناء مع وضوح معناها ، وكثرة تداولها بين الشعراء والكتاب الموثوق بعربيتهم ، وموافقتها للقواعد الصرفية ومرجع ذلك الذوق السليم والإلمام بمتن اللغه وقوأعد والصرف بذلك تسلم مادتها وصيغتها ومعناها من الخلل(١) .

ولكن الخطيب(٢) القزوينى ومن لف لفه — درجوا على القول بأن فصاحة الكلمة : خلوصها من عيوب أربعة :

١ — خلوصها من تنافر الحروف: لتكون رقيقة عذبة تخف على اللسان ولا تثقل على السمع .

٢ — خلوصها من الغرابة لتكون مألوفة الاستعمال .

٣ — خلوصها من مخالفة القياس الصرفى حتى لا تكون شاذة .

٤ — خلوصها من الكراهة فى السمع .

---

(١) انظر دلائل الإعجاز صـ ٢١ وما بعدها وانظر أيضاً : شروح التخليص صـ ٧٦ ، ٧٧ خاصة حاشية الدسوقى طبع الحلبى .

(٢) هو : جلال الدين أبو عبد الله محمد عبد الرحمن عمر القزوينى المتوفى سنة ٧٣٩ هـ

تنافر الحروف

وتنافر الحروف : هو وصف فى الكلمة ، يوجب ثقلها على السمع وصعوبة آدائها على اللسان ، وهو نوعان :

١ — شديد فى الثقل كلفظ « الهُعْخُع » من قول أعرابى سئل عن ناقته فقال : « تركتها ترعى الهعخع » . قيل إن معنى كلمة « الهعخع » اسم لنبات ترعاه الإبل ، وقيل :

إن هذه الكلمة لا أصل لها ، وروى عن بعض اللغويين قولهم : سألنا الثقات فأنكروا أن يكون هذا الاسم من كلام العرب(١) .

٢ — خفيف فى الثقل كلفظ « مستشزرات » بمعنى مرتفعات من قول امرىء القيس :

غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إلى العلا　　　تَضِلُّ العِقَاصُ فى مُثَنًّى وَمُرْسَلِ

والبيت من بحر الطويل : من القصيدة المشهورة التى هى إحدى المعلقات السبع .

والغدائر ـ جمع غديرة : الذوائب . والاستشزار : الرفع والارتفاع جميعا ، والعلا : جمع علياء تأنيث الأعلى ، وأراد الجهات العلا . والعقاص : جمع عقيصة ، وهى الخصلة من الشعر تأخذها المرأة فتلويها ثم تعقدها حتى يبقى فيها التواء ثم ترسلها ، والمثنى من الشعر وغيره : ما ثنى ، والمرسل : ضده ومعنى البيت : أن حبيبته لكثرة شعرها بعضه مرفوع ، وبعضه مثنى ، وبعضه

---

(١) عروس الأفراح للسبكى ص ٧٩ ضمن شرح التلخيص طبع الحلبى وانظر أيضا سر الفصاحة ص ٥٨ لابن سنان الخفاجى تحقيق الصعيدى نشر صبيح .

معقوص ملوى بين المثنى والمرسل والشاهد فى البيت : التنافر ، وهو لفظة « مستشزرات » لثقلها على اللسان ، وعسر النطق بها[١] .

ولا ضابط لمعرفة الثقل والصعوبة سوى الذوق السليم والحس الصادق اللذين تربيا على النظر فى كلام البلغاء وممارسة أساليبهم .

ويرى ابن سنان الخفاجى : أن قرب المخارج يكون سببا فى تبح اللفظ وبعدها يكون سببا فى حسنها[٢] ، ويناقش[٣] على بن عيسى الرمانى فيما نقله عن الخليل بن أحمد من أن التنافر يكون بتقارب الحروف فى المخارج أو تباعدها بعدا شديدا ، لأن البعد الشديد بين مخارج الحروف يكون بمنزلة الطفر ، والقرب الشديد يكون بمنزلة مشى المقيد ، وكلاهما صعب على اللسان والسهولة فى ذلك الاعتدال ، ولذلك وقع فى الكلام الادغام والإبدال .

والحق أن ذلك غير مطرد ، لأن الكلمتين قد تركبان من حروف واحدة ، وتكون إحداهما ثقيلة دون الأخرى ، وذلك مثل (علم وملع[٤]) . فالأولى خفيفة على اللسان ، ولا ينبو عنها الذوق بخلاف الثانية مع إتحاد حروفهما . وقد تتألف الكلمة من حروف متقاربة ولا تكون ثقيلة ، مثل : (ذقته بفمى) فالباء والفاء والميم أحرف شفوية متقاربة ، ولا ثقل فيها .

ولكن مع هذا لا يمكن إنكار ما لمخارج الحروف وصفاتها ، وهيئة

---

(١) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للعباسى ص ٩ ح ١ تحقيق محى الدين طبع السعادة .

(٢) سر الفصاحة ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٣) المرجع السابق ص ١١٢ .

(٤) ملع كمنع : سلخ الشاة من جهة عنقها القاموس المحيط ح ٣ ص ٨٦ .

تأليفها من الأثر فى خفة الكلمة وثقلها ، وإنما عول على الذوق السليم دونه، لأنه يجرى على قاعدة معروفة .

ويذكرون سببا آخر فى ثقل كلمة « مستشزرات » وهو : أن « الشين » المهموسة الرخوة بين « التاء » المهموسة الشديدة والزاى المجهورة(١) .

ومثل « مستشزرات » كلمة « اطلخم » فى قول أبى تمام :

قد قلتُ لمَّا اطْلَخَمَّ الأمرُ وانبعثَتْ
عَشْـوَاءُ تَالِيـةً غُبْسًا دَهَارِيسَا

اطلخم : اشتد ، عشواء : الناقة لا تبصر ، غبسا : الظلام الشديد ، الدهاريس : الدواهى وكذلك كلمة سديداواتها ، من قول المتنبى :

إن الكرام بلا كرام منهم   مثل القلوب بلا سويداواتها

والمعنى: الكرام من الخيل إذا لم يكن عليها فرسان من هؤلاء الممدوحين كالقلب إذا لم يكن فيه سويداء .

والشاهد فيه : التنافر فى كلمة « سويداواتها » لثقلها على اللسان ، وقد نشأ هذا من طولها .

وهكذا عرفنا أن الأديب عليه أن يختار ألفاظه بدقة حتى تكون سهلة على اللسان عند النطق بها وكذلك تكون واضحة المعنى ، والضابط المعول عليه فى ضبط تنافر الحروف « الذوق » وهو قوة يدرك بها لطائف الكلام ووجوه تحسينه ، فكل ماعدّه الذوق ثقيلا يعسر النطق به كان ثقيلا ومالا فلا(٢) .

---

(١) حاشية الدسوقى ص ٨٠ ج ١ ضمن شروح التلخيص طبع الحلبى ومختصر التفتازانى على التلخيص   (٢) نفس المرجع

الغرابة

وأما غرابة الاستعمال فهى : كون الكلمة غير ظاهرة المعنى، ولا مألوفة الاستعمال عند العرب الفصحاء لأنه المعول عليه فيحتاج إلى معرفة معناها إلى أن ينقر عنها فى كتب اللغة، أو يكون المراد من الكلمة محتاجا إلى التخريج على وجه بعيد.

والغرابة قسمان :

القسم الأول : ما يوجب حيرة السامع فى فهم المعنى المقصود من الكلمة لترددها بين معنيين أو أكثر بلا قرينة، وذلك «كمسرج» من قول رؤبة ابن العجاج :

أيام أبدت واضحا مفلجا   أغر براقا وطرفا أبرجا
ومقلة وحاجبا مزججا   وفاحما ومرسنا مسرجا

والبيت من بحر الرجز وأبدت : أظهرت : وواضحا : اى سنا واضحا. والفلج : تباعد ما بين الأسنان. والأغر : الأبيض : والبريق : اللمعان. والطرف : العين. البرج : بالتحريك وهو عظم العين وحسنها، أى وطرفا عظيما حسنا. والمقلة : بياض العين. مع سوادها، وقد تستعمل فى الحدقة. ومزججا : مدققا مطولا، وفاحما : أى شعرا أسود كالفحم، ومرسنا : المراد بها الأنف. وإطلاق المرسن : وهو اسم لمحل الرسن — وهو أنف البعير - على أنف الانسان من باب المجاز المرسل الذى علاقته الإطلاق والتقييد.

والشاهد قوله : «مسرجا» فإن فيها غرابة ؛ لأنه لا يعلم ما أراد الشاعر به.

وحمل هذه الكلمة على الخطأ لا يصح : لوقوعها من عربى عارف باللغة.

ومن هنا طفق علماء اللغة يخرجون هذه الكلمة « مسرجا » على وجه تسلم به من الخطأ وإن كان بعيدا ، واختلفوا فى تخريجها :

قال ابن دريد : يريد الشاعر بقوله : « مسرجا » أن أنف المرأة فى الاستواء والدقة كالسيف السريجى وقال ابن سيدة : يريد الشاعر أن أنف المرأه فى البريق واللمعان كالسراج .

فلماذا كانت الكلمة غير ظاهرة الدلالة على المعنى المراد حتى صارت فى عرف البلاغيين « غريبة » ؟

قالوا : إن « مسرجا » اسم مفعول مشتق وكل مشتق لا بد له من أصل يرجع إليه باشتقاقه منه ، وأصل المشتقات هو « المصدر » ففتش العلماء فى كتب اللغة فلم يجدوا فيها « تسريج » ، لأن « سرج » على وزن « فعّل » بتضعيف العين ، و « فعل » مصدره « التفعيل » ، فيكون مصدر « سرّج » « التسريج » . ولكنهم وجدوا من مادة « سرج » سريجى وسراج .

ولما كانت صيغة « فعّل » بتضعيف العين فى اللغة تدل على النسبة إلى الأصل كما يقولون فى مثل « كرّمته » نسبته إلى الكرم ، و « فسّقته » نسبته للفسق ، كان حق سرّج أن تكون منسوبة إلى « التسريج » الذى حق النسبة أن تكون إليه — حاول العلماء أن يجدوا لذلك مخرجا فخالفوا فى أمرين :

الأمر الأول : جعلوا « مسرجا » منسوبا « للسراج ، أو السريجى » بدلا من النسبة إلى الأصل أى « التسريج » .

الثانى : جعلوا النسبة تشبيهية . والمعنى حينئذ ومرسنا منسوبا « للسراج » من حيث أنه شبيه فى البريق واللمعان أو منسوبا « للسريجى » من حيث أنه شبيه به فى الدقة والاستواء .

ثم أن المعروف لدى اللغويين والنحويين أن اسم المفعول مثل « مسرّجا »

فى قول الشاعر — فى الأصل معناه ذات وقع عليها الفعل ، فتفسيره فى قول الشاعر بمعنى ذات شبهت بذات أخرى مخالف لقاعدتهم »

وعندهم أيضا : مجرد النسبة لا يدل على التشبيه ، فجعلها للتشبيه بعيد . وليس تشبيها حقيقيا بل هو تشبيه مرموز إليه .

ولا يخفى ما فى تشبيه الأنف بالسيف أو السراج من البرودة ومن خلاف المعتاد فى تراكيب البلغاء واعتباراتهم حتى لو صرح بالتشبيه لج فكيف تكون الحال من الرمز إلى التشبيه .

وقد حاول بعض البلاغيين أن يخرج كلمة « مسرجا » على وجه موافق للقياس حاصله : أن « فعّل » يجيء ، بمعنى صيرورة فاعله كأصله تقول : قوّس الرجل أى صار كالقوس ، وحينئذ يكون « مسرج » معناه : الصائر كالسراج أو كالسيف السريجى .

ورد هذا التخريج بأن « سرج » بهذا المعنى لازم لا يصاغ منه اسم المفعول فلا يظهر ذلك إلا إذا كان «مسرج» بكسر الراء اسم فاعل مع أن الرواية بفتحها « اسم مفعول » .

وحاول بعضهم أيضا : أن يخرج كلمة « مسرجا » من الغرابة فقال : ورد فى كتب اللغة تفسير «سرج» بهج وحسن : يقال : سرج الله أمرك أى بهجه وحسنه .

وأجيب بأن « مسرجا » إذا جعل اسم مفعول من سرج الله أمرك بمعنى بهجه وحسنه — غريب أيضا ؛ لأنه يحتاج إلى تفتيش عليه فى كتب اللغة العربية المبسوطة لعدم وجوده فى الكتب المشهورة .

واعترض بأن « سرج الله أمرك » بهذا المعنى موجود فى الديوان والتاج وغيرهما من كتب اللغة فهو مشهور فلا يكون غريبا .

ورد على هذا بأن اشتهار « سرج » فى كتب اللغة من المتأخرين قدجاء بعد الحكم من قدماء أهل اللغة بغرابة « مسرج » وحينئذ ذلك «الاشتهار» لايخرج « مسرجــا » عن الغرابة « بالنسبة للمتقدمين لاحتياجهم إلى التفتيش عليه(١) :

ولذلك كان الحكم بالغرابة بالنسبة إلى العرب العرباء لا بالنسبة إلى استعمال الناس ، ولو أردنا استعمال الناس لكان جميع ما فى كتب الغريب غير فصيح والقطع بخلافه(٢) .

فلا جل هذا كله كانت كلمة « مسرجا » غريبة جداً لأننا فى البلاغة نقول كما يقول الجاحظ : « لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك(٣) .

القسم الثانى من الغرابة : ما يعاب استعماله ، لأنه يحتاج إلى تتبع اللغات وكثرة البحث والتفتيش فى « المعاجم وقواميس اللغة المطولة حتى يعثر القارىء على معناها . وذلك مثل قول عيسى بن عمرو النحوى: «مالكم تكأكأتم على كتكأكؤكم على ذى جنة افرنقعوا عنى » أى : ما لكم اجتمعتم على كاجتماعكم على ذى جنون انصرفوا .

قال ذلك : حين سقط عن دابته فاجتمع الناس حوله فلما سمعوه قالوا : دعوه فإن شيطانه يتكلم بالهندية وهكذا نرى أن الأديب عليه أن يختار كلماته اختيارا دقيقا حتى يكون غرضه واضحا .

---

(١) حاشية الدسوقى حـ١ صـ١١٥ ضمن شروح التلخيص
(٢) عروس الأفراح حـ١ صـ ١١٤ ، ١١٥ ضمن شروح التلخيص
(٣) البيان والتبيين جـ١ صـ ١١٥

مخالفة القياس

والمخالفة هى : أن تكون الكلمة غير جارية على قانون المفردات والمفردات اللغوية يتقرر حكمها بالقانون الصرفى . فإذا اقتضى القانون وجوب إدغام المثلين فورود بخلافه مثل لفظ « الأجلل » من قول أبي النجم :

الحمدُ لله العليِّ الأجللِ أعطى فلمْ يبخلْ ولمْ يُبخَّلِ

والشاهد فيه مخالفة القياس اللغوى فى قوله « الأجلل » إذ القياس « الأجل » بالإدغام .

والذى ألجأه إلى فك الادغام ضرورة الشعر « ولكن ذلك لا يمنع الإخلال بالفصاحة . لأن من الضرورات الشعرية ما هو مستقبح[1] .

ومنه قول قعنب ابن أم صاحب :

مهلاً أعاذلَ قدْ جرَّبْتِ منْ خُلُقِي أنِّي أجودُ لأقوامٍ وإنْ ضَنِنُوا

والقياس « ضنوا » بالادغام ويستثنى من ذلك ما ثبت استعماله لدى العرب مخالفا للقياس ، ولكنه فصيح ، مثل (آل وماء) أصلهما « أهل » وموه » . أبدلت « الهاء » فيهما « همزة » : وإبدال الهمزة من الهاء . وإن كان على خلاف القياس إلا أنه ثبت عن الواضع .

ومثل « أبى يأبى » بفتح الباء فى المضارع والقياس كسرها لأن « فعل » بفتح العين لا يأتى مضارعه على « يفعل » بالفتح إلا إذا كان عين ماضيه

---

(١) عروس الأفراح جـ١ ص ٨٨ ، ٨٩

أو لامه حرف حلق «كسأل» و«نفع» فجيء المضارع من «أبى» «يأبى» بالفتح على خلاف القياس، إلا أن الفتح ثبت عن الواضع.

ومثل «عَوِرَ - يَعْوَرُ» أى فالقياس فيهما «عار - يعار» بقلب الواو ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها. فتصبح الواو على خلاف القياس، إلا أن ذلك ثبت عن الواضع.

الكراهة فى السمع

يرى بعض البلاغيين أن فصاحة المفرد تكون بخلوصه مما ذكر «تنافر الحروف، - والغرابة - ومخالفة القياس اللغوى» ومن الكراهة فى السمع: بأن تكون اللفظة بحيث يمجها السمع ويبرأ من سماعها كما يبرأ من سماع الأصوات المنكرة فإن اللفظ من قبيل الأصوات، والأصوات منها ما تستلذ النفس سماعه ومنها ما تكره سماعه.

ومثال ذلك لفظ «الجرشى» فى قول أبى الطيب يمدح الأمير على سيف الدولة ابن حمدان صاحب حلب:

مُبَارَكُ الاسم أَغَرُّ اللقب كريم الجرشى شريف النَّسَبْ

و«الجرشى» بكسر الجيم والراء مقصورا: «النفس»، «ومبارك الاسم» أى اسم الممدوح وهو: «على» لموافقة اسمه أمير المؤمنين على بن أبى طالب - رضى الله عنه - والأغر: أصله الأبيض الجبهة من الخيل أو الأبيض من كل شىء، ويستعار للمشهور المعروف.

واللقب: ما دل على مدح كزين العابدين، أو ذم كأنف الناقة، وإنما قال أغر اللقب؛ لأن لقبه «سيف الدولة» ولا ريب فى اشتهاره، وكريم

كل شيء صفوته وخالصه . والشاهد فى البيت كراهة السمع لكلمة : « الجرشى »(١) .

واشتراط خلوص المفرد من الكراهة فى السمع لأجل الفصاحة لم يسلم من الاعتراض ؛ لأن الكراهة فى السمع لاسبب لها إلا الغرابة . وهذا يغنى عن إشتراط الخلوص من الكراهة فى السمع(٢) :

وبعضهم يرى أن الكراهة فى السمع تأتى من قبح الصوت وحينئذ الاحتراز منها يخرج كثيرا من الكلمات المتفق على فصاحتها - من الفصاحة - بسبب نطق قبيح الصوت كذلك يلزم أن يكون لفظ « الجرشى » غير مكروه فى السمع ؛ إلا إذا سمع من قبيح الصوت : وليس كذلك للقطع بكراهيته دون مرادفه : « النفس » وإن نطق به حسن الصوت(٣) :

لذلك جعل بعضهم الكراهية من جهة الصوت لا تعلق لها بالفصاحة ؛ لأن السمع قد يستلذ بغير الفصيح إذا نطق به حسن الصوت ، وقد يكره السمع الفصيح إذا نطق به قبيح الصوت(٤) .

ويرى بعض البلاغيين أن كراهة لفظ « الجرشى » ترجع إلى تتابع الكسرات ، وبعضهم يرى أنه لاكراهة فيها(٥) .

---

(١) انظر معاهد التنصيص ص ٢٦ ، ٢٧ جـ ١

(٢) بغية الإيضاح للصعيدى ص ١٠ جـ ١ الطبعة الرابعة سنة ١٣٧١ هـ ١٩٥٢م وانظر أيضاً حاشية الدسوقى جـ١ ص ٩٠

(٣ ، ٤) انظر حاشية الدسوقى جـ ١ ص ٩٠ ، ٩١ ضمن شروح التلخيص .

(٥) عروس الأفراح ص ٩٠ ، ٩١

ورأينا أنه إذا كانت لفظ « الجرشى » مضافة إلى وصف مستكره مثل « لئيم الجرشى » فهى لا كراهة فيها لأن المقام يستدعيها ، لكونه مقام ذم ، والألفاظ الخشنة تساعد فى أداء معنى الذم .

أما إذا كانت « الجرشى » مضافة إلى وصف محبــوب مثل « كريم الجرشى » .

فإنها تكون مستكرهة فى هذا المقام ، لأن مقام المدح يستدعى ما خف وما حلا من الألفاظ .

فصاحة الكلام

فصاحة الكلام : تأليفه من كلمات فصيحة ، يسهل على اللسان النطق بها لانسجامها والتئامها وتوافق أجراسها .

ويسهل على الذهن فهمها لترتيب ألفاظها وفق ترتيب المعانى ،واستعمال الكلمات للمعانى التى وضعت لها ، وكون التركيب جاريا على قواعد النحو المشهورة .

ويمكن أن نقول : إن فصاحة الكلام عبارة عن خلوصه من خمسة عيوب :

١ — ضعف التأليف .
٢ — تنافر الكلمات مجتمعة .
٣ — التعقيد اللفظى والمعنوى .
٤ — كثرة التكرار .
٥ — تتابع الإضافات .

ضعف التأليف

ضعف التأليف : هو أن يكون الكلام جاريا على خلاف ما اشتهر من قوانين النحو المعتبرة عند جمهور النحويين ، مع فصاحة المفردات . أما إذا خالف المجمع عليه كجر الفاعل ورفع المفعول ففاسد غير عربى والنقد أو البلاغة لا ينظران فى النظم إلا إذا تجاوز مرحلة الصحة ، وكان موافقا لما عليه الجمهور .

فإذا كان النظم صحيحا ولكنه لم يأت على المشهور من آراء العلماء

فإن البلاغيين يصفونه بضعف التأليف ومن ثمّ يقولون : إن هذا التركيب غير فصيح .

ومثال ذلك : الاضمار قبل ذكر مرجعه لفظا ورتبة نحو قول حسان بن ثابت :

فلو كان مجد يخلد اليوم واحداً من الناس أبقى مجده اليوم مطعما(١)

فالضمير فى « مجده » راجع إلى « مطعما » وهو متأخر فى اللفظ كما ترى وفى الرتبة ؛ لأنه مفعول به ، فالبيت غير فصيح لمخالفته القاعدة النحوية المشهورة عند الجمهور التى تقول : لا بدّ من عود الضمير على متقدم لفظا ورتبة أو لفظا فقط .

ومطعم أحد رؤساء مكة ، وكان يدافع عن النبى صلى الله عليه وسلم . ومعنى البيت : لو كان مجد الإنسان سببا لخلوده فى الدنيا لكان مطعم بن عدى أولى الناس بالخلود ، لأنه حاز من المجد ما لم يحزه غيره .

ولكن الضمير المتصل بالفاعل والعائد على المفعول جوزه ابن جنى وابن مالك وغيرهما مستدلين بقول الشاعر :

جزى رَبُّهُ عنى عَدِيَّ بن حاتم جزاء الكلاب العاويات وقد فَعَل

والبيت : قيل إنه(٢) للنابغة الذبيانى وقيل لغيره ، وقيل موضوع لاحجة فيه ، والشاهد فيه تقديم الضمير على مرجعه لفظا ورتبة ، وهو يوجب ضعف التأليف ، وأجيب عنه بأنه يرجع إلى المصدر المفهوم من جزى ، والمعنى جزى رب الجزاء ، كما فى قوله تعالى : (اعدلوا هو أقرب للتقوى)(٣) ولكن هنا فرق بين الآية والبيت .

---

(١) انظر الديوان ص ٢٢٩ طبع دار بيروت نشر دار الباز بمكة المكرمة
(٢) بغية الإيضاح ج ١ ص ١١ (٣) سورة المائده آية ٨

فالضمير فى الآية ظاهر العود إلى العدل . أما البيت فضميره ظاهر العود إلى عدى ، ولا داعى إلى تكلف عوده إلى الجزاء ، ومنه قول الآخر :

لَيسَ إلاكَ ياعلىُّ هُمَــامُ ... سيفُهُ دونَ عرضِهِ مَسْلُولُ

والقاعدة المشهورة تمنع وقوع الضمير المتصل بعد « إلا » وهذا العيب يعرف بواسطة علم النحو .

تنافر الكلمات

تنافر الكلمات : أن تكون الكلمات مجتمعة ثقيلة على السمع يتعسر النطق بها ، وإن كانت كل كلمة على انفرادها فصيحة وهو قسمان :

١ — شديد الثقل كالشطر الثانى فى قول الشاعر :

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قَفرٍ ... وليسَ قربَ قبرِ حربٍ قــبرُ

زعموا أن قائل هذا البيت « جنى » صاح على حرب بن أمية فمات فى فلاة .

قيل : إن هذا لا يمكن إنشاده ثلاث مرات متواليات إلا ويغلط المنشد فيه ، لأن نفس اجتماع كلماته وقرب مخارج حروفها يحدثان ثقلا ظاهرا مع أن كل كلمة منه لو أخذت وحدها لا تكون مستكرهة ولا ثقيلة .

وأنشد الجاحظ قول ابن بشير الذى يرثى فيه أحمد بن يوسف :

لم يضرْهَا والحمدُ لِله شىء ... وانثنَتْ نحو عزفِ نفسٍ ذَهُولِ

يقول الجاحظ : فتفقد النصف الأخير من البيت الثالث ، فإنك ستجد بعض ألفاظه تتبرأ من بعض[1] .

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ حـ ١ صـ ٦٦ تحقيق هارون الطبعة الثانية نشر الخانجى .

ومنه خفيف الثقل كالشطر الأول فى قول أبى تمام :

كريمٌ متى أمدحْهُ أمدحه والورى
معى وإذا مالمتُه لمتُهُ وَحْدِى

أى هو كريم ، وإذا مدحته وافقنى الناس على مدحه ويمدحونه معى لإسداء إحسانه إليهم كإسدائه إلىّ وإذا لمته لم يوافقنى أحد على لومه ، لعدم وجود المقتضى للوم فيه .

وآثر لفظ « لمته » على لفظ « هجوته » مع أن المدح يقابله الهجاء : إشارة إلى أنه لايستحق الهجو ، ولو فرض وحصل منه شىء فإنما يلام عليه فقط ، ودخول « إذا » على اللوم يجعله محقق الوقوع وهذا يغض من المدح الذى يجب أن يقوم على المبالغة .

والشاهد فى البيت : أن الثقل فى قوله : « أمدحه » حيث كررت فقال « أمدحه أمدحه » .

ويقول الجاحظ فى هذا المعنى : وأجود الكلام مارأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فكأنه أفرغ إفراغا واحدا ، فهو يجرى على اللسان كما يجرى الدهان .

ومثله قول أبى حية النميرى .

رمتنى وسترُ الله بينى وبينَها عشيةَ آرامِ الكناسِ رَميمُ
رميم التى قالتْ لجاراتِ بيتِها ضمنتُ لكمْ أن لايزالُ يهيمُ
ألاربَّ يوم لورمتْنِى رَمَيْتُها ولكنْ عهدِى بالنِّضالِ قديمُ

رمتنى : أى بطرفها . ستر الله : الإسلام ؛ « وآرام الكناس » روى فيها : « بأحجار الكناس » وهو اسم موضع ، ورميم : اسم خليلته .

فأنت إذا قرأت هذه الأبيات وجدت فى نفسك اهتزازا، وأحسست بسهولتها وعذوبة ألفاظها

التعقيد

من صفات الأسلوب الجيد : الوضوح - ويتحقق بنقل المعنى المراد إلى ذهن القارىء أو السامع .

لذلك يشترط النقاد لفصاحة الكلام خلوصه من التعقيد ويفسرونه : بأن يكون الكلام غير واضح الدلالة على المعنى المراد وهو عندهم نوعان : تعقيد لفظى ، وتعقيد معنوى .

فالتعقيد اللفظى : هو كون الكلام غير واضح الدلالة على المعنى المراد لخلل واقع فى ترتيب مفردات النظم : أى أن الألفاظ غير مرتبة على وفق ترتيب المعانى مثال ذلك قول الفرزدق :

إِلَى مَلِكٍ مَا أُمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ ... أَبُوهُ وَلَا كَانَتْ كُلَيْبٌ تُصَاهِرُهْ

يريد : إلى ملك أبوه ليست أمه من محارب .

وقوله أيضا : يمدح إبراهيم بن هشام بن اسماعيل المخزومى خال هشام ابن عبد الملك بن مروان :

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكًا ... أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ

يريد : وما مثله فى الناس حى يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه أى : وما مثله فى الناس أحد يشبهه فى الفضائل إلا هشاما .

فهو كما تراه فى غاية التعقيد ، لأن الضمير فى « أمه » « للملك » ، وفى

« أبوه » « للمدوّح » ، ففصل بين — أبو أمه » — وهو مبتدأ — و « أبوه » وهو خبر ، « بحى » وهو أجنبى ، وكذا فصل بين « حى » وجملة « يقاربه » وهى نعت « حى » ، وقدم المستثنى على المستثنى منه .

فالكلام الخالى من التعقيد اللفظى ماسلم نظمه من الخلل ، فلم يكن فيه مايخالف الأصل : من تقديم أو تأخير أو إضمار أو غير ذلك إلا وقد قامت عليه قرينة ظاهرة لفظية أو معنوية(١)

أما التعقيد المعنوى فهو : أن يكون المعنى المراد غير واضح الدلالة وذلك بسبب خلل فى انتقال الذهن من المعنى الأصلى إلى المعنى المقصود . كما فى قول العباس بن الأحنف :

سَأَطْلُبُ بُعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا
وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا

يقول : إنى اليوم أطيب نفسا بالبعد والفراق ، وأوطنها على مقاساة الأحزان ، والأشواق ، وأتجرع غصصها ، وأتحمل لأجلها حزنا يفيض الدموع من عينى ، لأصل بذلك إلى وصل يدوم ومسرة لاتزول : فإن الصبر مفتاح الفرج ، ولكل بداية نهاية ومع كل عسر يسرا .

وفى سبيل تأدية هذا المعنى : بدأ الشاعر بداية موفقة إذ دل بسكب الدموع على مايوجبه الفراق من الحزن والكمد ، وقد أحسن وأصاب ، لأن من شأن البكاء أن يكون أمارة على الحزن وأن يكون كناية عنه كقولهم : « أبكانى وأضحكنى » على معنى ساءنى وسرنى .

---

(١) بغية الإيضاح جـ١ صـ ١٤ .

ثم ساق الشاعر هذا القياس إلى نقيضه ، فالتمس أن يدل على ما يوجبه دوام التلاقى من السرور بقوله : « لتجمدا » لظنه أن الجمود خلو العين من البكاء من غير اعتبار شىء آخر ، وأخطأ فيما ظن .

لأن «الجمود» : خلو العين من البكاء عند إرادته منها فلا يكون كناية عن السرور ، وإنما يكون كناية عن الحزن الشديد ، وهذا المعنى هو الذى ورد به الاستعمال العربى ، قالت الخنساء :

أَعَيْنَيَّ جُودَا وَلَا تَجْمُدَا   أَلَا تَبْكِيَانِ عَلَى صَخْرِ النَّدَى

وقال آخر :

أَلَا إِنَّ عَيْنًا لَمْ تَجُدْ يَوْمَ وَاسِطٍ   عَلَيْكَ بِجَارِى دَمْعِهَا لَجَمُودُ

ولو كان الجمود يصلح أن يراد به عدم البكاء فى حال السرور ، لجاز أن يدعى به للرجل ، فيقال : لازالت عينك جامدة ، كما يقال : لا أبكى الله عينك ، وذلك مما لا يشك فى بطلانه ويقول أهل اللغة : سنة جماد : لامطر فيها ، وناقة جماد : لالبن فيها (١)

فاستعمال الشاعر « لتجمدا » كناية عن السرور تعقيد معنوى يجب أن يبتعد عنه الأديب ليكون معناه واضحا .

---

(١) انظر الإيضاح للقزوينى ص ٦ طبع صبيح ١٣٩٠ هـ - ١٩٧١ م

كثرة التكرار

المراد بالكثرة هنا مافوق الواحدة ، فذكر الشيء ثانيا تكرار ، وذكره ثالثا كثرة .

وإنما اشترط البلاغيون الكثرة ، لأن التكرار بلا كثرة لا يخل بالفصاحة وإلا لقبح التوكيد اللفظي(١)

وعلى ذلك يكون المراد بكثرة التكرار : أن يتكرر اللفظ الواحد عدة مرات بغير فائدة كقول أبي الطيب :

وَتُسْعِدُنِي فِي غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ
سَبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ

الغمرة : الشدة ، والسبوح : الفرس الحسن العدو الذي لا يتعب راكبه فكأنه يسبح في الماء . والشواهد : العلامات . والشاهد في البيت كثرة الضمائر وتكرارها .

---

(١) حاشية الدسوقي جـ ١ ص ١١٤ ضمن شروح التلخيص .

تتابع الإضافات

وهى كون الاسم مضافا إضافة متداخلة غالبا كقول ابن بابك :

حَمَامَةُ جَرْعَا حَوْمَةَ الْجَنْدَلِ اسْجَعِي
فَأَنْتِ بِمَرْأًى مِنْ سُعَادَ وَمَسْمَعِ

فقيه إضافة « حمامة » إلى « جرعا » وهو : تأنيث الأجرع وهو المكان ذو الحجارة السود ، أو المكان الرملى الذى لا ينبت شيئا ، و « جرعا » مضاف إلى حومة : وهى معظم الشيء ، وحومة مضاف إلى « الجندل » بسكون النون وهو : الحجر ، والمراد به مكان الحجارة ، وقوله : « فأنت بمرأى من سعاد ومسمع » أى أنت بحيث تراك سعاد ، وتسمع كلامك ، والشاهد فى إضـــافة حمامة إلى جرعا ، وجرعا إلى حومة ، وحومة إلى الجندل .

وفى اشتراط خلوص الكلام من كثرة التكرار ، وتتابع الإضافات نظر ، لأن كلا منهما إن ثقل اللفظ بسببه على اللسان ، فقد حصل الإحتراز عنه بالتنافر ، وإن لم يثقل اللفظ بسببه لم يخل بالفصاحة .

كيف !! وقد وقع فى القرآن الكريم قال تعالى : (مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ[1]) ، وقوله : (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا[2]) . وقوله : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا[3]) .

---

(١) سورة غافر آية ٣١
(٢) سورة مريم آية ٢
(٣) سورة الشمس آية ٧ ، ٨

وقد وقع فى كلام الرسول صلوات الله وسلامه عليه كثرة التكرار وتتابع الإضافات فى حديث واحد وهو قوله : «الكريمُ ابنُ الكريمِ ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم» .

ورسول الله هو أفصح الناس لساناً ، وهو أبعد المتكلمين عما يخل بالفصاحة(١) .

— ٢١ —

فصاحة المتكلم

فصاحة المتكلم : عبارة عن الملكة التى يقتدر بها صاحبها على التعبير عن المقصود بكلام فصيح فى أى غرض من الأغراض والملكة : كيفية راسخة فى نفس صاحبها يكون بها قادرا على أن يعبر عن كل ماقصده من أى نوع من المعانى كالمدح والذم والرثاء وغير ذلك بكلام فصيح .

— ٢٢ —

البـــلاغة

ذكر البلاغيون للبلاغة حدودا كثيرة منها :

قيل لأعرابى : ماالبلاغة ؟ قال : الإيجاز فى غير عجز والإطناب فى غير خطل .

وسأل معاوية صحاراً العبدى ماالبلاغة ؟ قال : أن تجيب فلا تبطىء ، وتصيب فلاتخطىء .

---

(١) انظر بغية الإيضاح صـ ١٧

وقيل لجعفر بن يحيى : ما البيان ؟ فقال : أن يكون اللفظ محيطا بمعناك ، كاشفا عن مغزاك ، وتخرجه من الشركة ، ولا تستعين عليه بطول الفكرة ، ويكون سالما من التكلف بعيدا من سوء الصنعة ، بريئاً من التعقيد ، غنيا عن التأمل .

وسئل ابن المقفع : ما البلاغة ؟ فقال : البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة : فنها مايكون فى السكوت ومنها مايكون فى الاحتجاج ، ومنها مايكون جواباً ، ومنها ما يكون ابتداء ، ومنها ما يكون شعرا ، ومنها مايكون سجعاً وخطباً ، ومنها مايكون رسائل . فعامة مايكون من هذه الأبواب الوحى فيها ، والإشارة إلى المعنى ، والإيجاز هو البلاغة .

فأما الخطب بين السماطين ، وفى إصلاح ذات البين فالإكثار فى غير خطل ، والإطالة فى غير إملال . وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك .

فقيل : فإن مل المستمع الإطالة التى ذكرت أنها أحق ذلك الموقف . قال : إذا أعطيت كل مقام حقه ، وقمت بالذى يجب من سياسة ذلك المقام ، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام ، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو ، فإنه لا يرضيهما شىء .

وأما الجاهل فلست منه ، وليس منك ، وقد كان يقال : « رضا الناس شىء لا ينال » .

وقال ابن المعتز : أبلغ الكلام : ماحسن إيجازه ، وقل مجازه وكثر إعجازه ، وتناسبت صدوره وأعجازه .

وقال : البلاغة بلوغ المعنى ولما يطل سفر الكلام .

وسمع خالد بن صفوان رجلا يتكلم ، ويكثر فى الكلام فقال : اعلم

رحمك الله ـ أن البلاغة ليست بخفة اللسان وكثرة الهذيان ، ولكنها بإصابة المعنى ، والقصد إلى الحجة .

وقيل : البلاغة : لمحة دالة ، وقيل : معرفة الوصل من الفصل . وقيل : البلاغة : هي اختيار الكلام وتصحيح الأقسام . وقيل البلاغة هي : قليل يفهم وكثير لايسأم . وقيل : هي الإشارة إلى المعنى بلمحة تدل عليه .

وقال محمد بن الحنفية : البلاغة قول تضطر العقول إلى فهمه بأيسر عبـــارة .

وقال بعض أهل الهند هي : النظر بالحجة والمعرفة بمواقع الفرصة . وقيل : إجاعة اللفظ بإشباع المعنى .

وقيل : معان كثيرة فى ألفاظ قليلة . وهى إصابة المعنى وحسن الإيجاز .

وقال الخليل : كلمة تكشف عن البغية . وله أيضا : البلاغة ماقرب طرفاه ، وبعد منتهاه .

وقيل : البلاغة حسن العبارة وصحة الدلالة .

وقيل : البلاغة القوة على البيان مع حسن النظام .

وقال أرسطو : البلاغة حسن الاستعارة .

وقيل : البلاغة إهداء المعنى إلى القلب فى أحسن صورة من اللفظ ، وغير ذلك كثير .

وقد عرفها البلاغيون المتأخرون بقولهم : البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحة عباراته وقالوا : إن الفرق بين الفصاحة والبلاغة :

أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ ، والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعـــانى ، وأن الفصاحة تكون وصفا للكلمة والكلام ، والبلاغة لا تكون وصفا إلا للكلام فحسب ، وأن فصاحة الكلام شرط فى بلاغته ، فكل كلام بليغ : فصيح وليس كل فصيح بليغا ، كالذى يقع فيه الحذف حين يجب الذكر . . . إلخ

والآن ننتقل إلى بلاغة الكلام .

— ٢٣ —

بلاغة الكلام

بلاغة الكلام : مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحة ألفاظه .

والكلام البليغ : هو الذى يصوره الأديب بصورة تناسب أحوال المخاطبين .

والحال : أى المقام الذى ورد فيه الكلام ـ هى الأمر الحامل للمتكلم على أن يورد فى كلامه شيئاً خاصا ، زائداً على أصل المعنى .

ومقتضى الحال هو : ذلك الشىء الخاص الذى ورد فى كلام المتكلم .

ومطابقة الكلام لمقتضى الحال : هى اشتماله على ذلك الشىء الخاص .

مثال ذلك : أن يقال لمنكر نجاح على : « إن عليا لناجح » فإنكار المخاطب لنجاح على « حال » ، لأنه أمر يحمل المتكلم على أن يورد فى كلامه شيئاً خاصا هو « التأكيد » مجاراة لهذا الإنكار ، كما فى المثال المذكور .

والتأكيد — كما ترى — أمر زائد على أصل المعنى الذى هو ثبوت النجاح لعلى .

وصورة التأكيد — إن واللام — التى وردت فى الكلام هى: «مقتضى الحال» إذ أن الحال اقتضتها ودعت إليها . واشتمال الكلام على صورة التأكيد هى : مطابقته لمقتضى الحال .

ومثل «الإنكار» «المدح» فهو حال تدعو المتكلم إلى أن يورد كلامه على صورة الإطناب : لأن مقام المدح ، يقتضى الإطالة فى القول ، والبسط فيه كذلك ذكاء المخاطب حال تدعو المتكلم لأن يورد كلامه على صورة الإيجاز ، لأن مقام الذكاء يقتضى الاختصار فى القول ، وكل من صور الإطناب والإيجاز مقتضى الحال .

واشتمال الكلام على صورة الإطناب أو الإيجاز مطابقة لهذا المقتضى

وهكذا يقال فى كل حال من أحوال الخطاب .

— ٢٤ —

بلاغة المتكلم

بلاغة المتكلم : هى ملكة راسخة فى النفس يقتدر بها صاحبها على تأليف كلام بليغ مطابق لمقتضى الحال مع فصاحة ألفاظه .

وتلك غاية لن يصل إليها إلا من كان ذا طبع وذكاء يستطيع بهما الابتكار الفنى والتوليد فى المعانى .

ودرس اللغة العربية ، وأتقن آدابها ، وأصبح له حظ موفور منها ، وتمرس بأساليب الحكماء من فصحاء قومه .

وأطال الاختلاف إلى العلماء ، وعرض نتاجه الأدبى على ذوق الصفوة المختارة من أذكياء وأدباء عصره .

— ٢٥ —

طرفا البلاغة

يتفق البلاغيون على أن البلاغة لها طرفان : أعلى وأسفل ، وبينهما مراتب — تكاد تفوت الحصر — متفاوتة، فمن الأسفل تبتدىء البلاغة : وهو القدر الذى إذا نقص منه شىء التحق ذلك الكلام بأصوات العجماوات(١) ولم يخالفهم إلا الفخر الرازى فإنه أسقط ذلك الحد من البلاغة(٢) .

وبيان ذلك : أن النظم أو الكلام إذا استوفى القواعد النحوية كان كلاما عربيا . وأصبح موضعاً للبحث البلاغى ، أما إذا لم يستوف قواعده النحوية والصرفية فلا يسمى عربياً ، ومن ثم لا تبحث فيه البلاغة .

يبقى عندنا الكلام العربى أى المستوفى للقواعد النحوية والصرفية . فتى نقول عنه : إنه بليغ ؟ يوصف الكلام بالبلاغة إذا فصحت مفرداته وأفاد المعنى المراد منه ، بمعنى أن الكلام طابق مقتضى الحال ولم يكن غثا ولا بارداً .

فإذا أخبرنا إنسان بأنه انتسب إلى كلية اللغة العربية ليتخرج فيها مدرسا لآداب اللغة فهذا كلام عادى وجار على قواعد النحو والصرف وأفاد المعنى المراد منه ، ولكنه ليس فيه إثارة للخيال .

---

(١) انظر مفتاح العلوم للسكاكى ص ١٩٦ طبع الحلبى وبغية الإيضاح ص ٢٢ ج ١ .

(٢) نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز ص ١٢ مطبعة الآداب والمؤيد .

ولذلك بعض البلاغيين يجعله من الأسلوب البليغ وبعضهم يجعله من الأسلوب العادى الذى لابلاغة فيه . وهذا الرأى نميل إليه .

أما إذا قال : سأسجن فى فصول كلية اللغة العربية لأتخرج فيها شقيا للغة العربية . فهذا كلام صحيح من الناحية اللغوية وفيه مجاز ، ولكنه بعيد عن البلاغة ، لأنه غث بارد وسوقى ساقط تتقزز منه النفس ، وتنفر منه الطباع التى تعتقد أن مهمة المدرس شبيهة بمهمة الرسل .

أما إذا قال : انتسبت إلى روضة العلم لأقطف من ثمارها وأرشف من رحيقها ، أحلى سنوات عمرى فأتخرج فيها رسولا من رسل العلم والهدى والنور كان هذا الكلام بليغاً لأنه أثار الخيال ، واستعمل حاستى البصر والذوق ، ووضح الصلة الطيبة بين رسالة المعلمين ورسالة الرسل عليهم أفضل الصلاة وأتم السلام .

— ٢٦ —

ويتفق البلاغيون على أن الأديب إذا استعمل القواعد البلاغية ، وحذق الاعتبارات المناسبة ووضع كل شىء فى مكانه ، وصل إلى كلام بليغ وتقلب فى مراتب النظم ولكنه لايصل إلى درجة الإعجاز . ولا يصل إلى حد الإعجاز إلا علام الغيوب جل وعلا ، لأن المقامات والاعتبارات المناسبة لايحيط بدقائقها وأسرارها إحاطة كاملة إلا الرحمن الرحيم .

— ٢٧ —

وحد الإعجاز عند السكاكى هو الطرف الأعلى من البلاغة ومايقرب منه أى من الطرف الأعلى .

لكن عبارة الخطيب القزوينى وهو كما نعرف قام بتلخيص الجزء الثالث من كتاب مفتاح العلوم — تقول : « وللبلاغة طرفان : أعلى إليه

من أصل المصدر

تنتهى : وهو حد الإعجاز وما يقرب منه »[1] وحد الإعجاز منتم ، لأن
الحد فى اللغة : منتهى الشىء ، ومايقرب من الإعجاز هو مادونه مز اتب
الإعجاز هذا إذا عطفنا « وما يقرب منه » على حد الإعجاز ، و هذا
يكون المعنى مخالفا لما يفهم من عبارة السكاكى ومن هنا تكلفوا وجه خر
للعطف ، فقالوا : إن « وما يقرب منه » معطوف على « وهو » الذى رد
على قوله : « أعلى إليه تنتهى البلاغة » . وجاء التكلف من وجود ل
بين المعطوف والمعطوف عليه فى العبارة وهو : « حد الإعجاز » وكل ع
لتكون عبارة الخطيب موافقة لعبارة السكاكى .

تحدث الخطيب القزوينى وتابعه البلاغيون من بعده ـ « عن الفصاحة والبلاغة » قبل الحديث عن علمى المعانى والبيان . وحجته أن « البلاغة والفصاحة » هما غاية لعلمى المعانى والبيان « والبلاغة والفصاحة » لهما تقدم بحسب الذهن ، فهما الضالة التى ينشدها الأديب والخطيب والكاتب ، وما عقد أئمة البيان الفصول ، ولا بوبوا الأبواب ، إلا ليقدموا للأديب قواعد ، وضوابط ، إذا روعيت فى خطابة أو كتابة أو شعر أثارت الخيال وحركت الفكر ، وحفزت على العمل وأحدثت الأثر المطلوب للعمل الفنى ، حينئذ نستطيع أن نصف العمل الفنى بالفصاحة والبلاغة .

لذا رأى الخطيب القزوينى ومن تابعه : أن تفصيل القول فى البلاغة والفصاحة يمهد السبيل وينير الطريق ويقوى البصيرة عند الكلام فى علمى المعانى والبيان .

---

(١) انظر مفتاح العلوم للسكاكى ص ١٩٦ وانظر أيضا بغية الإيضاح ج ١ ص ٢٢ .

أما السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ فإنما أخر الكلام فى الفصاحة والبلاغة بعد أن استوفى الكلام فى علمى المعانى والبيان نظرا إلى تأخر الغاية فى الوجود ، وأن الشروع فى علمى المعانى والبيان ، لا يتوقف على معرفة البلاغة والفصاحة معرفة مفصلة ، واكتفى بالإجمال المفاد من كلامه فى مقدمة كتابه « مفتاح العلوم » .

وبعد ... فقامات الكلام مختلفة ومتباينة ، والأديب الناجح هو الذى يورد كلامه مطابقاً للمقام الذى يتكلم فيه وفى الباب الذى سيأتيك نبأه بعد حين دراسة وافية للمقامات وطرق تعبيرات البلغاء عنها . نرجو أن تثمر الثمرة المرجوه وأن ينفع الله بها .

الباب الأول

علم المعانى

ويشتمل على مقدمة وثمانية فصول .

المقدمة وتبحث فى : تعريف علم المعانى - حصر أبواب علم المعانى — الخبر والإنشاء

الفصل الأول ويبحث فى : أحوال الإسناد الخبرى

الفصل الثانى ويبحث فى : أحوال المسند إليه .

الفصل الثالث ويبحث فى : أحوال المسند

الفصل الرابع ويبحث فى أحوال متعلقات الفعل .

الفصل الخامس ويبحث فى : القصر

الفصل السادس ويبحث فى : الإنشاء

الفصل السابع ويبحث فى : الفصل والوصل .

الفصل الثامن ويبحث فى : الإيجاز والإطناب والمساواة .

مقدمة :

علم المعانى

تعريفه : وهو علم يعرف به أحوال اللفظ العربى التى بهـــا يطابق مقتضى الحال ،

ذكرنا فيما سبق أن الأديب يتصرف فى بناء العبارة أو الجملة ، فتراه يقدم ويؤخر ، ويحذف ويذكر ، ويوجز ويطنب ، وقد يصل بين الجمل وقد يفصل بينها وقد يعرض المعنى فى أكثر من جملة ، وقد يعرض الجملة فى صورة خبرية ، ويعرض الأخرى فى شكل أمر أو استفهام أو تمـــنى أو نحوها .

وقد يعرف المسند إليه والمسند ، وقد ينكرهما إلى غير ذلك من ألوان التصرف البلاغى مما يندرج تحت « علم المعانى » كما سنعرضه عليك مفصلا فى الصفحات التالية

ولكن يجب أن نشير بادىء ذى بدء بأن هذه التصرفات التى تحدث فى النظم أو فى التراكيب لها دلالتها البلاغية . وأهدافها السامية « وعلم المعانى » الذى نحن بصدد بيانه والذى قلنا عنه: إنه يبحث فى أحوال اللفظ أى فى التراكيب العربية ويبحث أيضا فى الاعتبار المناسب. هذا العلم له فائدة كبرى إذ الامة فى حضارتها ورقيها تعنى أول ما تعنى بكلامها وسلامته من السوقى والعامى والدخيل المنحط ، كما تعتد رفعة ذوقه تعبيراته ، وسمو معانيه ، فلا يمكن أن تستوى الحال فى أمة تصعد إلى المجد — فترتقى بأسباب الحياة اليومية ، وتتكلم بلغة ركيكة خالية من الخيال الرقيق والجمال الفنى الأصيل .

فهذا الفن « علم المعانى » يتتبع التراكيب ويدرسها ويعمل على رقيها ونظافتها ويجعلها تواكب حضارة الأمة ورقيها جانحا إلى صدق الشعور وعمقه والاسهام فى بناء الفرد والمجتمع

حصر أبواب علم المعانى

وعلم المعانى ينحصر فى ثمانية أبواب

أولها : أحوال الاسناد الخبرى ، ثانيهما : أحوال المسند إليه ، وثالثها : أحوال المسند ، ورابعها : أحوال متعلقات الفعل ، وخامسها : القصر ، وسادسها : الانشاء ، وسابعها الفصل ، والوصـــل . وثامنها : الايجاز والاطناب والمساواة .

والبلاغيون يوضحون وجه الحصر فيقولون : « ووجـــه الحصر أن الكلام إما خبر أو إنشاء . لأن الكلام إما أن تكون لنسبته خارج تطابقه ، أولا يكون لها خارج[1] ، الأول الخبر ، والثانى الإنشاء .

ثم الخبر لا بدله من إسناد ومسند إليه ومسند ، وأحوال هذه الثلاثة هى الأبواب الثلاثة الأولى ، ثم المسند قد يكون له متعلقات إذا كان فعلا أو متصلا به أو فى معناه كاسم الفاعل ونحوه ، وهذا هو الباب الرابع ، ثم الإسناد والتعلق كل واحد منهـا إما بقصر أو غير قصر ، وهذا هو الباب الخامس والإنشاء وهو الباب السادس ، ثم الجملة إذا قرنت بأخرى فتكون الثانية إما معطوفة على الأولى أو غير معطوفة .

وهذا هو الباب السابع ، ولفظ الكلام البليغ اما زائد على أصل المراد لفائدة أو غير زائد عليه وهذا هو الباب الثامن[2] » :

هـ . الأبواب الثمانية هى التى درج البلاغيون على البحث فيها والتركيز حولها ولكن أحب أن أذكرك بأن الشيخ عبد القاهر قد أشار بأن الفروق التى تحدث فى النظم لا نهاية لها ،

---

(١) سنوضح هذا بالتفصيل فى الصفحات التالية

(٢) انظر بغية الايضاح ص٢٩ ح ١ .

الخبر والإنشاء

يحتاج الأديب لنقل أو إظهار ما فى نفسه من المعانى إلى الجملة الأدبية :

هذه الجملة لها ركنان : محكوم عليه أو مخبر عنه ، ويسمى « مسنداً إليه » وذلك كالفاعل ونائبه ، والمبتدأ الذى له خبر ، واسم (إن) واسم « كان وأخواتهما . والمفعول الأول من باب « ظن) وأخواتها ،

والركن الثانى : محكوم به أو مخبر به ويسمى « مسندا » وذلك كالفعل ، وخبر المبتدأ ، وخبر « كان » وأخواتها ، وخبر « إن » وأخواتها ، والمبتدأ المكتفى بمرفوعه . واسم الفعل وما زاد على ذلك فهو قيد فى الجملة ، كأدوات الشرط ، والنفى والنواسخ ، والمفعولات ، والحال والتمييز ، والتوابع ، وضمير الفصل ؛ فإذا قلنا : « سافر محمد اليوم إلى الأسكندرية طلبا للراحة كان « سافر » هو المسند و « محمد » هو المسند إليه وما بعد ذلك فهو قيد فى الجملة ، وليس ركنا أساسيا ،

هذه الجملة ، إن تضمنت أمراً له واقع يطابقه أو لا يطابقه فهى الجملة الخبرية ، وإن تضمنت أمراً لا واقع له يطابقه أو يخالفه فهى الجملة الإنشائية :

يقول سعد بن ناشب .

سَأَغْسِلُ عَنِّى العَــارَ بالسيفِ جَالِبًا
عَلَىَّ قَضَــاءُ اللهِ مَا كَانَ جَالِبًا
وأُذْهِلُ عَنْ دارِى وَأَجْعَــلُ هَدْمَهَا
لِعِرْضِى مِنْ بَاقِى المَذَمَّــةِ حَاجِبًا
وَيَصْغُرُ فِى عَينِى تِلَادِى إِذَا انْثَنَتْ
يَمِينِى بِإِدْرَاكِ الذى كُنْتُ طَالِبًا

فابن ناشب الشاعر الأموى يريد أن يخبرنا بأنه سيزيل العار عن نفسه باستعمال القوة ضد الأعداء ، وسوف يتناسى داره ، ويجعل هدمها حاجبا وواقيا لعرضه من العار إذا راها دار هوان . وذلة ، كما يقل فى عينيه إنفاق المال القديم عند إدراك المطلوب .

وهذا الذى يعرضه علينا ابن ناشب فى حديثه قد تضمن أحكاما لها فى حياتنا واقع ، وهذه الأحكام تكون صادقة ، إذا كان الواقع يوافقها ويؤيدها ، وتكون كاذبة إذاكان الواقع يخالفها ويجافيها .

ومثل هذا الأسلوب الذى يصح أن يوصف بالصدق أو الكذب لأنه يحتمل الأمرين ، يسمى : « الخبر » .

على أنه فى بعض الأحيان قد يوصف الخبر بالصدق فحسب، أو يوصف بالكذب ليس إلا ، ولكن ذلك لا لذاته من حيث هو كلام خبرى ، وإنما باعتبار أسباب أخرى خارجـــة عن نطاق العبارة « تؤيد صدقه أو كذبه .

فأخبار القرآن الكريم لاتحتمل إلا الصدق باعتبارها كلام الله المجيد وإن كانت تحتمل الصدق والكذب من حيث هى أخبار ، بصرف النظر عن قائلها .

ويقول ابن ناشب أيضاً :

فَيَا لَرَزَامٍ رَشِّحُوا بِي مُقَدِّمًا إِلَى المَوْتِ خَوَّاضًا إِلَيهِ الكَتَائِبَا

فيالرزام : فيآل . رزام أبو حى من تميم ، ورشحوابى : هيئوا وأعدوا بإعدادى رجلا مقدما إلى الموت ، والمراد بالرجل نفسه كأنه قال : أعدونى والترشيح ، تربية الشىء وتهيئته لما يراد به ، والكتائب الجيوش المجتمعة واحدتها الكتيبة .

فهو يخاطبنا بأسلوب النداء والأمر قائلا : يابنى رزام أعدونى لأعدائكم ، اقتحم جيوشهم ، وأبدد جموعهم ، وأحرز لكم النصر عليها ، وهذا النداء الذى تضمن طلبا لا يصح أن يوصف أسلوبه بالصدق أو الكذب ، لأنه لا واقع له يطابقه أو يخالفه .

ومثل النداء والأمر فى تضمنهما الطلب : النهى والاستفهام والتمنى فكل هذه الأساليب تستدعى أمورا لا وجود لها وقت الطلب .

ومن ثمّ كان الطلب بصوره المعروفة لا يحتمل صدقا ولا كذبا ، والأسلوب الذى لا يصح أن يوصف بالصدق أو الكذب يسمى : « الانشاء » .

ومن هنا نوع البلاغيون الكلام نوعين : الأول : الخبر ، والثانى : الإنشاء .

وقالوا : إن الخبر يفيد حصول شىء أو عدم حصوله ، ويصح أن يقال لقائله : إنه صادق فيه أو كاذب ، فإن كان الكلام مطابقا للواقع ، كان قائله صادقا ، وإن كان غير مطابق له كان قائله كاذبا .

أما الإنشاء : فلا يفيد حصول شىء أو عدم حصوله ، بل يفيد إيجاد شىء ابتداء ، فليس لمفهومه واقع يوافقه أولا يوافقه ، ولا يصح أن يقال لقائله : إنه صادق فيه أو كاذب .

الفصل الأول

أحوال الاسناد الخبرى

تعريف الإسناد .

الاسناد: ضم كلمة، أوما يجرى مجراها — إلى كلمة ،أو ما يجرى مجراها — ليفيد هذا الضم الحكم بثبوت مفهوم إحداهما لمفهوم الأخرى أو نفيه عنه .

فإذا قلنا : « الحق واضح » ، والشمس ليست بغائبة » نجد أننا ضممنا كلمة « واضح » إلى « الحق » على وجه يفيد أن الوضوح ثابت لمفهوم «الحق» وفى المثال الثانى ضممنا ، «غائبة » إلى « الشمس » على وجه يفيد أن الغياب منفى عن « الشمس » .

ويسمى المحكوم به « واضح » و « بغائبة » مسندا .

والمحكوم عليه فيهما « الحق » و «الشمس » مسندا إليه وتسمى النسبة بينهما « إسنادا خبريا » .

والمراد بقوله : « أو ما يجرى مجراها » الجملة الواقعة موقع المفرد، بأن كانت مبتدأ أو خبرا أو فاعلا أو نائب فاعل .

ومن ثمّ قال البلاغيون : إن صوره فى الاسناد الخبرى أربع :

الصورة الأولى : أن يكون الطرفان مفردين حقيقة نحو : محمد عالم ، وهدانا الله ، والفراغ مفسدة والحق فوق القوة ، فكل جملة من الجمل الأربع منها الطرفان مفردان حقيقة .

الصورة الثانية : أن يكون الطرفان جملتين جاريتين مجرى المفرد كقولنا: لا إله إلا الله يدخل قائلها الجنة .

الصورة الثالثة أن يكون المسند جملة جارية مجرى المفرد مثل زيد قام أبوه ، وأفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله . أى : كلمة التوحيد .

الصورة الرابعة : أن يكون المسند إليه جملة جارية مجرى المفرد ـــ « تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » أى : سماعك بالمعيدى خير من أن تراه .

هـذا والحديث عن الإسناد الخبرى يغنى عن الاسناد الانشائى لأن الذى يحتاج إليه فى الإسناد الإنشائى يعلم من أصله وهو الاسناد الخبرى .

وتقديم الحديث عن الاسناد على طرفيه « المسند إليه والمسند أجدر بالتقديم : لأن الاسناد محل الفائدة ولأن مدار الصدق والكذب عليه ، ولأن طرفيه « المسند والمسند إليه » متفرعان عنه .

والبلاغيون يدرسون فى أحوال الاسناد الخبرى ثلاث مسائل : الأولى : أغراض الخبر ، والثانية : تأكيد الخبر وعدمه أو أضرب الخبر ، والثالثة : كون الاسناد الخبرى حقيقة أو مجازا مع بيان فائدة المجاز فى الاسناد .

أغراض الخبر أو قصد المخبر بخبره :

المخبر أو المتكلم أو الأديب : هو الإنسان الجاد الذى يدلى بخبره قاصدا إعلامك بمضمون عبارته أو إخبارك بما بمحتواها وليس ذلك الإنسان الذى يلقى بالكلام دون قصد منه أو يتلفظ بالجملة الخبرية فحسب . أو دون غرض مقصود ، والبلاغيون يقولون : إن قصد المخبر بخبره : إما إفادة المخاطب أو السامع نفس الحكم : كقولنا : زيد ناجح لمن لا يعلم أنه ناجح ، ويسمى هذا فائدة الخبر . وهى المقصد الأول من الأسلوب الخبرى .

وإما إفادة المخاطب أن المتكلم عالم بالحكم ، وذلك اذا كان المخاطب يعلم مضمون الكلام ، ولكنه غير عالم بأن المتكلم يعلمه أيضا مثل قولك لمن ظهرت نتيجة نجاحه وقد علم بها : « انت نجحت » فأنت لا تفيده حكما يجهله ، ولكنك تفيده أنك عالم بالحكم .

ويسمى هذا الغرض « لازم الفائدة » .

وإفادة السامع « لازم الفائدة » هى المقصد الثانى من الخبر .

وكثيرا ما يخرج الخبر عن هذين المقصدين ليحقق أغراضا تفسر لنا نفسية الأديب أو المتكلم ، وتثير السامع وتدعوه الى المشاركة الواجدانية ولا نستطيع أن نحدد هذه الأغراض ، لأن الأديب إنسان حساس مرهف الشعور يتأثر بما يجول فى نفسه وما يقع حوله من أحداث ، فالمقام والاعتبار المناسب وأحداث المجتمع التى تهز النفوس تسيطر على الأديب وتثير كوامن نفسه فينطق بالكلام البليغ ويحدث فى النظم تصرفات تعبر عما فى نفسه وتترجم عن شعوره .

واذا قرانا هذا النتاج ووقفنا أمام هذه التصرفات استطعنا أن نفهم الأديب ومجتمعه والظروف التى أحاطت بها . واليك بعض الأغراض البلاغية التى خرج اليها الأسلوب الخبرى .

والتى تفهم من السياق وقرائن الأحوال ، والمرجع فى معرفة هذه الأغراض الذوق الأدبى السليم والطبع العربى الأصيل .

تقول الآية الكريمة حكاية عن امرأة عمران : (قالت ربِّ إنى وضعتُها أنثى واللهُ أعلم بما وضعَت)(١) إنما قالت هذه المقالة لأنه لم يكن يقبل فى النذر

---

(١) سورة آل عمران آية ٣٦ .

إلا الذكر دون الأنثى ، فهى لم ترد بالخبر فائدته ولا لازم الفائدة لأن الله تعالى أعلم بذلك ، وإنما أرادت أن تظهر تحسرها وتحزنها لما فاتها من ذلك الذى كانت ترجوه وتقدره ، فقد كانت ترجو أن تلد ذكرا تهبه لخدمة بيت المقدس .

(والله أعلم بما وضعت) قرىء بضم التاء فيكون من جملة كلامها ويكون متصلا بما قبله . وفيه معنى التسليم لله والخضوع والتنزيه له أن يخفى عليه شىء ، وقرأ الجمهور «وضعت» بسكون التاء فيكون من كلام الله سبحانه على جهة التعظيم لما وضعته والتفخيم لشأنه والتجليل لها حيث وقع منها التحسر والتحزن ، مع أن هذه الأنثى التى وضعتها سيجعلها الله وابنها آية للعالمين وعبرة للمعتبرين ، ويختصها بما لم يختص به أحدا . وقرأ ابن عباس (بما وضعت) بكسر التاء على أنه خطاب من الله سبحانه وتعالى لها : أى أنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب ، وما علم الله فيه من الأمور التى تتقاصر عنها الأفهام وتتضافر عندها العقول(١) .

أرأيت الآن ما فى النص من إيحاءات وما فى التراكيب من ظلال اختص الله بها لغة قرآنه المجيد .

ومن كلام البشر قول الشاعر يرثى أخاه(٢) :

أخٌ وأبٌ بَرٌّ وأمٌّ شفيقةٌ
تَفَرَّقَ فى الأبرارِ مَا هُوَ جَامِعُهْ

---

(١) انظر فتح القدير للشوكانى المجلد الأول : ص ٣٣٤ — ٣٣٥ : دار المعرفة .

(٢) ديوان الحماسة لأبى تمام تعليق خفاجى ج ١ ص ٦٥٣ : طبع صبيح .

سَمَوتُ بِهِ عَنْ كُلِّ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ
وأَذْهَلَنِي عَنْ كُلِّ مَنْ هُوَ تَابِعُه

فالشاعر يتحسر على فراق أخيه الذى كان جامعا للأخلاق الكريمة التى قل أن تجتمع فى رجل واحد ، فإنه كان أخاً فى الولادة والمؤازرة ، وأباً فى البر ، وأمّاً فى العطف والرأفة ، وكانت حياته خيراً كلها فلا يعلم رجلا غيره ممن سلف حاز محاسن الأخلاق ، كما حيره فقده فلا يعلم رجلا بعده يكون على مثاله .

وقال شوقى يرثى عمر المختار شهيد المسلمين والعرب .

خيّرتَ فاخترتَ المبيتَ على الطَّوى
لَمْ تَبْنِ جاهاً أوْ تَلُمَّ ثَرَاءَ

فشوقى يتحسر على فقد هذا البطل المغوار الذى ظل يقاتل الطليان فى سبيل الذود عن وطنه وقومه بليبيا ، حتى قبضوا عليه وأعدموه شنقا سنة ١٩٣١ م[١] .

وتقول الآية الكريمة حكاية عن زكريا عليه السلام : (رب إنى وَهَنَ العظمُ منى واشتعل الرأسُ شيباً)[٢] فزكريا لم يرد بكلامه فائدة الخبر .

ولا لازم الفائدة ، وإنما أراد إظهار ضعفه والخضوع والتخشع أمام ربه .

قال العلماء : يستحب للمرء أن يجمع فى دعائه بين الخضوع ، وذكر

---

(١) الشوقيات شعر أحمد شوقى ج ١ ص ١٧ : دار الكتاب العربى بيروت :

(٢) سورة مريم آية ٤١ .

فمم الله عليه كما فعل ذكر ياه ، فإن فى قوله (وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا) غاية الخضوع والتذلل وإظهار الضعف والقصور عن نيل مطالبه ، وبلوغ مآربه ، وفى قوله (ولم أكن بدعائك رب شقيا) ذكر ما عوده الله من الإنعام عليه بإجابة أدعيته ، يقال : شقى بكذا : أى تعب فيه ولم يحصل مقصوده منه(١) .

وقال عوف بن محلم :

إِنَّ الثَّمَانِينَ — وَبُلِّغْتَهَا
قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانْ

فالشاعر لم يرد أن يفيد السامع فائدة الخبر ولا لازم الفائدة وإنما يريد إظهار ضعفه .

ويقول جرير يهجو الأخطل التغلبي :

إِنَّ الَّذِي حَرَمَ الْمَكَارِمَ تَغْلِبَا   جَعَلَ النُّبُوَّةَ وَالْخِلَافَةَ فِينَا
مُضَرٌ أَبِي وَأَبُو الْمُلُوكِ فَهَلْ لَكُمْ
يَا خُزْرَ تَغْلِبَ مِنْ أَبٍ كَأَبِينَا

فجرير لا يريد أن يخبر الأخطل بأمجاد قبيلته — فالأخطل يعلم ذلك — وإنما القصد من هذا الشعر الفخر .

تقول لمن يؤذى أباه : « إنما هو أبوك » تريد أن توبخه على عدم امتثاله لما أمره الله به من حق رعاية الوالدين والإحسان إليهما وكما تقول للعاثر : « الشمس طالعة » تقصد من خبرك توبيخه وتأنيبه وتنبيهه ليرجع

(١) فتح القدير المجلد الثالث ص ٣٢١ .

إلى الصواب ، وتقول الآية الكريمة : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا[1] » .

المراد بالحق : الإسلام. وقيل: القرآن ، والمراد بالباطل الشرك ولكن هذه الآية فى الغالب نتلوها عند الفرح والسرور بمقدم والشماتة بمدبر .

ونقول : « جاء الصديق الأمين » تعبيرا عن فرحنا وسرورنا بمقدمه ، ويقولون : غادرنا العدو اللدود الخائن : شماتة برحيله عنـــا وراحة لنفوسنا بفراقه .

وتقول الآية الكريمة : (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما[2]) .

الآية تذكر التفاوت بين درجات من تعد عن الجهاد من غير عذر ، ودرجات من جاهد فى سبيل الله بماله ونفسه وإن كان معلوما ، لكن أراد الله سبحانه بهذا الإخبار تنشيط المجاهدين ليرغبوا ، وتبكيت القاعدين ليأنفوا .

ويقول زهير :

وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بِفَضْلِهِ عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عنه وَيُذْمَمِ

لا يريد زهير الإخبار بمضمون هذا البيت فهذا أمر معلوم ولكنه يريد النصح والإرشاد والاستجابة والمشاركة والاقتداء .

---

(١) سورة الإسراء آية : ٨١

(٢) سورة النساء آية ٩٥

ويقول النابغة الذبيانى يمدح النعمان بن المنذر :

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعتْ لم يبدُ منهن كوكب

لايريد أن يخبر النعمان بذلك ولكنه يريد المدح .

ويقول الرسول ﷺ : « عدل ساعة فى حكومة خير من عبادة ستين سنة » يريد بذلك الترغيب فى العدل فهو أساس المجتمع وبه قوام الدين وصلاح حال العباد .

هذا !! والأغراض التى يخرج إليها الأسلوب الخبرى متعددة ومتنوعة وعلى المتلقى أن يتأمل كلام الأديب وسيقف بإذن الله — على خير كثير .

وقال البلاغيون : إن الغرض الأول وهو « فائدة الخبر » يتحقق من ذات الخبر وماعداه من الأغراض يدل عليها الخبر دلالة تبعية ؛ فهى من مستتبعات الكلام ولاتوصف بأنها حقيقة ولا مجاز ولا كناية .

وقيل : إن « فائدة الخبر ، ولازم الفائدة » حقيقة ، وماعداهما كناية ؛ بأن استعمل اللفظ فى معناه الحقيقى لينتقل منه إلى لازمة وهو إظهار الضعف أو التحسر أوالفخر إلى غير ذلك .

وقيل : إن هذه الأغراض التى خرجت عن الأصل من قبيل المجاز المرسل ، حيث أن الكلام قد استعمل فى معنى الفخر أو التحسر أو المدح مثلا مجازا مرسلا من استعمال المركب فى غـــير ما وضع له لعلاقة اللزوم .

فى قوله تعالى حكاية عن أمرأة عمران : (رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت) أريد بالخبر التحسر والتحزن ؛ لأنها كانت ترجو أن يكون المولود ذكرا تهبه لخدمة بيت المقدس فلما جاء أنثى خاب رجاؤها فتحسرت

بهذا القول . وهذا مجاز مرسل علاقته اللزوم ، إذ يلزم من الأخبار بوقوع ضد ما كانت ترجو — إظهار تحسرها على فوات ما كانت تأمله وترجوه .

أضرب الخبر :

سبق أن ذكرنا أن التصرفات التي تحدث في النظم تعبر عما في نفس الأديب أدق تعبير وأتمه ، وكذلك تعبر أيضا عن نفسية وأحوال المخاطبين وتكشف عن اهتمامات المجتمع الذي يعيش فيه كل من الأديب والمتلقى .

والبلاغيون حريصون على وضع المعالم الدقيقة التي تضبط هذه التصرفات أو طرق التعبير حتى يتلاقى المتلقى مع الأديب ، وتتم المشاركة الوجدانية التي تريدها ويحدث التأثير الأدبي السامي الذي تحدث به المحاكاة القويمة ، فتتحقق الثمرة المرجوة من الأدب الصادق ، وفي ظله ينهض الفرد ويسعد المجتمع .

والبلاغيون قالوا : إذا كان غرض المخبر بخبره إفادة المتلقى فائدة الخبر أو لازم الفائدة ، فينبغي أن يقتصر من التركيب على قدر الحاجة .

فالمخبر يجب عليه أن يتأمل حال مخاطبه ، ويقف على أسرار نفسه قبل أن يلقى إليه الخبر .

فإن كان المخاطب خالى الذهن من الحكم بأحد طرفى الخبر على الآخر والتردد فيه استغنى عن مؤكدات الحكم .

كقولنا لخالى الذهن : « الحق فوق القوة ، وأقبل النور » فيتمكن فى ذهنه لمصادفته إياه خاليا .

وقوله تعالى : (ذلك فضل الله يؤتيـــه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)[١] .

ويسمى هذا الضرب ابتدائيا لأنه أول مراتب الكلام ، وهو الضرب الأول .

وإن كان المخاطب متصورا لطرفى الحكم مترددا فى إسناد أحدهما إلى الآخر طالبا له حسن تقويته بمؤكد ، كقولنا : إن الحق واضح أو لزيد عالم . ويسمى هذا الضرب طلبيا لسبقه بالطلب .

وإن كان حاكما بخلافه وجب توكيده بحسب الإنكار ، فنقول : إن عمراً ناجح لمن ينكر نجاحه ولا يبالغ فى إنكاره ، وإن عمراً لناجح لمن يبالغ فى إنكاره .

تأمل قوله تعالى : « واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذا أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون قالوا : ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم إلا تكذبون ، قالوا : ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون)[٢] .

المرسلون : هم أصحاب عيسى عليه السلام ، بعثهم إلى أهل أنطاكية للدعاء إلى الله ، (فقالوا إنا إليكم مرسلون) أى قال الثلاثة جميعا ، وجاءوا بكلامهم هذا مؤكدا لسبق التكذيب للإثنين والتكذيب للإثنين تكذيب للثالث ، لأنهم أرسلوا جميعا بشىء واحد ، وهو الدعاء إلى الله عز وجل ، ونلاحظ أن الجملة قد أكدت بمؤكدين اثنين (إنّ واسمية الجملة) .

---

(١) سورة الجمعة آية : ٤

(٢) سورة يس الآيات من ١٣ إلى ١٦

ثم تحكى الآيات جواب أهل انطاكية للرسل فتقول : « قالوا ماأنتم إلا بشر مثلنا » أى مشاركون لنا فى البشرية ، فليس لكم مزية علينا تختصون بها . ثم صرحوا بجحود إنزال الكتب السماوية فقالوا (وماأنزل الرحمن من شىء) مما تدعونه أنتم ويدعيه غيركم ممن قبلكم من الرسل وأتباعهم (إن أنتم إلا تكذبون) أى ماأنتم إلا تكذبون فى دعوى ماتدعون من ذلك ، فأجابهم الرسل باثبات رسالتهم بكلام مؤكد تأكيدا بليغا لتكرر الإنكار من أهل أنطاكية ، وهو قولهم : (ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون) فأكدوا الجواب بالقسم الذى يفهم من قولهم : « ربنا يعلم » وبإن . وباللام واسمية الجملة .

ويسمى هذا الضرب إنكاريا لسبقه بالإنكار وهو الضرب الثالث

ويسمى إخراج الكلام على هذه الوجوه الثلاثة :

وهو الخلو من التأكيد لخالى الذهن ، والتأكيد بمؤكد واحد استحسانا للمتردد ، والتأكيد بمؤكد أو أكثر وجوبا للمنكر بحسب درجات الإنكار إخراجا للكلام على مقتضى الظاهر .

وكثيرا مايخرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر لدواع تستدعى ذلك ، ويسمى ذلك .

إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر :

ولكن الأديب يريد أن يحقق أغراضا بلاغية تعبر عن نفسه وعن المخاطبين فتراه يتصرف فى النظم ويحدث به أحوالا تكون على خلاف ماسطرنا لك ، ولا نستطيع أن نحكم بخطئها لصدورها ممن يوثق بعربيتهم ولأنها معظم الكلام البديع فى القرآن والسنة ، والآداب العالية .

وتكون هذه الأحوال بتنزيل العالم منزلة غيره ، أو بتنزيل كل من

الخالى والمتردد والمنكر منزلة صاحبه وتفصيل ذلك أنه :

١ — قد ينزل العالم بفائدة الخبر ولازم فائدته منزلة الجاهل أى خالى الذهن لعدم جريه على مقتضى علمه الذى هو العمل ، فيلقى إليه الخبر كما يلقى إلى الجاهل بأحدهما :

نقول لتارك الصلاة العالم بوجوبها « الصلاة واجبة » فالمخاطب عالم بمضمون الخبر أى بوجوب الصلاة .

والمتكلم لايريد أن يخبره به ، ولكنه يريد أن يلفت انتباهه ليؤدى هذا الركن العظيم فنزل منزلة الجاهل لعدم عمله بمقتضى علمه :

وهذا أسلوب ناجح فى الدعوة إلى الله ، لأننا لو قلنا لتارك الصلاة : أنت لاتصلى ، فربما أخذته العزة بالاسم وولى مستكبرا كأن فى أذنيه وقرا أما إذا أنزلناه منزلة الجاهل وألقينا إليه الخبر « الصلاة واجبة » حينما يسمع هذه العبارة — وهى لاتخدش كبرياءه سوف يفكر فيما هو عليه من عدم آداء الصلوات وعند ذلك سيحاسب نفسه ويؤنبها على ماجنته

وكان هشام بن عبد الملك يحج فجاء على زين العابدين يطوف بالبيت العتيق ، فالتف الناس حوله ، فانكره هشام وسأل : من هذا ؟ فرد عليه الشاعر :

هذا الذى تعرفُ البطحاءُ وطأتَه
والبيتُ يعرفُهُ والحلُّ والحرَمُ

هذا ابنُ خـــير عبادَ الله كلهم
هذا التقى النقى الطاهر العلم

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله
بجده أنبياءُ الله قد ختموا

فهشام يعلم مَنْ هذا الرجل؟ ، ولكنه لما لم يؤد له واجب التجلة والاحترام نزله الشاعر منزلة الجاهل به :

أورد الخطيب عقب هذا قول السكاكى : « وإن شئت فعليك بكلام رب العزة (ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون)(١) كيف تجد صدره يصف أهل الكتاب بالعلم على سبيل التوكيد القسمى ، وآخره ينفيه عنهم حيث لم يعملوا بعلمهم .

ونظيره فى النفى والإثبات (ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى(٢)

وقوله تعالى : (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون)(٣) .

ويعلق الخطيب بقوله : (هذا لفظه ، وفيه إيهام أن الآية الأولى من أمثلة تنزيل العالم بفائدة الخبر ولازم فائدته منزلة الجاهل به لعدم جريه على موجب العلم والفرق بينهما ظاهر(٤) .

وأجيب عن السكاكى بأن غرضه التنظير لتنزيل العالم بفائدة الخبر ، ولازمها منزلة الجاهل لعدم جريه على مقتضى العلم ، نظّر لذلك بتنزيل العلم مطلقا أعم من أن يكون بفائدة الخبر أوغيرها منزلة الجهل لمثل ماسبق .

---

(١) سورة البقرة آية ١٠٢ .

(٢) سورة الأنفال آية : ١٧

(٣) سورة التوبة آية ١٢

(٤) بغية الإيضاح حـ ١ ص ٣٦ .

ففى الآية الأولى وصف أهل الكتاب بالعلم على سبيل التوكيد وفى آخرها نجده قد نفى العلم عنهم حيث لم يعملوا بعلمهم ووجه النفى أن « لو » حرف امتناع لامتناع أى: لو كانوا يعلمون قبح ما شروا أنفسهم وباعوها به من السحر ما شروه فقد أثبت لهم .

أولا : العلم بقبح هذا الشراء ، ونفى عنهم فى آخر الآية هذا العلم بتنزيله منزلة الجهل لعدم الجرى على مقتضاه .

وفى الآية الثانية : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » نجده ترقى فى هذا التنظير فأشار إلى زيادة التعميم بأن وجود الشىء سواء كان هو العلم أو غيره ينزل منزلة العدم .

وبيانه أن فى هذه الآية إثبات الرمى ونفيه تنزيلا للرمى منزلة عدمه ، لأن الأثر الذى ترتب عليه ليس من الرمى فى نفسه ، وليس فى طاقة البشر بل هو من صنع الله وحده ، لذلك قال الله تعالى عقيبه : (ولكن الله رمى) لأن المولى سبحانه هو الذى حقق المقصود من الرمى بقدرته وليس ذلك فى مقدور البشر .

وفى الآية الثالثة : أثبت لأئمة الكفر فى الآية أيمان ثم نفيت عنهم تنزيلا لها منزلة العدم ، لأن شأن اليمين وحقها أن يبر بها صاحبها ، فمن لم يبر بيمينه هو ومن لم يحلفها سواء ، فهنا نزلت الأيمان منزلة عدمها لفقدان آثارها فما فى الآية نظير لتنزيل العالم بفائدة الخبر ولازمها منزلة الجاهل(١) .

---

(١) انظر المفتاح ص٧٤ والمطول ص٤٦ ومحاضرات فى البلاغة لأستاذنا د محمود فرج العقدة ص ١٢ ، ١٣ .

وقد ينزل العالم بفائدة الخبر ولازم الفائدة منزلة السائل أو المتردد ، فيؤكد له الكلام بمؤكد واحد استحسانا ، كقولنا للعالم غير المواظب على الصلاة : « إن الصلاة واجبة » .

وقد ينزل منزلة المنكر لإصراره على عدم العمل بمقتضى علمه كقولنا للعالم المصر على ترك الصلاة : « إن الصلاة واجبة » ، ولا يخفى علينا نجاح هذا الأسلوب فى الدعوة إلى الله حيث يجد المخاطب فرصة للتأمل فى حالة والرجوع إلى الحق .

وفى قوله تعالى : (ثم إنكم بعد ذلك لميتون)(١) شاهد على ذلك فقد نزلت الآية عليهم بالموت، وأنه حق على كل نفس منزلة جهلهم به حيث أنهم تمادوا فى الغفله والإعراض عن العمل لما بعد الموت حتى كأنهم يعتقدون أنهم خالدون لا يقترب منهم الموت .

ولذلك أكد إثبات الموت بثلاثة مؤكدات (إن ، واللام ، واسمية الجملة) .

٢ — وقد ينزل غير السائل منزلة السائل إذا قدم إليه ما يلوح له بحكم الخبر ، فيستشرف له استشراف المتردد الطالب كقوله تعالى :(ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون)(٢) أى لا تخاطبنى فى تعجيل عقابهم ولا تطلب منا إمهالهم ، فإنه محكوم منا عليهم بالغرق وقد مضى به القضاء فلا سبيل إلى دفعه أو تأخيره .

فكأن نوحا عليه السلام لما سمع « ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا »

---

(١) سورة المؤمنون آية : ١٥ .
(٢) سورة هود آية : ٣٧ .

أيقن أن عذابا سيقع على قومه ، ولكن لا يعرف ما نوعه ؟ فكان مستشرفا له فجاءت الجملة بعد ذلك مؤكدة استحسانا لتحسم الأمر عند نوح عليه السلام . ويصل الحكم الذى قضى الله به إلى نفس نوح بعد تهيئة وتمهيد .

وتقول الآية الكريمة : (وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء)(١) أى : وما أبرىء نفسى من سوء الظن لأن هذا الجنس من الأنفس البشرية شأنه الأمر بالسوء لميله إلى الشهوات لكن رحمة ربى هى التى تكفها من أن تكون أمارة بالسوء . فسياع المخاطب غير السائل لعدم براءة النفس يجعله فى موقف المنتظر أو السائل أو المتردد فيأتى الخبر مؤكدا وفى هذا مشاركة وإثارة .

ومن أمثلة ذلك قول الشاعر :

فغنها وهى لك الفداء   إن غناء الإبل الحداء

والبيت لشاعر مجهول ، والضمير فى قوله (فغنها) للإبل أى فغن لها ، والحداء بضم الحاء وكسرها مصدر « حدا الإبل » إذا ساقها وغنى لها ، والشاهد فى أنه حين يقول : غنها ليشتد سيرها كان ذلك تلويحا له بحكم الخبر وصار المقام مقام أن يتردد المخاطب ، ويرد على ذهنه سؤال . هل غناء الإبل هو : ما نعرف باسم الحداء ؟ فينزل المخاطب منزلة السائل الطالب فقيل : « إن غناء الإبل الحداء » ليزيل هذا التردد لما فيه من التأكيد .

والبلاغيون يتابعون عبد القاهر فى إعجابه بهذا الأسلوب من الكلام ويرددون ما رواه فى كتابه « دلائل الإعجاز » من أن سلوك هذه الطريقة شعبة من البلاغة فيها دقة وغموض ، روى عن الأصمعى أنه قال : كان أبو عمرو بن العلاء وخلف الأحمر يأتيان بشارا فيسلمان عليه بغاية الإعظام.

---

(١) سورة يوسف آية : ٥٣ .

ثم يقولان : يا أبا معاذ ، ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما ويكتبان عنه متواضعين له ، حتى يأتي وقت الزوال ، ثم ينصرفان ، فأتياه يوما فقالا : ما هذه القصيدة التي أحدثتها في ابن قتيبة ؟ قال : هي التي بلغتكما . قالا : بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب .

قال : نعم ؛ إن ابن قتيبة يتباصر بالغريب ، فأحببت أن أورد عليه مالا يعرف ، قال : فأنشدناها يا أبا معاذ فأنشدهما :

بكرا صاحبيَّ قبْـل الهجير
إن ذاك النجاحَ في التبكير

حتى فرغ منها ، فقال له خلف : لو قلت يا أبا معاذ مكان — إن ذاك النجاح — بكرا فالنجاح ، كان أحسن : فقال بشار : إنما بنيتها أعرابية وحشية ، فقلت : « إن ذاك النجاح » كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت : « بكرا فالنجاح » كان هذا من كلام المولدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل في معنى القصيدة — « لأنه ليس فيه من دقة الإشارة إلى تنزيل غير السائل منزلة السائل ما في قوله : « إن ذاك النجاح » وإنما فيه تكرير الأمر بالتبكير لتأكيده على وجه ظاهر لا دقة فيه — فقام خلف فقبل بين عينيه ، فهل كان ما جرى بين خلف وبشار بمحضر من أبي عمرو بن العلاء ، وهم من فحولة هذا الفن إلا للطف المعنى لذلك وخفائه(١) .

٣ — وأحيانا نرى المتكلم قد نزل المخاطب غير المنكر منزلة المنكر إذا ظهر عليه شيء من أمارات الإنكار .

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ١٧٧، ١٧٨ تحقيق المراغي وانظر أيضا بغية الإيضاح جـ ١ ص ٤٠ :

كقول حجل بن نضلة :

جاء شقيقٌ عارضاً رُمحَهُ ... إنّ بنى عمِّكَ فيهم رِماحُ

فشقيق لاينكر أن فى بنى عمه رماحا لأنه أعلم الناس بهم ، ولكن بجيئه هكذا مدلا بشجاعته قد وضع رمحه عرضا دليل على إعجاب شديد منه ، واعتقاد أنه لا يقوم إليه من بنى عمه أحد ، كأنهم كلهم عزل ليس مع أحد منهم رمح .

فنزله الشاعر منزلة المنكر ، ولا يخفى ما فى البيت من تهكم واستهزاء يثير الهمم ويحفز على ملاقاة العدو والنيل منه .

٤ — وكذلك يُنزل المنكر منزلة المنكر إذا كان معـــه ما إن تأمله ارتدع عن الإنكار كما يقال لمنكر الإسلام : « الإسلام حق » فهذا الأسلوب فيه من الإيحاءات ، والظلال ما يعجز القلم عن تسطيره وإملائه .

اعتبارات النفى كاعتبارات الإثبات فى التأكيد وعدمه .

١ — ففى الضرب الإبتدائى تقول : « ما زيد قائم أو قائما » ، و« ليس زيد قائما » . أو « ما ينطلق زيد » .

٢ — وفى الطلبى والإنكارى تأتى بمؤكد استحسانا فى الأول ووجوبا فى الثانى ، فتقول : « ما زيد بقائم » أو « ليس زيد بقائم » ، أو « والله ليس زيد منطلقا » أو « ما كان زيد ينطلق » ؛ لأن « كان » تعطى تأكيدا .

وتقول لمن يبالغ فى الإنكار : والله ما زيد بمنطلق ، أو ما إن ينطلق زيد ، أو « ما هو بمنطلق » وما كان زيد لينطلق :

ويخرج الكلام فى النفى على مقتضى الظاهر وكذلك يخرج على خلاف مقتضى الظاهر كالإثبات ، ولا تصعب عليك الأمثلة :

مؤكدات الحكم

المراد بالتأكيد هنا تأكيد مضمون الخبر ، وهو : الحكم بانتفاء النسبة أو ثبوتها لا تأكيد المسند وحده ولا المسند إليه ، فلو قلت : زيد نفسه قائم، فليس مما نحن فيه في شيء لأنه لا يلزم من تأكيد واحد من طرفي الإسناد تأكيد النسبة .

ومؤكدات الحكم كثيرة منها :

إن : بكسر الهمزة وتشديد النون نحو :(إن الله على كل شيء قدير)(١):

لام الابتداء : نحو : « لزيد عارف » .

نونا التوكيد : نحو اشربن اللبن وابتعدن عن الخمر .

القسم : نحو : « وتالله لأكيدن أصنامكم »(٢) .

حروف التنبيه : نحو : « ألا إنهم هم المفسدون »(٣) . هأنتم قد أديتم واجبكم .

الحروف الزائدة نحو : « أليس الله بكاف عبده »(٤) :

ضمير الفصل نحو : العدل هو الأساس الصالح لرقي الدول .

تقديم الفاعل المعنوي . نحو : « زيد يقوم » ، و « أنت لا تكذب » و « أنا قمت » .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٠ .
(٢) سورة الأنبياء آية : ٥٧ .
(٣) سورة البقرة آية ١٢ .
(٤) سورة الزمر آية ٣٦ .

الحقيقة العقلية والمجاز العقلى

إذا تأملنا المباحث البلاغية التى تعرضنا لها حتى الآن ، نجدها تأخذ بيد الناقد والأديب والمتلقى وتدعوهم للنظر فى مبحث الفصاحة الذى يسلط أضواءه على مفردات النظم من حيث خفتها وعذوبتها وجزالتها ووضوحها، وسلامتها اللغوية ، وللنظر فى مبحث البلاغة وهو يبحث فى التراكيب من حيث ورودها على المشهور من آراء النحويين ، ودلالتها الواضحة على المعنى المراد ، وفصاحة مفرداتها والتئامها مع جاراتها ثم النظر فى إماطة اللثام عن تعريف علم المعانى : وهو : يختص بالبحث فى التراكيب ومطابقتها لمقتضى الحال ، ثم تقسيم الأسلوب إلى خبرى وإنشائى .

ثم بيان قصد المخبر بخبره ، والوقوف على تصرفات الأديب نحو الأساليب ليحقق أغراضا بلاغية تكسب الكلام رونقا وبهاء .

ثم بيان أحوال المخاطب وكيف نقدم له الخبر على قدر حاله ، وتصرفات الأديب حول أحوال المخاطبين ليعبر بها عن تجربته الشعرية التى استمدها من الواقع الذى يعيش فيه .

والآن ندرس تصرفات الأديب فى النظم من حيث « الإسناد » الذى هو مناط الفائدة ومعقد الآمال من النظم العربى بعامة . وهو يطلق على الإسناد الخبرى والإنشائى .

وقد درج البلاغيون على التعرض لمبحث الحقيقة العقلية أو الإسناد الحقيقى قبل التعرض للتجوز فى الإسناد أو المجاز العقلى ، ومن ثمّ نقول:

الإسناد منه حقيقة عقلية ومنه مجاز عقلى :

تعريف الحقيقة العقلية : هى إسناد الفعل أو مافى معناه إلى ماهو له عند المتكلم فى الظاهر .

شرح التعريف : المراد من « الإسناد » : النسبة الحاصلة من ضم الفعل لما هو له ، سواء كانت النسبة إنشائية أو خبرية . والمراد من الفعل : لفظ الفعل الإصطلاحى . والمراد من قوله : « أو معناه » أى إسناد لفظ دال على معنى الفعل كالمصدر ، واسم الفاعل ، واسم المفعول ، والصفة المشبهة ، واسم التفضيل ، والظرف والجار والمجرور « والظرف إنما يكون فيه معنى الفعل إذا كان مستقرا لاستقرار معنى العامل فيه ، لا . إن كان لغواً(١) » فكل هذه الأنواع تدل على الحدث غير مقترن بزمن بخلاف الفعل فإنه يدل على حدث مقترن بزمن فهى تدل على جزء من معنى الفعل وهو الحدث ، ولا تدل على معنى الفعل كله .

— إلى ماهو له — أى إلى شيء ذلك الفعل أو مافى معناه لذلك الشيء الذى بنى الفعل أو مافى معناه له .

فإذا قلنا : ضرب زيد عمراً ، فقد أسندنا الفعل « ضرب » إلى فاعله الذى بنى له وهو « زيد » الذى قام بالفعل أو بعبارة أخرى : فقد أسندنا إلى « زيد » لفظ «ضرب» الدال على المعنى الذى هو وصف الفاعل ، وهذا الإسناد يسمى حقيقة عقلية وتقول الآية الكريمة : « إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام(٢) » .

فكل من الفعل : « ينزل » و « يعلم » مسند إلى فاعله الحقيقى وهو « الله » وكل ماكان الإسناد فيه إلى فاعله الحقيقى يسمى حقيقة عقلية .

وقولنا : عند المتكلم « فى الظاهر » قيد بمعنى : « عند المتكلم فيما يفهم من ظاهر حاله » ، وهذا القيد ليدخل فى الحقيقة العقلية الأقوال التى تطابق الاعتقاد دون الواقع . والتى لم تطابق الواقع ولا الاعتقاد .

---

(١) انظر حاشية الدسوقى جـ ١ صـ ٢٢٦ ضمن شروح التلخيص

(٢) سورة لقمان آية : ٣٤

أقسام الحقيقة العقلية

تنقسم الحقيقة العقلية باعتبار حال المتكلم والواقع إلى أربعة أقسام:

١ — مايطابق فيها الإسناد الواقع والاعتقاد معا : كقول المؤمن : (أنبت الله البقل) فإن إنبات البقل فى الواقع لله تعالى ، وهو كذلك فى اعتقاد المؤمن .

٢ — مايطابق فيها الإسناد الاعتقاد دون الواقع : كقول الجاهل : « شفى الطبيب المريض » « وأنبت الربيع البقل » ، فإن الجاهل يعتقد أن شفاء المريض من الطبيب وأن إنبات البقل من الربيع ، ولكن الواقع أن الإنبات ، من الله والربيع ظرف له ، وأن شفاء المريض من الله وأن الطبيب سبب له . ومنه قوله تعالى حكاية عن الدهريين « ومايهلكنا إلا الدهر[1] » .

٣ — مايطابق فيها الإسناد الواقع دون الاعتقاد ، كقول المعتزلى لمن لايعرف حاله وهو يخفيها عنه : « خالق الأفعال كلها هو الله تعالى » .

فاسناد خالق الأفعال إلى الله إسناد حقيقى ، وهو مطابق للواقع فقط دون الاعتقاد ؛ لأن المعتزلى لايسند الأفعال الإختيارية إلى الله بل إلى العبد وكان هذا الإسنادمن الحقيقة العقلية ؛ لأن المتكلم (أى المعتزلى) لم ينصب قرينة على أن الإسناد إلى غير ماهو له فى اعتقاده ، والمخاطب لايعرف الحال الخفية للمتكلم لأنه كما قلنا يخفيها ومن ثم لايمكن حمل الإسناد على المجاز .

٤ — مالايطابق الإسناد الواقع ولا الاعتقاد : كالأقوال الكاذبة التى

---

(١) سورة الجاثية : ٢٤

يكون القائل عالما بها دون المخاطب كقولك : « نجح زيد » ، وهو لم ينجح ، فإنه من قبيل الإسناد الحقيقى ؛ لأن السامع لا يعلم أن هذا كذب ، والمتكلم الكاذب لا ينصب قرينة على أنه كاذب .

هذا هو الأصل ولا مجال لتصرفات الأديب فى الحقيقة العقلية وإنما درسناها لكى نقف على التصرفات التى يحدثها الأديب فى الاسناد وتسمى بالمجاز العقلى الذى سيأتيك نبأه بعد حين .

المجاز العقلى

أسلوب المجاز العقلى من الأساليب التى وقف أمامها العلماء منذ عصر التدوين .

فهذا سيبويه المتوفى سنة ١٨٠ هـ يقول فى قول الخنساء :

تَرْتَعُ ما رتعت حتى إذا ادَّكَرَتْ ... فإنما هِىَ إقْبَالٌ وإدْبَارُ

فجعلها الإقبال والإدبار مجاز على سعة الكلام كقولك : نهارك صائم وليلك قائم (١) .

وتعرض لأسلوب المجاز العقلى من غير تسمية — أبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١٠ فى كتابه « مجاز القرآن » ، يقول فى قوله تعالى :

(والنهار مبصراً (٢)) : مجازه مجاز ما كان العمل والفعل فيه لغيره أى يبصر فيه ، ألا ترى أن البصر إنما هو فى النهار ، والنهار لا يبصر ، كما أن النوم

---

(١) كتاب سيبويه جـ ١ ص ١٦٩ الطبعة الأولى نشر مكتبة المثنى ببغداد طبع بولاق .
(٢) سورة النمل آية : ٨٦ .

فى الليل ، ولاينام الليل ، فإذا نيم فيه قالوا : ليـــله نائم ونهاره صائم قال جرير :

لقد لمتِنا يا أمَّ غيـــلانَ فى السُّرَى
ونمتِ وما ليـــلُ المَطِيِّ بنائم (١)

ويقول : وفى القرآن : (فى عيشة راضية (٢)) وإنما يرضى بها الذى يعيش فيها (٣) .

وأما الفراء فقد وقف أمامه ، ووضحه ، ومثل له من القرآن ، والكلام العربى بدون قسمية ؛ يقول فى قوله تعالى .

(فما ربحت تجارتهم (٤)) ربما قال قائل : كيف تربح التجارة ؟ وإنما يربح الرجل التاجر : وذلك من كلام العرب : ربح بيعك ، وخسر بيعك ؛ فحسن القول بذلك ؛ لأن الربح والخسران إنما يكونان فى التجارة ؛ فعلم معناه . ومثله من كلام العرب : هذا ليل نائم ، ومثله من كتاب الله : (فإذا عزم الأمر (٥)) وإنما العزيمة للرجال .

ويشترط فى حذف الفاعل الحقيقى ، وإسناد الفعل إلى غير من هو له أن يكون ذلك معلوما لدى السامع ، ولذلك لايجوز حذف الفاعل الحقيق وإقامة غيره مكانه فى مثل « قد خسر عبدك » إذا كنت تريد أن تجعل العبد تجارة يقع فيها الربح والخسارة ، لأنه قد يكون العبد تاجراً ، فيربح

---

(١) مجاز القرآن حـ٢ صـ٩٦ .
(٢) سورة القارعة آية ٧ .
(٣) مجاز القرآن حـ١ صـ٢٧٩ .
(٤) سورة البقرة آية : ١٦ .
(٥) سورة محمد آية ٢١ .

أو يخسر، فلا يعلم معناه إذا كان متجوزا فيه. أما لو قال القائل: قد ربحت دراهمك ودنانيرك. وخسر بزك ورقيقك: كان جائزا لدلالة بعضه على بعض.

وعرف الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ أسلوب المجاز العقلي ولكن من غير تسمية — وهو إسناد الفعل إلى غير من هو له في الحقيقة، وإن يضاربه الإعتقاد مادام المتكلم به والسامع له على علم بلغة العرب وطرق التعبير فيها.

وعاب على بعض العلماء لقربهم بعهد الجاهلية الوثنية كراهتهم لأسلوب «المجاز العقلي» مع علمهم به. يقول الجاحظ: «وسمع الحسن رجلا يقول: طلع سهيل، وبرد الليل فكره ذلك، وقال: إن سهيلا لم يأت بحر ولا ببرد قط.

وهذا الكلام مجاز ومذهب، وقد كرهه الحسن كما ترى وكره مالك ابن أنس أن يقول الرجل للغيم والسحابة: ما أخلقها للمطر!

وهذا كلام مجازه قائم وقد كرهه ابن أنس. كأنهم من خوفهم عليهم العود في شيء من أمر الجاهلية، احتاطوا في أمورهم، فمنعوهم من الكلام الذي فيه أدنى متعلق.

وكره ابن عمر رضي الله عنهما قول القائل: أسلمت في كذا وكذا، وقال: ليس الإسلام إلا لله عز وجل: وهذا الكلام مجازه عند الناس سهل وقد كرهه ابن عمر وهو أعلم بذلك [١].

يشير الجاحظ إلى مسألة خلق الأفعال التي شغلت المسلمين في عصره فأهل السنة يعتقدون أن الأفعال كلها مخلوقة لله والبلاغيون منهم ينتهون

---

(١) الحيوان جـ١ ص ٣٤١ بتحقيق هارون.

إلى أن الإسناد الحقيقى ليس باعتبار التأثير بل لأعم من التأثير ؛ كقولك:

« خلق الله السماء » و « قام زيد » فزيد غير مؤثر القيام بل القيام واقع بخلق الله تعالى : ولكن نسبة القيام إلى زيد حقيقة ، بمعنى : أن العرب إنما وضعت « قام » لفعل العبد الواقع بخلق الله تعالى : فالقيام معنى قائم بزيد ووصف له ، وله فيه كسب وتحصيل ، وهذا يكفى ليكون الإسناد حقيقيا .

وقول أهل السنة : إن خالق الأفعال كلها هو الله ، وأنه سبحانه هو الفاعل الحقيقى لكل شىء لايعنى أن تكون كل الصور التى تسند فيها الأفعال لغير الله سبحانه صورا مجازية ؛ لأن الحقيقة تطلق على الأمر المحقق المقابل للعدم وليس كلامنا فيه ، وتطلق على ماهو محل الأوضاع اللغوية ، وكلامنا فيه فالعرب لم تلاحظ فى قام زيد غير نسبة القيام إليه ، وقد لاحظت العرب أن هناك أفعالا لاتنسب إلا إلى العبد كالحركات ، بل لا يسوغ شرعا إسناد الفعل إلى الله سبحانه وتعالى إذا كان غير لائق به وإن كان خالقا له كالقيام والقعود(١) .

وقد ذكر ابن السبكى أن الإسناد الحقيقى أقسام :

الأول : مايراد وقوعه من فاعله حقيقة بمعنى التأثير ، وذلك يختص بالله تعالى كقولنا : خلق الله ، ورزق الله :

الثانى : مايراد وقوعه حكما مثل قام زيد » .

الثالث: مايراد به بمجرد الاتصاف مثل : « مرض زيد » وكل مالا كسب فيه مثل : « برد الماء » (٢) .

كما أنكر قوم المجاز عامة وسنرى ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ فى كتابه

(١و٢) انظر عروس الأفراح شرح تلخيص المفتاح ج١ ص ٢٢٨ .

«تأويل مشكل القرآن» يتعرض للمجاز بأنواعه المختلفة ويرد على الطاعنين على اللغة العربية والقرآن الكريم بالمجاز .

والقائلون بعدم جواز المجاز فى أسلوب القرآن . شبهتهم أن المجاز أخ الكذب ، والقرآن منزه عنه ، وأن المتكلم لا يعدل إليه إلا إذا ضاقت به الحقيقة فيستعير وذلك محال على الله تعالى .

فيتهمهم ابن قتيبة بالجهل وسوء النظر ، ويوضح لهم أن المجاز ضرورة لغوية لايستغنى عنها التعبير . يقول : «وأما الطاعنون على القرآن بالمجاز ، فإنهم زعموا أنه كذب ، لأن الجدار لا يريد(١) والقرية لا تسأل(٢) ، وهذا من أشنع جهالاتهم ، وأدلها على سوء نظرهم ، وقلة أفهامهم ولو كان المجاز كذبا ، وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلا — كان أكثر كلامنا فاسدا ، لأنا نقول : نبت البقل ، وطالت الشجرة وأينعت الثمرة ، وأقام الجبل ، ورخص السعر . ونقول : كان هذا الفعل منك فى وقت كذا ، والفعل لم يكن وإنما كون . ونقول : كان الله ، وكان بمعنى : حدث ، والله جل وعز قبل كل شىء بلاغاية ، لم يحدث فيكون بعد أن لم يكن .

والله تعالى يقول : (فإذا عزم الأمر(٣)) وإنما يعزم عليه ويقول تعالى : فما ربحت تجارتهم(٤)) وإنما يربح فيها ويقول : (وجاءوا على قميصه

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى فى سورة الكهف (فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه) آية : ٧٧ .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى فى سورة يوسف : «واسأل القرية التى كنا فيها) أية : ٨٢ .

(٣) سورة محمد آية : ٢١ .

(٤) سورة البقرة آية : ١٦ .

بدم كذب[١]) وإنما كذب به ولو قلنا للمنكر لقوله : (جدارا يريد أن ينقض) : كيف كنت أنت قائلا فى جدار على شفا انهيار : رأيت جداراً ماذا ؟ لم يجد بدأ من أن يقول : جداراً يهم أن ينقض ، أو يكاد أن ينقض أو يقارب أن ينقض ، وأياما قال فقد جعله فاعلا ، ولا أحسبه يصل إلى هذا المعنى فى شيء من لغات العجم إلا بمثل هذه الألفاظ[٢] » .

وينتهى ابن قتيبة من الدفاع عن وقوع المجاز فى القرآن كاشفا عن المجاز العقلى — وإن لم يسمه .

وذكر المبرد المتوفى سنه ٢٨٥ هـ أمثلة للمجاز العقلى ولم يسمه يقول :
فى قول الشاعر :

حَمَلَتْ بِهِ فِي لَيْلَةٍ مَزءُودَةٍ   كُرْهاً وَعِقْدُ نِطَاقِهَا لَمْ يُحْلَلِ

مزءودة : ذات زؤد . وهو الفزع ، فمن نصب مزءودة فإنما أراد : المرأة ، ومن خفض فإنه أراد الليلة ، وجعل الليلة ذات فـــزع ، لأنه يفزع فيها .

قال الله عز وجل : (بل مكر الليل والنهار [٣]) والمعنى بل مكركم فى الليل والنهار .

وقال جرير :

لقد لمتنا ياأم غيلان فى السُّرى   ونمت وما ليـــل المطى بنائم
وقال آخر :   فنام لَيْــلِى وتَجَلَّى هَمِّى[٤]

---

(١) سورة يوسف آية : ١٨ .
(٢) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٩٩ ، ١٠٠ .
(٣) سورة سبأ آية : ٣٣ .
(٤) الكامل للمبرد حـ١ ص ٧٩ نشر التجارية .

وابن فارس المتوفى سنة ٣٩٢ هـ يقف أمام أسلوب المجاز العقلى ويقول:

ومن سنن العرب إضافة الفعل إلى ما ليس فاعلا فى الحقيقة مثل: «جدار يريد أن ينقض» وهو فى شعر العرب كثير وقال: المفعول يأتى بلفظ الفاعل، تقول: سر كاتم، أى: مكتوم، وفى القرآن: (لا عاصم اليوم من أمر الله[1]) أى لا معصوم و (عيشة راضية[2]) أى مرضى بها، و (حرما آمنا[3])، أى مأمونا فيه[4]:

وعرض له ابن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ يقول فى قوله تعالى: (قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا[5]) (أى غائرا ونحو قول الخنساء):

فإنما هى إقبال وإدبار

فإنما ساغ ذلك له، لأنه أراد المبالغة، وأن يجعله هو نفس الحدث لكثرة ذلك منه[6].

وترى القاضى عبد الجبار الهمدانى المتوفى سنة ٤١٥ يقف أمام هذا الأسلوب متأثرا بالاعتزال فيفسر «الإسناد» بما يتفق مع عقيدته[7].

وأما الشيخ عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧٤ هـ فهو الذى سماه بالمجاز العقلى أو الحكمى وتحدث عنه بالتفصيل واعتبره كنزا من كنوز

---

(١) سورة هود آية: ٤٣.
(٢) سورة القارعة آية: ٧. (٣) سورة القصص آية: ٥٧.
(٤) الصاحبى ص ١٧٥، ١٨٨ المؤيد ١٩١٠.
(٥) سورة الملك آية ٣٠.
(٦) الخصائص لابن جنى حـ ٣ ص ١٨٩ دار الكتب،
(٧) انظر تنزيه القرآن عن المطاعن ص ٣ والمتشابه ص ٦٩.

البلاغة ، ومادة الشاعر المفلق ، والكاتب البليغ(١).

وبعد أن وضحنا مسيرة أسلوب المجاز العقلى بين أيدى البلاغيين يتبين لنا أن المقصود بقول بعض الباحثين « أن المجاز العقلى من ابتكارات عبد القاهر(٢) » — أنه هو الذى أطلق عليه هذه التسمية ، وأكمل مباحثه.

تعريف المجاز العقلى :

قالوا فى تعريفه : إنه إسناد الفعل ، أو معناه ، إلى ملابس له غير ما هو له ، بتأول .

ومعنى التعريف : أن يسند الأديب « الفعل » أو « معناه : أى المصدر واسم الفاعل واسم المفعول . . . الخ » — « إلى ملابس له » أى إلى شىء بينه وبين الفعل أو معناه ملابسة وارتباط وتعلق ، — إلى غير ما هو له — أى أنه إذا أسند الأديب الفعل أو ما دل على معناه — للفاعل النحوى، فإن كان مدلول ذلك الفاعل النحوى الذى أسند إليه الفعل أو معناه هو الفاعل الحقيقى، كان الاسناد حقيقة، وإلا كان مجازا كما إذا كان الفاعل النحوى مصدرا أو ظرفا أو سببا أو مفعولا(٣) .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٢٧ والأسرار ص ٤٤١ .

(٢) انظر تمهيد فى البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر د طه حسين ص ٢٩ صدر كتاب نقد النثر المنسوب إلى قدامة بن جعفر الطبعة الرابعة وزاة المعارف العمومية وانظر أيضا البلاغة تطور وتاريخ لشوقى ضيف ص ١٨٥ ، ٢٦٤ .

(٣) راجع حاشية الدسوقى حـ ١ ص ٢٣٢ ضمن شروح التلخيص طبع الحلبى .

وخلاصة القول أن التجوز فى الإسناد : أن يسند الأديب الفعل ، أو ما دل على معناه إلى غير الفاعل الحقيقى ، والبلاغيون يشترطون فى التجوز أن تكون هناك علاقة وقرينة : وفى المجاز العقلى : إذا أسند الفعل إلى غير الفاعل الحقيقى فهم يحددون الأمور التى يسند الفعل أو معناه إليها ، فالذى يقوم مقام الفاعل الحقيقى إما أن يكون مصدر الفعل أو اسم فاعله أو اسم مفعوله أو زمانه . أو مكانه أو سببه وهذه أمور يسميها البلاغيون ملابسات الفعل أى أنها بينها وبين الفعل تعلق وارتباط وعلاقة .

ولا بد أيضا أن يكون فى المجاز بعامة قرينة تدل على التجوز .

فقول المسلم : أنبت الربيع البقل ، فهنا «أنبت» فاعله الحقيقى هو «الله» سبحانه وتعالى : ولكن المسلم تجوز فى الإسناد ، فأسند الفعل «أنبت» إلى «الربيع» للعلاقة التى بين الفعل والفاعل المجازى ، وهى الزمانية أو السببية والقرينة هنا أن الكلام صادر من مسلم يعتقد أن الإنبات من الله والربيع بعد الإسناد المجازى أصبح فاعلا ، كما يقول النحويون ، ولكنه ليس فاعلا على الحقيقة ، ولما كان بينه وبين الفعل علاقة الزمانية صح الإسناد على سبيل التجوز .

وإذا أسند الأديب «أنبت» إلى «الربيع» فهو يريد المبالغة فى بيان أثر فصل الربيع على النبات .

ملابسات الفعل — أى علاقات المجاز العقلى —

للفعل ملابسات شتى : يلابس الفاعل ، والمفعول به ، والمصدر ، والزمان ، والمكان . والسبب .

فعلاقات المجاز العقلى هى :

١ — المفعولية . ٢ — المصدرية .

٣ — الزمانية .
٤ — المكانيـة .
٥ — السببية .
٦ — الفاعلية .

١ — إسناد المبنى للفاعل إلى المفعول به .

تقول الآية الكريمة : (فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية) والموازين جمع موزون: وهو العمل الذى له وزن وخطر عند الله، أو جمع ميزان، وثقلها : رجحانها « فهو فى عيشة راضية » : « فراضية » وصف مشبه للفعل هو اسم فاعل، وقد أسند هذا الوصف المبنى للفاعل إلى ضمير « عيشة » ، والعيشة فى الحقيقة مفعول للرضا ، فهى مرضية لا راضية ، فإسناد راضية إلى « ضمير العيشة على سبيل المجاز العقلى مبالغة فى النعيم الذى أعده الله للمؤمنين فرضوا به وسعدوا لدرجة أن هذه العيشة أصبحت راضية بصاحبها وإن كان الأصل أن رضى بها صاحبها :

وكذلك قوله تعالى : (خلق من ماء دافق) فقد أصبح المدفوق دافقا مبالغة فى سرعة اندفاعه .

ومنه : « سر كاتم » أى مكتوم — والعلاقة فى كل ذلك المفعولية . لأن الفاعل المجازى كان أصله مفعولا .

ومنه قول الحطيئة يهجو الزبرقان بن بدر :

دعِ المكارمَ لا ترحلْ لبغيتها
واقعدْ فإنك أنت الطاعمُ الكاسي

فالشاعر يهجو الزبرقان ويقول له : دعَ المكارم .

فلست أهلا لها ، وأقم فى البيت دون سعى فمثلك لا ينفسح لمعالى الأمور .

« فالطاعم ، والكاسى » . إسما فاعل — أى فيهما معنى الفعل — واسم

الفاعل ، كما نعرف فى دراستنا النحوية — حقه أن يسند إلى الفاعل ، ولكنه أسند هنا إلى ضمير المفعول به وهو الزبرقان وهو فى الحقيقة مفعول به لأنه المطعوم المكسو كما يريد الشاعر . والذى سوغ هذا الإسناد المجازى علاقة المفعولية .

٢ — إسناد المبنى للفاعل إلى المصدر — مثال قولهم : فلان ثارت ثورته ، وجد جده : وسحر سحره فقد أسند الأديب فى كل هذه الأمثلة ما حقه أن يسند إلى الفاعل — إلى المصدر .

والأصل : ثار فلان ثورة ، وجد الجاد جدا ، وسحر الساحر سحرا فحذف الفاعل الأصلى وهو الثائر ، والجاد ، والساحر ، وأسند الفعل إلى الثورة والجد والسحر . إسنادا مجازيا للمبالغة فى ثورته وجده وسحره والعلاقة فى كل هذه الإسنادات المصدرية .

ومن المشهور فى ذلك قول أبى فراس الحمدانى :

سَيَذْكُرُنِى قَوْمِى إذا جَدَّ جِدُّهم
وفى الليلة الظلماء يُفْتَقَدُ البدر

فالشاعر أسند الفعل : « جده » إلى « جدهم » ، والجد ليس هو الفاعل الحقيقى ، وإنما الفاعل الحقيقى هو القوم فالأصل : « جد القوم جدهم » ، ومن هنا نراه قد تجوز فى الإسناد بحذف الفاعل الحقيقى « القوم » وإسناد الفعل « جد » إلى مصدره « جدهم » ، والذى سوغ هذا الإسناد علاقة المصدرية على سبيل المجاز العقلى للمبالغة فيما ينزل بالقوم من أمور جسام فيعدون لها أقصى ما يستطيعون ويسرعون إلى دعوة الغائب عنهم خاصة إذا كان من المدافعين عن الأحساب الذائدين عن الحمى .

٣ — إسناد المبنى للفاعل إلى الزمان .

وذلك مثل : نهاره صائم ، وليله قائم ، فقد أسند الصوم إلى ضمير النهار، والقيام إلى ضمير الليل على سبيل المجاز العقلى للمبالغة فى تمام الصيام وحسن القيام بوضوح أهدافهما فى سلوك المسلم الصائم والقائم ، والحقيقة أن الصائم هم الناس فى النهار والقائم هم الناس فى الليل :

ومن ذلك قول طرفة :

سَتُبدى لك الأيامُ ما كنتَ جاهلا
وَيأتيك بالأخبــار مَنْ لم تُزوِّدِ

فقد أسند الفعل « ستبدى » إلى زمانه «الأيام» على سبيل المجاز العقلى لعلاقة الزمانية والأصل سيبدى الله لك فى الأيام .

٤ — إسناد المبنى للفاعل إلى المكان .

يقولون : نهر جار ، وطريق سائر ، فيسندون الجرى إلى النهر ، والسير إلى الطريق ، والأصل : نهر جار ماؤه فيه ، لأن الجارى هو الماء لا النهر الذى هو مكان جريه ، وطريق سائر أهله فيه ، لأن الطريق لا تسير وإنما الناس هم الذين يسيرون .

كل ذلك على سبيل المجاز العقلى مبالغة فى قوة فيضان الماء ، وشدة ازدحام الطريق فيخيل للسامع أن النهر هو الذى يجرى وأن الطريق هو الذى يسير، والعلاقة المكانية والقرينة التى دلت على هذا المجاز استحالة وقوع الجرى من النهر والسير من الطريق .

ومن ذلك قول الشاعر :

ملكنا فكان العفوُ منا سجيةً
فلما ملكتم سال بالدم أبطحُ

فالشاعر أسند الفعل : « سال » إلى « أبطح » وهو المسيل الواسع ، والمكان لا يسيل ، وإنما يسيل فيه الدم المراق — على سبيل المجاز العقلي مبالغة في كثرة الدماء التي تراق من جراء الحكم الظالم والشاعر يفرغ ما في نفسه بالتهويل والتخييل حتى يتصور القارىء فظاعة الظلم فيعمل على مقاومته .

ومنه قوله تعالى : (أو لم نمكن لهم حرما آمنا)(١) وحقيقته حرما آمنا أهله فيه ، فإسناد الأمن إلى الحرم مجاز عقلي مبالغة في كمال نعمة الأمن التي تفضل الله بها على سكان حرمه .

٥ — إسناد المبني للفاعل إلى السبب :

نقول : بنى الأمير المدينة ، وحقيقته بنى العمال المدينة بأمر الأمير . فإسناد « البناء » إلى « الأمير » : مجاز عقلي للإشارة إلى أن بناء المدينة كان بأمر « الأمير » ، وأنه اهتم بها وتابع إنشاءها ، أو جعلها لنفسه ومثل هذه المدن تلقى عناية كبيرة وتنسيقا لطيفا ومنه قول الشاعر :

فلا تَسْألِيني واسْألِي عن خَلِيقَتِي
إذا رَدَّ عافِي القِدْرِ مَنْ يَسْتَعِيرُها

وعافي القدر : المرق الذي يبقى في القدر ، فيكون سببا في رد من يستعيرها فإسناد الرد إلى عافي القدر من الإسناد إلى السبب ، وهذا كناية عن شدة الحال ، التي تمنع إعارة القدر لتلك البقية .

وقيل : إن عافي القدر هو : الضيف ، والمعنى أن المستعير يرى الضيف والقدر منصوبة له فلا يطلبها . والعلاقة السببية أي رد المعير القدر بسبب

---

(١) سورة القصص آية ٥٧ :

بقية المرق التى توجد فى القدر والأصل : إذا رد صاحب القدر من يستعيرها بسبب عافيها . والبيت كناية عن شدة الكرم ، أو عن شدة الجدب(١) .

وعليه قوله تعالى : (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين)(٢) .

والأصل : فان الذكرى ينفع الله بسببها المؤمنين .

ومن ذلك قولهم : سرتنى رؤيتك ، وحقيقته : سرنى الله بسبب رؤيتك ، وقولهم ، جاءت بى محبتك ، وحقيقته ، جئت بسبب محبتك .

ومن ذلك قول أبى نواس .

يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظرا

وحقيقته . يزيدك الله حسناً فى وجهه بسبب ما أودعه الله فيه من دقائق الحسن والجمال .

٦ـ إسناد المبنى للمفعول إلى الفاعل

ومن الأمثلة المشهورة فى ذلك قولهم ، «سيل مفعم» ، فمفعم اسم مفعول يرفع «نائب فاعل» ، ونائب الفاعل كما نعرف فى دراستنا النحوية — هو فى الأصل مفعول به .

والمفعم هو المملوء ، والسيل فى الحقيقة مالىء للوادى ، والوادى فى الحقيقة هو الذى يفعم أى يمتلىء بالماء .

وحقيقة الكلام . «أفعم السيل الوادى» ولكن الأديب تجوز فى الإسناد ، وذلك بإسناده «مفعم» إلى «السيل» فجعل الفاعل «السيل» نائب فاعل أى جعله مفعولا به ، فقال : «سيل مفعم» أى سيل مملوء ، على سبيل المجاز العقلى لعلاقة الفاعلية .

---

(١) بغية الإيضاح ج١ ص ٤٨، ٤٩ بتصرف .
(٢) سورة الذاريات آية ٥٥ .

وذلك مبالغة فى شدة فيضان الماء فى الوادى ، فقد تخيل المتكلم أن الماء هو الذى امتلأ . لا الوادى ليعبر عن إحساسه بكثرة الماء ؛ فالماء مصدر الحياة . قال تعالى : (وجعلنا من الماء كل شيء حي) فالأديب إذا رأى هذا الخير اهتزت نفسه فرحا وجاشت عاطفته، وعبّر عن هذا الإحساس بإسناد « مفعم » إلى السيل فجعله مفعولا به بدلا من المفعول به الحقيقى الذى هو « الوادى » .

وتقول الآية الكريمة : (جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا(١)) فهى توضح الجنة بأنها جنات عدن التى وعد بها الرحمن عباده المؤمنين العاملين الصالحات وهى غائبة عنهم لكنهم آمنوا بها ، إن الرحمن كان وعده منجزا لا يتخلف ، فلفظ «مأتيا» اسم مفعول أسند إلى الفاعل وهو الوعد لأنه هو الذى يأتى ، على سبيل المجاز العقلى لعلاقة الفاعلية مبالغة فى تحقيق إنجاز ما وعد الله به عباده المؤمنين وكان حق « مأتيا » أن يسند إلى صاحب الوعد لأنه هو المفعول الحقيقى ، فحقيقة التركيب : «إنه كان وعده مأتيا صاحبه » أى أن الوعد أتى صاحبه .

ومثله قوله تعالى : (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا(٢)) يقول الله لنبيه ﷺ : (وإذا قرأت . أيها النبى القرآن الناطق بالبراهين الدالة على الحق ، جعلنا بمقتضى حكمتنا فى الإضلال والهداية بينك وبين المشركين الذين ينكرون البعث حجابا يمنعهم عن الحق بوضع الغشاوة على عيونهم ، وأغطية على قلوبهم كراهة أن يفقهوه على حقيقته ، وفى آذانهم صمما فلا يسمعونه سماع انتفاع ، وكل هذا بيان لشدة جحودهم وقسوة قلوبهم .

والشاهد فى الآية لفظ «مستورا» فمستور اسم مفعول ، أسند إلى ضمير

---

(١) سورة مريم آية ٦١ (٢) سورة الإسراء آية ٤٥

الحجاب على سبيل المجاز العقلى لعلاقة الفاعلية ، مبالغة فى شدة جحودهم وقسوة قلوبهم – وتوضيح المجاز : ان «حجابا مستورا» حقيقته : «حجابا يستر ماوراءه» ففاعل الستر هو ضمير الحجاب . وفى الآية الكريمة صار الفاعل «الحجاب» نائباً للفاعل أى مفعولا به ، لأن «مستورا» اسم مفعول بنى لنائب الفاعل الذى هو فى الأصل مفعول به .

فيكون «مستورا» أسند إلى غير ما بنى له ، بإسناده إلى الفاعل «الحجاب» بدلا من أن يسند إلى ماوراء الحجاب .

وهذه الملابسات المجازية التى مرت عليك كما تكون مع الإثبات تكون مع النفى ، ولنضرب لذلك مثلا : قال الشاعر :

لقد لمتنا يا أم غيلان فى السرى
ونمت وما ليل المطى بنائم

والشاهد فى البيت قوله : «وما ليل المطى بنائم» فالإسناد منفى – وهو مجاز عقلى قطعا ، والبلاغيون يؤكدونه بقولهم : «إن الوصف لا ينفى عن شىء حتى يتصور ثبوته له» ومعنى ذلك أننا نقول فى : «وما ليل المطى بنائم» «ليل المطى ساهر» والمجاز فى هذا واضح ، إذن قول الشاعر : «وما ليل المطى بنائم» مجاز عقلى لعلاقة الزمانية لأن «الليل» المسند إلى «بنائم» ليس هو الفاعل حقيقة ولكنه زمان النوم .

وملابسات المجاز العقلى كما تقع فى الخبر تقع فى الإنشاء فالخبر أصل الإنشاء ، وقد نبه الخطيب على ذلك فقال : وهو غير مختص بالخبر بل يجرى فى الإنشاء كقوله تعالى : (وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا(١)) والمجاز العقلى فى نسبة البناء لهامان ، وليس هو الذى يفعله وإنما يأمر به ، لأنه كان وزيرا لفرعون .

---

(١) سورة غافر آية ٣٦

وقوله تعالى : «فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحاً» (١) فالإسناد فى الإنشاء، والمجاز العقلى فى نسبة الإيقاد لهامان لأنه سببه .

وقال تعالى : فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى (٢) ، والمجاز العقلى فى نسبة الإخراج لإبليس لأنه سببه (٣) :

صور أخرى للمجاز العقلى

مر بنا أن المجاز العقلى يرد فى إسناد الفعل المبنى للمعلوم إلى غير الفاعل الحقيقى ، وله خمس صور هى : إسناده إلى المفعول به ، وإلى الزمان وإلى المكان ، وإلى المصدر وإلى السبب :

كما مر بنا أيضا أنه يرد فى إسناد الفعل المبنى للمجهول إلى الفاعل ، وكان حقه أن يسند إلى نائب الفاعل الذى هو فى الأصل مفعول به .

وللمجاز العقلى صور أخرى هى :

١ — النسبة الإضافية : وهى إضافة المصدر إلى غير ماحقه أن يضاف إليه كقوله تعالى : (بل مكر الليل والنهار (٤)) أصل المكر فى كلام العرب الخديعة والحيلة، يقال : مكر به إذا خدعه واحتال عليه . والإسناد الحقيقى هو : بل مكر الناس فى الليل والنهار ؛ فى الآية الكريمة تجد أن لفظ «مكر» كان حقه أن يضاف إلى لفظ «الناس» :

---

(١) سورة القصص آية : ٣٨.
(٢) سورة طه آية : ١١٧ .
(٣) انظر بغية الإيضاح جـ ١ صـ ٥٦ .
(٤) سورة سبأ آية : ٣٣ .

فالنظم الكريم حذف منه لفظ « الناس » وأضيف « مكر » إلى الليل من إضافة المصدر إلى زمانه أى إلى غير ماحقه أن يضاف إليه على سبيل المجاز العقلى والعلاقة زمانية ، ومثله قوله تعالى: (وإن خفتم شقاق بينهما(١) وأصله : وإن خفتم شقاق الزوجين فى الحالة التى بينهما ، ومعنى الشقاق أن كل واحد منهما يأخذ شقا غير شق صاحبه : أى ناحية غير ناحيته ، وأضيف الشقاق إلى الظرف « بين » على سبيل المجاز العقلى والعلاقة الزمانية .

٢ — النسبة الإيقاعية : أى بين الفعل المتعدى ومفعوله بمعنى أن الفعل المتعدى يقع على غير ماحقة أن يقع عليه لعلاقة مع قرينة تمنع أن يكون إيقاع الفعل على مفعوله حقيقة وسميت : « نسبة إيقاعية » ، لأن الفعل المتعدى واقع على مفعوله المجازى وذلك مثـــل قوله تعالى : (ولاتطيعوا أمر المسرفين (٢)) أى المشركين وأصله : ولا تطيعوا المسرفين بسبب أمرهم . فقد وقع الفعل « تطيعوا » على « أمر » على سبيل المجاز العقلى لعلاقة السببية لأن الطاعة لاتقع على الأمر وإنما تقع على صاحب الأمر .

٣ — الإسناد بين المبتدأ والخبر ، وقد أورد له الشيخ عبد القاهر الجرجانى مثالا(٣) وهو : قول الخنساء تصف الناقة ،

ترتع مارتعت حتى إذا ادكرت ... فإنمـا هى إقبـــال وإدبار

يقول : « وذاك أنها لم ترد ـ أى الخنساء ـ من الإقبال والإدبار غير معناهما فتكون قد تجوزت فى نفس الكلمة ، وإنما تجوزت فى أن جعلتها

---

(١) سورة النساء آية ٣٥ .
(٢) سورة الشعراء آية : ١٥١ .
(٣) دلائل الاعجاز ص ١٩٧ - ١٩٨ تصحيح المراغى .

لكثرة ماتقبل وتدبر ولغلبة ذاك عليها واتصاله بها ، وأنه لم يكن لها غيرهما كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار .

وإنما كان يكون المجاز فى نفس الكلمة لو أنها كانت إقد استعارت الإقبال والإدبار لمعنى غير معناهما الذى وضع له فى اللغة ، ومعلوم أن ليس الاستعارة مما أرادته فى شىء :

وأعلم أن ليس بالوجه أن يعد هذا على الإطلاق معد ماحذف منه المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه مثل قوله عز وجـــل :(واسأل القرية(١)) .

وإن كنا نراهم يذكرونه حيث يذكرون حذف المضاف ويقولون ؛ إنه فى تقرير « فإنما هى ذات إقبال وإدبار » ذاك لأن المضاف المحذوف من نحو الآية الكريمة وتقديره « واسأل أهل القرية » ـ فى سبيل مايحذف من اللفظ ويراد فى المعنى ، كمثل أن تحذف خبر المبتدأ أو المبتدأ إذا دل الدليل عليه إلى سائر ما إذا حذف كان فى حكم المنطوق به ؛ وليس الأمر كذلك فى بيت الخنساء لأنا إذا جعلنا المعنى فيه الآن كالمعنى إذا نحن قلنا: فإنما هى ذات إقبال وإدبار ؛ أفسدنا الشعر على أنفسنا وخرجنا إلى شىء مغسول (٢) .

وإلى كلام عامى مرذول (٣) .

فواضح من كلام عبد القاهر أنه يرفض أن يكون الكلام على حذف مضاف ، والتقدير ، « فإنما هى ذات إقبال وإدبار » ، أو أن يكون الكلام

---

(١) سورة يوسف آية : ٨٢ .
(٢) مغسول : ليس فيه طلاوة وحلاوة .
(٣) دلائل الإعجاز صـ ١٩٧ ، ١٩٧ .

على تأويل المصدر باسم الفاعل أى فإنما هى مقبلة ومدبرة ؛ لأن كلا التقديرين يفسد الشعر كما يقول عبد القاهر ، وإنما الشعر يتطلب المبالغة ولا تأتى المبالغة إلا إذا جعلنا الإسناد مجازيا بجعلها لكثرة ما تقبل وتدبر كأنها تجسمت من الإقبال والإدبار ،

فإسناد الإقبال والإدبار للناقة من قبيل المجاز العقلى للمبالغة فى وصفها بالسرعة والتخييل بأنها نفس الحركة ، والقرينة : استحالة أن يخبر بالإقبال والادبار عن الناقة على سبيل الحقيقة لأنهما حركتان ، ويتضح الأخبار بهما عن الناقة على سبيل التجوز ،

أقسام المجاز العقلى

باعتبار حال المتكلم والواقع

ينقسم المجاز العقلى باعتبار حال المتكلم والواقع — إلى أربعة أقسام هى :

١ — ماطابق الواقع والاعتقاد معا كقول المؤمن : « أنبت الله البقل » لمخاطب يعتقد أن المتكلم يضيف الإنبات للربيع ، وعلم المتكلم بذلك الاعتقاد ، فيكون مجازاً لأن علمه باعتقاد المخاطب قرينة صارفة للاسناد عن ظاهره ،

٢ — ما طابق الواقع فقط كقول المعتزلى : « خلق الله الأفعال كلها » لمن يعرف حاله ، وهو يعتقد أن المخاطب عالما بحاله ، فيكون ذلك قرينة صارفة للإسناد عن ظاهره .

٣ — ماطابق الاعتقاد فقط كقول الجاهل : « أنبت الربيع البقل » لمن

يعتقد أن ذلك القائل يضيف الإثبات لله ، وعلم ذلك القائل باعتقاده .

٤ ـ ما لا يطابق الواقع ولا الاعتقاد كقولك ، جاء زيد ، وأنت تعلم أنه لم يجيء وأظهرت للمخاطب الكذب ونصبت قرينة على إرادة الكذب (١) .

قرينة المجاز العقلى

القرينة ، هى الأمر الذى يوضح أن إسناد الفعل أو ما فى معناه - إسناد إلى غير ما حقه أن يسند إليه أى هى الدليل الذى ينصبه المتكلم ليعرف السامع أن الاسناد مجاز عقلى .

وهى نوعان : لفظية ومعنوية .

١ ـ فالقرينة اللفظية : هى لفظ يوجد فى الكلام يصرف الإسناد عن ظاهره ، ويدل على أن المتكلم أراد التجوز فى الإسناد ومن المشهور فى ذلك قول أبى النجم العجلى .

قد أصبحت أم الخيار تدعى
علىَّ ذنبا كله لم أصنع
من أن رأت رأسى كرأس الأصلع
ميز عنه قنزعا عن قنزع
جذب الليالى أبطئى أو أسرعى
أفناه قيل الله للشمس أطلعى
حتى إذا واراك أفق فارجعى

---

(١) حاشية الدسوقى ج ١ ص ٢٣٢ ضمن شروح التلخيص

فالشاعر قد أسند الفعل « ميز » إلى « جذب الليالى » إسناداً مجازيا من إسناد الفعل إلى السبب أو الزمن ، وقرينة المجاز لفظية وهى : « قيل الله » فى إسناد إفناء شعر الرأس إلى الله ، فهذا دليل على أن القائل مؤمن متجوز فى كلامه الأول ، وأن إسناد « ميز » إلى « جذب الليالى » مجاز عقلى .

والقنزع : الشعر المجتمع فى نواحى الرأس ، والأصلع : الذى سقط شعر مقدم رأسه .

ومثله قول الصلتان العبدى :

أَشَابَ الصَّغيرَ وأَفْنَى الكَبِيـ ... ـرَ كَرُّ الغَدَاةِ وَمَرُّ العشِى

نَرُوحُ وَنَغْدُو لحاجاتِنـــا ... وحاجة مَنْ عَاشَ لاتَنقضِى

تَموتُ مع المرءِ حاجاتُه ... وتَبْقَى له حـــاجةٌ ما بقِى

ألم تَرَ لقمان أوصى ابنَه ... وأوصيتُ عمرًا ، ونعم الوصِىّ

فلتنا أننا مسلمون ... على دينِ صدِّيقنا والنبى

فالشاعر أسند الفعل « أشاب » و « أفنى » إلى « كر الغداة ومر العشى » وهو إسناد مجازى من إسناد الفعل إلى السبب أو الزمن ، والقرينة الدالة على أن الإسناد مجازى ذكرها الشاعر فى البيتين الأخيرين ، فراده بوصية لقمان قوله تعالى : (يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم)(١) .

أى أنه موحد ، وكذلك البيت الثانى ، وهى قرينة لفظية دلت على أن إسناد « الإشابة والإفناء » إلى تعاقب الليل والنهار إسنادا مجازيا .

وتقول : « شيبنى الفراق ، وهزتنى الأيام والله وحده هو المستعان به .

---

(١) سورة لقمان آية : ١٣

فإسناد « الشيب » إلى « الفراق » و « الهجر » إلى « الأيام » إسناد مجازى والقرينة لفظية وهى قوله « والله وحده هو المستعان به » .

٢ — والقرينة المعنوية : هى أمر غير لفظى يدل على أن الإسناد مجاز عقلى وذلك أحد أمرين :

الأمر الأول : أن يكون صدور المسند من المسند إليه — أو قيامه به مستحيلا عقلا أو عادة .

(أ) فالمستحيل عادة كقوله تعالى حكاية عن فرعون : (يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم)(١) .

فإسناد « يذبح » إلى ضمير فرعون مجاز عقلى لعلاقة السببية ؛ لأن فرعون نفسه لم « يذبح » وإنما أعوانه هم الذين كانوا يذبحون بأمره ، فهو سبب « للتذبيح » والقرينة معنوية لاستحالة صدور هذا الفعل من فرعون عادة وإن أمكن ذلك عقلا .

ومثله قولنا : « هزم الأمير جيش الأعداء » فإسناد هزيمة الأعداء إلى الأمير مجاز عقلى من إسناد الفعل إلى سببه الآمر ، والقرينة معنوية وهى : استحالة صدور الفعل من الفاعل المذكور عادة وإن أمكن عقلا .

(ب) والمستحيل عقلا مثل قول الشاعر :

إذا المرءُ لم يحتلْ وقد جدَّ جدُّه
أضاعَ وقاسَى أمرَه وهو مدبرُ

---

(١) سورة القصص آية : ٤

فإسناد الفعل « جدّ » إلى مصدره « جدّه » والاجتهاد لا يقع من نفسه ، وإنما يقع من صاحبه ، ففيه مجاز عقلي علاقته المصدرية ، والقرينة معنوية وهي استحالة قيام الفعل « جد » بمصدره (جـــده) استحالة عقلية .

وتقول : « محبتك جاءت بي إليك » فاسناد المجيء إلى ضمير المحبة مجاز عقلي علاقته السببية والقرينة معنوية ؛ إذ يستحيل عقلا قيام المجيء بالمحبة .

الأمر الثاني : أن يكون الكلام صادرا من الموحد :

مثاله : ما ورد في الحديث « وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم » حبطا أي انتفاخا ، ويلم : يقارب ، فهذا الكلام صادر من سيد الموحدين — ﷺ — فصدوره منه قرينة على أنه لا يريد بإسناد الإنبات إلى الربيع حقيقته وظاهره ، ولا بإسناد « القتل » إلى ما ينبته الربيع حقيقته وظاهره ، بل أراد من إسناد « الإنبات » إلى « الربيع » التجوز في الإسناد لعلاقة السببية أو الزمانية ، وأراد من إسناد « القتل » إلى ما ينبته الربيع التجوز في الإسناد أيضا لعلاقة السببية والقرينة في كل منهما معنوية لصدور الكلام من سيد الموحدين : ﷺ .

أقسام المجاز العقلي

باعتبار حقيقة طرفية ومجازيتهما

ينقسم المجاز العقلي بهذا الاعتبار إلى أربعة أقسام :

القسم الأول : أن يكون المسند والمسند إليه حقيقتين لغويتين كقولنا : « أنبت الربيع البقل » فكل من "طرفين أى المسند « أنبت » والمسند إليه « الربيع » مستعمل فيما وضع له .

والمجاز في الإسناد والكلام من مؤمن .

ومثله قول الشاعر :

وشيَّبَ أيامُ الفراقِ مفـــارِقِ   وأَنْشَزْنَ نفسي فوقَ حيثُ تكونُ

والمعنى : ضاق الشاعر بالفراق حتى بلغت روحه الحلقوم .

وقوله :

أشابَ الصغيرَ وأفنَى الكبيرَ   كرُّ الغـــداةِ ومرُّ العشي

فالمجاز العقلي واقع في إثبات الشيب فعلا « للأيام » و « لكر الليالى » وهو الذى أزيل عن وضعه الذى ينبغى أن يكون فيه ؛ لأن من حق هذا الإثبات ، أعنى إثبات الشيب فعلا لا يقع إلا مع أسماء الله تعالى ، فليس يصح وجود الشيب فعلا لغير القديم - سبحانه - وقد وجه فى البيتين كما ترى إلى الأيام والليالى ، وذلك مالا يثبت له فعل بوجه لا للشيب ولا لغير الشيب . وأما المسند « الشيب » فلم يقع فيه مجاز ؛ لأنه موجود كما ترى .

ومثله إذا قلنا : « سرنى الخبر وسرنى لقاؤك » فالمجاز فى الإثبات دون المثبت ؛ لأن المثبت هو السرور ، وهو حاصل على حقيقته(١) .

---

(١) أسرار البلاغة للجرجانى تحقيق رشيد رضا ص ٣٠١ .

ومثله قول رؤبة بن العجاج " فنام ليلى وتجلى همى . فقد أسند الفعل « نام » وهو مبنى للفاعل إلى الزمن ، وهو « ليلى » إسنادا مجازيا لعلاقة الزمانية والقرينة أن الليل لا ينام وإنما الإنسان هو الذى ينام فيه - وكل من « نام » و « ليل » مستعمل فيما وضع له أى حقيقة لغوية ، والمجاز إنما هو فى الإسناد وإسناد النوم إلى الليل للمبالغة فيما يتحمله الشاعر فى أثناء الليل من السهر والضجر وتذكر الهموم وطول الليل عليه .

القسم الثانى : أن يكون الطرفان (المسند والمسند إليه) مجازين لغويين أى أنهما مستعملان فى غير ما وضع له .

وذلك مثل : « أحيا الأرض شباب الزمان » فإن الإحياء والشباب مستعملان مجازا فى الإنبات والربيع .

القسم الثالث : أن يكون المسند حقيقة لغوية والمسند إليه مجازا لغويا . كقولنا : « أنبت البقل شباب الزمان فالمسند الذى هو « إنبات البقل » حقيقة ، والمسند إليه الذى هو شباب الزمان مجازى .

وعليه قول الرجل لصاحبه : « هدانا نبراس من الله فالمسند (هدى) حقيقة ، والمسند إليه (نبراس من الله) مجازى والأصل : هدانا كتاب من الله .

القسم الرابع : أن يكون المسند مجازا لغويا والمسند إليه حقيقة لغوية كقولنا : أحيا الأرض الربيع فالمسند الذى هو « أحيا » مجاز ، والمسند إليه الذى هو « الربيع » حقيقة . وعليه قول أبى الطيب :

وتُحيى لهُ المالَ الصوارمُ والقنا ويقتل ما تحيى التبسمُ والجدا

يصف الشاعر ممدوحه بالشجاعة والكرم ، فبالشجاعة وقوة البأس يحصل على المال وبالكرم يفرقه على الضعفاء والمساكين وكل من يقصده .

فقد أسند الشاعر المسند « تحيي » إلى « الصوارم » على سبيل المجاز العقلى ، كما أسند المسند « تقتل » إلى « التبسم » على سبيل المجاز العقلى أيضا ، وكل من « يحيي » و « تقتل » مستعمل فى غير ما وضع له .

فقد استعار « الإحياء » للحصول على المال من الإعداء بقوة السلاح ، كما استعار « القتل » لبذل المال وتفريقه على المحتاجين .

ثم أسند « الإحياء » إلى « الصوارم » و « القتل » إلى « التبسم » وكل منهما حقيقة لغوية مع التجوز فى الإسناد لعلاقة السببية . ومثله : « أهلك الناس الدينار والدرهم » فالمسند « أهلك » مجاز عن الفتنة و « الدرهم والدينار » حقيقة لغوية ، وإسناد « أهلك » إلى « الدينار والدرهم » مجاز عقلى علاقته السببيه ولا يخفى عليك أن السر البلاغى فى كل هذه الأمثلة هو المبالغة مع التخييل والتجسيم والتصوير الذى يدعو الفكر للعمل والتعمق واستبطان المعنى .

وقوع المجاز العقلى

فى القرآن الكريم

تجد هذا العنوان فى كتب البلاغة قديمها وحديثها ولعل هذا أثر من آثار إنكار وقوع المجاز فى القرآن الكريم .

ولكن المجاز العقلى فى القرآن كثير وذلك مثل قوله تعالى : « وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا »(١) فإن اسناد زيادة الإيمان إلى الآيات مجاز من باب الإسناد إلى السبب العادى لأن الزيادة فعل الله عز وجل والآيات يزاد بها عادة(٢)

وكما فى قوله تعالى : « يذبح أبناءهم »(٣) فإن فيه إسناد التذبيح إلى فرعون وهو سبب آمر والذى قام بالذبح حقيقة هم أعوانه وأتباعه .

ومثله قوله تعالى : « ينزع عنهما لباسهما »(٤) فاسناد نزع اللباس عن آدم وحواء - لإبليس على سبيل المجاز العقلى وهو فى الحقيقة لله عز وجل ، وإبليس سبب بوسوسته ومقاسمته لهما إنه لهما لمن الناصحين .

ومثله قوله تعالى : « يوما يجعل الولدان شيبا »(٥) فسبب جعل الولدان

---

(١) سورة الأنفال آية : ٢

(٢) مواهب الفتاح شرح تلخيص المفتاح لأبى يعقوب المغربى جـ ١ ص ٢٥٢ ضمن شروح التلخيص

(٣) سورة القصص آية : ٤

(٤) سورة الأعراف آية : ٢٧

(٥) سورة المزمل آية ١٧

شيبا - جمع أشيب - إلى « اليوم » مجازا ، لأن الضمير فى « يجعل » لليوم من باب الإسناد إلى الزمان .

والجعل فى الحقيقة لله تعالى وجعل الولدان شيبا كناية عن تفاقم أهوال يوم القيامة .

وكقوله تعالى : « وأخرجت الأرض أثقالها »(١) أسند « الإخراج » إلى « الأرض » مجازا ، والإخراج فى الحقيقة لله تعالى من باب الإسناد إلى الملابس الذى هو المكان .

استلزام المجاز العقلى الحقيقة

يرى الخطيب القزوينى أن الفعل المبنى للفاعل فى المجاز العقلى واجب أن يكون له فاعل فى التقدير إذا أسند إليه صار الإسناد حقيقة ، غير أن هذا الفاعل الحقيقى تارة يكون واضحا يدركه المتلقى بيسر وسهولة .

كما فى قوله تعالى : « فما ربحت تجارتهم »(٢) فإسناد الربح إلى التجارة مجاز عقلى ، والمسند إليه فى الحقيقة ظاهر ، وهم أهلها . والأصل « فما ربحوا فى تجارتهم » ، فالتجارة لما كانت سبب الربح أسند إليها على سبيل المجاز العقلى والعلاقة السببية والرابح فى الحقيقة هم أصحابها .

وتارة يكون المسند إليه الحقيقى خفيا لايدرك إلا بالتأمل وطول النظر وذلك مثل قولنا : سرتنى رؤيتك ، أى سرنى الله وقت رؤيتك وهو من

---

(١) سورة الزلزلة آية ٢
(٢) سورة البقرة آية : ١٦

الاسناد إلى الظرف إسنادا مجازيا أو من الإسناد إلى السبب أى سرنى الله بسبب رؤيتك ، ومثله قول أبى نواس :

يزيدُك وجهُه حسنًا إذا ما زدْتَه نَظَرا

أى يزيدك الله حسنا فى وجهه ، فإسناد الزيادة إلى الوجه مجاز عقلى من الإسناد إلى السبب والفاعل الحقيقى هو الله تعالى وخفاء المسند إليه أى الفاعل الحقيقى من جهة عرف الاستعمال حيث كثر فى استعمالهم إسناد مثل هذه الأفعال إلى الفاعل المجازى ،واهمال إسنادها إلى الفاعل الحقيقى لهذا السبب خص الفاعل الحقيقى ، بحيث بعد عن الخطور بالبال عند الاستعمال ، وإذا أردته لا يتأتى إلا بالتأمل وتذكر الحقيقة الثابتة التى تقرر أن الله تعالى خالق الأفعال كلها .

ويرى الشيخ عبد القاهر الجرجانى أن من أساليب المجاز العقلى ما يمكنك أن ترجع بالاسناد إلى الفاعل الحقيقى مثل « نام ليلى وتجلى همى » فمن السهل أن تقول : « نمت فى ليلى » وفى قوله تعالى : (فما ربحت تجارتهم » تقول : « فما ربحوا فى تجارتهم » وفى قول الشاعر :

تَجُوبُ له الظلماءَ عينٌ كأنها
زجاجةُ شَرْبٍ غيرُ مَلْأَى ولا صِفْرُ

يريد الشاعر أن يصف الجمل بأنه يهتدى بنور عينه فى الظلماء ويمكنه بها أن يخرقها ويمضى فيها ، ولولاها لكانت الظلماء كالسد الذى لا يجد السائر شيئا يفرجه به ويجعل لنفسه فيه سبيلا ، والأصل يجوب الجمل بعينه .

وهناك أساليب من المجاز العقلى لم يألفها الاستعمال مسندة إلى ما حقها أن تسند إليه .

أى لم تأت مسندة إلى الفاعل الحقيقى فى العرف الاستعمالى فى الأدب بعامة . من ذلك قولنا :

« أقدمنى بلدك حق لى عليك » فإن الإقدام هنا مسند إلى الحق ، والحق ليس فاعل الإقدام ، وإنما هو داع إليه فالإسناد مجاز عقلى لعلاقة السببية ونلاحظ أننا لم نستعمل الإسناد الحقيقى فى قولنا « أقدمنى بلدك حق لى عليك » ولكننا أحيانا نستعمل الإسناد الحقيقى فى مثل ربح الناس فى تجارتهم .

ومثله قول الشاعر :

وصيرنى هواك وبى لِحَيْنى يُضْرَبُ المثلُ

وقوله :

يزيدك وجهه حسنا إذا مازدته نظرا

يقول عبد القاهر : إنك لا تستطيع أن تزعم أن لصيرنى فاعلا قد نقل عنه الفعل فجعل للهوى كما فعل ذلك فى « ربحت تجارتهم » .

ولا تستطيع كذلك أن تقدر « ليزيد » فى قوله : يزيدك وجهه : فاعلا غير الوجه » .

ومعنى البيت الأول : أن الهوى صير الشاعر مثلا يضرب فى هلاك المحبة فأسند الفعل « صيرنى » إلى « هواك » . ومعلوم أن الذى صيره مثلا ليس الهوى ، وإنما الهوى سبب فى هذه الصيرورة ولم يعرف فى الاستعمال العرفى إسناد حقيقى لهذه الصيغة .

ومعنى البيت الثانى : أراد أن محاسن وجهه لا تتناهى فكلما ازددت تأملا ظهرت لك آيات من الحسن . فأسند الشاعر « الزيادة » إلى « الوجه » والوجه ليس فاعلا زيادة الحسن لمن يتأمل . وإنما هو سبب هذه الزيادة

ولم يجر الاستعمال العرفى بإسناد حقيقى لمثل هذه الصيغة .

وبالتأمل نرى أنه لا خلاف بين عبد القاهر والخطيب ، لأن الشيخ عبد القاهر لاينكر ، أن كل فعل لابد له من فاعل ، ولكنه يقول : هناك تراكيب جرت فى لسانهم على أسلوب المجاز العقلى ولم نرها جارية على أسلوب الحقيقة .

إنكار السكاكى للمجاز العقلى

أنكر السكاكى وجود المجاز العقلى فى الكلام ، وقال الذى عندى نظمه فى سلك الاستعارة بالكناية فيقول فى « أنبت الربيع البقل » : إن الربيع استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقى بواسطة المبالغة فى التشبيه وإسناد الإنبات إلى الربيع قرينة الاستعارة .

فعلى هذا يكون إنبات الإنبات الذى هو القرينة حقيقيا ، فلا يكون المجاز فى الإسناد . وتقول فى إجرائها شبهنا الفاعل المجازى الذى هو « الربيع » بالفاعل الحقيقى الذى هو « الله » فاعل الإنبات ثم نحذف المشبه به لفظ « الله » ونرمز له بشىء من لوازمه وهو هنا « الإنبات » ونقيم المشبه « الربيع » مقامه ثم نثبت « الإنبات » إلى « الربيع » على سبيل الاستعارة بالكناية ، وإثبات « الإنبات » إلى « الربيع » استعارة تخييلية .

وعلى هذا يخرج السكاكى صور المجاز العقلى من علم « المعانى » إلى علم « البيان » والذى دفعه إلى ذلك — كما قال — الرغبة فى تقليل الأقسام ومن أجل هذه الرغبة أنكر الاستعارة التبعية أيضاً .

لكن الخطيب القزويني[1] استنكر ماذهب إليه السكاكى وأثبت المجاز العقلى وجعله من علم « المعانى » لانطباق تعريف علم المعانى عليه فالحقيقة العقلية والمجاز العقلى حالان من أحوال اللفظ العربى .

وبهذا نكون قد انتهينا من معالجة أحوال الإسناد الخبرى وننتقل إلى معالجة أجزاء الجملة ونبدأ بالركن الأول فيها وهو المسند إليه .

---

(١) راجع ردود الخطيب على السكاكى فى كتاب بغية الإيضاح جـ١ ص ٦٠ ، ٦١ .

الفصل الثانى

أحوال المسند إليه

سبق أن عرفنا أن الجملة تتكون من جزءين أساسيين هما . « المسند إليه والمسند » .

والمسند إليه يسمى محكوما عليه وهو : المبتدأ أو الفاعل ونائبه ، أو اسم كان وإن ، أو المفعول الأول من باب « ظن » وأخواتها .

والمسند إليه حينما يجوز ذكره أو حذفه من الكلام . ترى الأديب يؤثر ذكره تارة ، ويؤثر حذفه تارة أخرى .

وحينما يجوز له تقديم المسند إليه أو تأخيره ، تراه فى مكان يؤثر التقديم وفى مكان آخر يؤثر التأخير ، والأديب يفعل ذلك ليعبر عما فى نفسه بطريق الإيجاز والإيحاء والإشارة والتلميح .

وهذه التصرفات التى يحدثها الأديب فى « النظم » بعامة ، تحمل المتلقى على التفكير ، ليقف على دلالات التراكيب ، ويعيش فى ظلالها ، فيرتبط بالأديب ، ويستبطن المعنى ، ويتأثر به ، وتلك ثمرة الأدب الحى .

وإذا تصرف الأديب فى (المسند إليه) بأن ذكره أو حذفه ، أو عرفه أو نكره ، أو قدمه أو أخره ترى البلاغيين يطلقون على هذه التصرفات : « أحوال المسند إليه » التى نقوم الآن بمعالجتها ، ونبدأ بالأغراض التى يقصدها الأديب من حذف المسند إليه .

حذف المسند إليه

يحذف الأديب « المسند إليه » من الكلام عند إمكان ذكره أو حذفه تلبية لحاجات أحس بها يقصد من ورائها تقوية المعنى ووصوله إلى قارئه أو سامعه فى صورة مؤثرة ومقنعة .

وحذف « المسند إليه » يتوقف على أمرين :

أحدهما : وجود مايدل على المحذوف من قرينة .

والآخر : وجود المرجح للذكر على الحذف وهذا المرجح هو هدف الأديب ليحقق أغراضا بلاغية تكسب الكلام قوة وجمالا .

وإليك بعض الأغراض البلاغية لحذف المسند إليه.

١ – الاحتراز عن العبث بناء على الظاهر .

وبيان ذلك : أن ماقامت عليه القرينة وظهر عند المخاطب فذكره يعد عبثا ، والأديب يجب أن يبتعد عن العبث ، وقولنا : « بناء على الظاهر » ، لأن الواقع أن « المسند إليه » ركن من الجملة فذكره ليس عبثا ، لكن الأديب إذا ذكره يعد عبثا بمقتضى البلاغة إذا كان حذفه يحقق غرضا بلاغيا .

مثال ذلك قول سعد الغنوى يرثى أخاه (١)

لعمرى لئن أصابت منيـــة
أخى والمنايا للرجال شعوب

---

(١) جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والإسلام للقرشى القسم الأول ص ٦٩٢ – ٧٠٤ تحقيق البجاوى نشر نهضة مصر ، وانظر أيضا مختارات ابن الشجرى ص ١٠٩ ، ١١٠ .

لَقَدْ عَجَمَتْ مِنِّى المنيةُ مَاجِدًا
عَرُوفاً لِرَيْبِ الدَّهْرِ حِينَ يُرِيبُ
فَتَى الحربِ إنْ حَارَبَتْ كَانَ سِمَامَهَا
وفى السِّلْمِ مفضالُ اليدينِ وَهُوبُ
جموعُ خلالَ الخيرِ من كلِ جانبٍ
إذا حَلَّ مَكروهٌ بِهِنَّ ذَهُوبُ

والتقدير : هو فتى الحروب (الحرب)، وهو جموع خلال الخير ، لحذف المسند إليه لدلالة الكلام السابق عليه. وبلاغة هذا الحذف كما يقول الشيخ عبد القاهر : إنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ماتكون إذا لم تنطق وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن »(1) .

ويقول عبد القاهر : « ومن المواضع التى يطرد فيها حذف المبتدأ القطع والإستئناف يبدءون بذكر الرجل (ويقومون) بعض أمره ، ثم يدعون الكلام الأول ، ويستأنفون كلاما آخر ؛ وإذا فعلوا ذلك أتوا فى أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ مثال ذلك قول عمرو بن معد يكرب الزبيدى :

وعلمتُ أَنِّى يومَ ذا كَ منازلٌ كعباً وَنَهْدًا(2)
قومٌ إذا لَبِسُوا الحديد تَنَمَّرُوا حلقا وقدّاً(3)

---

(1) دلائل الإعجاز ص ٩٥ .

(2) كعب ونهد قبيلتان ؛ وأراد بالأولى بنو الحارث من مذحج والثانية من قضاعة من اليمن ، وكانت بينه وبينهم حروب .

تنمر : تشبه بالنمر فى خلقه أو خلقه ، أوفيهما ، والحلق : حلق الدروع =

وقول المرى :

هم حَلّوا من الشَّرَف المُعَلَّى ومِنْ حَسَبِ العشيرةِ حيثُ شاءُوا

بناةُ مكارمٍ وأُساةُ كَلْمٍ دماؤُهم مِنَ الكَلَبِ الشِّفاء[1]

والتقدير : هم قوم ، وهم بناة ، فحذف المسند إليه لدلالة الكلام السابق عليه .

ويقول[2] عبد القاهر بعد أن ذكر أمثلة لحذف المسند إليه ما نصه : « فتأمل الآن هذه الأبيات كلها واستقرها واحدا واحدا وانظر إلى موقعها من نفسك ، وإلى ما تجده من اللطف والظرف إذا أنت مررت بموضع الحذف منها ، ثم قلبت النفس عما تجد ، وألطفت النظر عما تحس به ، ثم تكلف أن ترد ما حذف الشاعر ، وأن تخرجه إلى لفظك وتوقعه فى سمعك فإنك تعلم أن الذى قلت كما قلت ، وأن رب حذف هو قلادة الجيد ، وقاعدة التجويد » .

وحينما يحترز الأديب عن العبث فيحذف المسند إليه فذلك إيجاز ، والإيجاز هو البلاغة ، لأنه يعتمد على ذكاء القارىء والسامع ، وعلى إثارة

= ويعبر بها عن الدروع نفسها ، والقد جلد يلبس فى الحرب ، وهو اليلب وكأن لون الحديد ولون ذلك الجلد يختلف اختلاف لون النمر

(١) تزعم العرب أن الرجل إذا أصيب بالكلب ، أتوا برجل شريف يقطر لهم من دم أصبعه ، فيسقون المريض فيبرأ (ص ٩٧ الدلائل) .

(٢) الدلائل ص ٩٩

حسه وتنشيط خياله ، حتى يدرك باللمحة ، ويفهم بالقرينة وذلك دليل على قوة اللغة وحيويتها وأثرها فى تربية المهارات .

٢ — ضيق المقام عن إطالة الكلام بسبب سآمة أو توجع كقول الشاعر

قَالَ لِي : كيف أَنْتَ ؟ قلتُ عَلِيلٌ
سهرٌ دائمٌ وحزنٌ طويلُ

والتقدير : أنا عليل ، وحالى سهر طويل . فحذف المسند إليه فدل الحذف على أن الأديب الشاعر نظف كلامه من التطويل بدون إفادة كما أنه عبر عن شىء بين جوانحه وهو الضيق والسآمة والضجر ، ولو عبر عن هذا بالألفاظ لطال الكلام ، ولكان أساء الظن بعقل وذكاء المتلقى ولحرمه من المتعة التى يحس بها حينما يكشف الأسرار والمعانى التى وراء الإيحاءات والرموز .

وقد يكون ضيق المقام لخوف فوات فرصة كقول من ينبه فرق الإنقاذ غريق . غريق أو : حريق حريق . يريد القائل : هذا غريق أو هذا حريق ، فانظر وتأمل أسرار اللغة حينما تسمع هذه الجملة القصيرة وقد حذف المسند إليه ، وتراها تثير همتك ونشاطك وتحرك منك جميع الجوارح لتستعد لواجبات البطولة ونداء الإخوة والإنسانية ، وكل ذلك حدث من حذف المسند إليه ، وأصبحت العبارة كبرقية قصيرة جدا تحرك الهمم وتهز المشاعر

٣ — أن يقصد تخييل العدول إلى أقوى الدليلين من العقل واللفظ كقولنا : قائم ، فى جواب كيف زيد؟ فحذفنا المسند إليه ، والتقدير : زيد قائم . وكان حذف المسند إليه فيه تخييل العدول إلى أقوى الدليلين ، لأنك لو قلت : زيد قائم أو هو قائم مثلا : لكان الكلام دالا على المسند إليه بلفظه ، ولو قلت : قائم لحذفت المسند إليه . لعرفه المتلقى بالعقل الذى يفهم أن السؤال كالمعاد فى الجواب ،

فالدليلان هما : دليل العقل ، ودليل اللفظ ، وأقواهما دليل العقل لأن دلالته معنوية ، وعمل العقل من مميزات اللغة .

٤ — ويحذف المسند إليه عند وجود القرينة ، إذا أراد الأديب أن يصونه عن الألسنة تعظيما له مثال ذلك قول أبي الأسود الدؤلي يمدح عمرو ابن سعيد العاصي :

سَأَشْكُرُ عَمْرًا إن تراخَتْ منيتي
أيادِيَ لَمْ تُمْنَنْ وإنْ هِيَ جَلَّتِ

فَتًى غَيْرُ محجوبِ الغنى عن صديقِهِ
ولا مُظْهِرُ الشَّكْوَى إذا النعلُ زَلَّتِ

فالشاعر في البيت الثاني حذف المسند إليه إذ التقدير : هو فتى ، وواضح أن الغرض من حذفه التعظيم والإيجاز . والأولى أن يدل على هذا الرجل العظيم بصفاته الكريمة فقد وصفه بالبذل والسخاء والوفاء لأصدقائه ثم وصفه بالحزم والرجولة والقوة .

وقول أبي الطمحان القيني . وقيل : للقيط بن زرارة :

أضاءت لهم أحسابُهم ووجوهُهم
دُجَى الليلِ حتى نَظَّمَ الجَزْعَ ثاقِبُهْ

نجومُ سماءٍ كلما انْقَضَّ كوكب
بدا كوكب تأوِي إليه كواكبُهْ

والجزع : خرز فيه بياض وسواد ، والشاهد قوله نجوم سماء : لحذف المسند إليه . إذ التقدير : هم نجوم سماء ، وبلاغته أن الشاعر رأى من عظمة

هؤلاء الناس أن يطوى ذكر ضميرهم ويدل عليهم بصفاتهم . ولا تنس أن في البيت إيجازا ، ومحافظة على الوزن أيضا .

وحذف الأسماء حبها أو تعظيما لشأنها وارد مثله فى الأساليب العربية تأمل قول الشاعر :

وإياكَ واسمَ العامريةِ إننى أُغارُ عليها من فَمِ المتكلمِ

فهذا الشاعر لا يسمح لأحد أن ينطق اسم « العامرية » خوفا من غيرته الشديدة ووراء الغيرة — عادة — وله ومحبة .

وأحيانا يحذف الشاعر المسند إليه تحقيراً لشأنه وصونا للسان عن ذكره مثال ذلك قول بعض العرب فى ابن عم له موسر سأله فمنعه .

وقال: كم أعطيك مالى وأنت تنفقه فيما لا يعنيك ، فتركه حتى اجتمع القوم فى ناديهم وهو فيهم ، فشكاه إلى القوم وذمه ، فوثب إليه ابن عمه فلطمه ، فأنشأ يقول :

سريعٌ إلى ابنِ العمِّ يلطمُ وجهَهُ
وليس إلى داعى النَّدى بسريع
حريصٌ على الدنيا مُضيع لدينه
وليسَ لِما فى بيتِه بمُضيِّع

فحذف المسند إليه فى البيتين إذ التقدير : هو سريع ، وهو حريص ، والحذف فيه لصون اللسان عن المحذوف تحقيرا له وفيه إيجاز واحتراز عن العبث .

وفى معنى صون اللسان عن ذكر المسند إليه يقول الشاعر :

ولقد علمت بأنهم نجس وإذا ذكرتهم غسلت فمى

وتقول الآية الكريمة : (صم بكم عمى(١)) فتحذف المسند إليه تحقيرا له والتقدير : هم صم ، وكذلك قوله : (وما أدراك ما هي نار حامية(٢)) . والتقدير : هي نار حامية ، والمسند إليه في الآيتين أصبح كالمتعين ، فلا حاجة لذكره .

٥ — وقد يحذف الأديب المسند إليه ليختبر ذكاء المخاطب : أيتنبه إليه لقيام القرينة الدالة ، أم لا يتنبه إلا بالتصريح ؟ — مثال ذلك : أن يحضر إليك شخصان تربطك بأحدهما صلة صداقة ، فتقول لآخر يعلم بهذه الصلة : « غادر خائن » على تقدير : « الصديق غادر » فتحذف المسند إليه لتختبر ذكاء السامع ، أيتنبه إلى أن المسند إليه هو « الصديق » بقرينة ذكر « الغدر والخيانة » ، إذهما المناسبان لمعنى الصداقة ، أم لا يتنبه ؟

وأحيانا يحذف الأديب المسند إليه ، ليختبر مقدار ذكاء المخاطب أيتنبه لهذا المحذوف لقرينة خفية دالة عليه ، أم لا يتنبه ؟ ومثال ذلك أن يأتى إليك شخصان — تجمعك بهما صداقة — غير أن أحدهما أقدم صحبة من الآخر ، فتقول لآخر على علم بهذه الصلة : « جدير بالوفاء » ، تريد : أقدمهما صحبة فتترك ذكره اختبارا لمبلغ تنبه المخاطب : أيتنبه إلى المحذوف للقرينة الخفية . . أم لا يتنبه ؟

وفي هذا الحذف ايجاز ومعه الاحتراز عن العبث .

٦ — وأحيانا يحذف المتكلم المسند إليه ليتأتى له الإنكار عند الحاجة . مثال ذلك أن يحضر إليك عدد من الناس فهم خصم لك فتقول لآخر

---

(١) سورة البقرة آية : ١٨ :

(٢) سورة القارعة آية : ١٠ ، ١١ .

يعلم بتلك الخصومة : « لئيم فاجر : « لئيم فاجر » تعنى هذا الخصم فتحذف المسند إليه إذ التقدير : فلان لئيم فاجر وذلك ليتأتى لك الإنكار عند لومه إياك على سبه فتقول له : ما قصدتك .

٧ — وقد يحذف المسند إليه اذا كان متعينا فلا حاجة لذكره . والمسند اليه تعينه القرينة فى ثلاثة مواطن .

(ا) اذا كان المسند لا يصلح إلا له ، مثال ذلك قوله تعالى : « عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال(١) » تريد الله سبحانه فتحذفه لتعينه ، اذ أن علم الغيب والشهادة وصف خاص بالله تعالى ، لا يكون لغيره .

ومنه قوله : (يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ويحيى الأرض بعد موتها(٢)) وقوله تعالى : (تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل(٣)) فكل هذه الجمل حذف فيها المسند إليه لتعينه : لأن المسند لا يصلح إلا له سبحانه وتعالى .

وفى هذه الأساليب دليل وإقرار بوجوده جل وعلا ، وتأكيد إنفراده بالمسند .

(ب) وقد يحذف المتكلم المسند إليه لتعينه ادعاء وذلك مبالغة فى وصفه بالمسند مثل أن تقول : « عادل فى حكومته » تريد عمر الفاروق الخليفة الثانى فتحذفه لتعينه وذلك للمبالغة بان صفة العدالة بلغت فيه حد الكمال .

(ح) وقد يحذف المسند إليه لتعينه وذلك إذا كان معهودا لدى

---

(١) سورة الرعد آية : ٩ .
(٢) سورة الروم آية : ١٩ .
(٣) سورة آل عمران آية : ٢٧ .

المخاطبين ، كقولك عن شخص معهود لك ولمخاطبك « حضر » ، فأنت ومخاطبك تنتظر ان شخصا معهودا لكما ، فلاداعى لذكره لتعينه بالقرينة وفى الحذف ايجاز واحتراز عن العبث أيضا .

٨ — وقد يحذف الأديب المسند اليه محافظة على وزن ، أو سجع ، أو قافية .

مثال المحافظة على الوزن قول الشاعر :

على أَنَّنى راضٍ بِأَنْ أَحْمِلَ الهوَى
وأَخْلُصَ منه لا عَــلَىَّ ولالِيَا

والتقدير : لا على شىء ولا لى شىء فقد حذف الشاعر المسند اليه فيهما وهو لفظ « شىء » لأن فى ذكره إخلالا بوزن البيت ، وهذا من ميزات اللغة العربية حيث تساعد الشاعر والكاتب فى نتاجهما الأدبى .

ومثال حذف المسند إليه للمحافظة على السجع قولهم : « من كرم أصله وصل حبله » بالبناء للمفعول والتقدير : « وصل الناس حبله » فلو ذكر المسند إليه لكانت الفاصلة الأولى « أصله » مرفوعة وكانت الفاصلة الثانية « حبله » منصوبة ، وعند ذلك يختل السجع .

ومثال الحذف للمحافظة على القافية قول لبيد :

وما المالُ والأهلونَ إلا وَدَائِعُ
وَلا بُدَّ يومًا أَنْ تُرَدَّ الودائعُ

التقدير : أن يرد الله الودائع ، حذف فيه المسند إليه محافظة على الوزن والقافية ، لأن القافية « الودائع » لو لم يحذف المسند إليه لكانت منصوبة ، وقافية القصيدة مرفوعة .

٩ – تعجيل المسرة بالمسند ، كقولنا : « دينار » أى هـذا دينار ، لحـذف المسند إليـه ؛ لأن المتـكلم يريد أن يدخل السرور على قلب المتكلم .

١٠– وقد يحـذف الأديب الفاعل ويقيم مقامه المفعول به فيصير نائب فاعل وذلك للأغراض الآتية :

(أ) الخوف على الفاعل أى المسند إليه الحقيقى مثل « قتل فلان » أى قتل فلان فلانا .

(ب) أو الخوف منـه : مثل سرق المتاع ، والأصل سرق اللص المتـاع .

(ج) أو الجهل به نحو قتل اللص أى قتل فلان اللص .

(د) وقد يحـذف المسند إليه للعلم به مثل قوله تعالى : (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض(١)) والتقدير فإذا قضيتم الصلاة :

١١ – اتباع الاستعمال الوارد .

إذا تأملنا بعض الأساليب العربية سنجد أن المسند إليه جاء محذوفا فيها مثل « رمية من غير رام » أى هى رمية من غير رام .

و « قضية ولا أبا حسن لها » والتقدير : هذه قضية . .

وهـذه الأساليب من عيـون الأدب العربى وردت على هـذه الصورة ليحتذى بها الأدباء فى شعرهم والناثرين فى نثرهم :

١٢ — وقد يحقق حذف المسند إليـه بعض الأغراض الأخرى مثل قوله تعالى : « فلولا إذا بلغت الحلقوم »(٢) .

---

(١) سورة الجمعة آية ١٠ .

(٢) سورة الواقعة آية : ٨٣ .

لحذف المسند إليه « النفس » : وفى ذلك إشارة إلى أنها إذا وصلت الحلقوم فإنها تنذر صاحبها بترك الحياة الدنيا ، وأنه أصبح أثرا بعد عين .

وكذلك قوله تعالى : « فغلبوا هنالك ، وانقلبوا صاغرين »[1] .

وفى ذلك إشارة إلى أن الفاعل الحقيقى هو « الله » سبحانه وليس موسى وإلا كان أسند إليه .

ذكر المسند إليه

يذكر المسند إليه لأغراض بلاغية كثيرة منها .

١ — كون ذكر المسند إليه هو الأصل ، ولا مقتضى للعدول عنه ، والمخاطب يعلم أن ذكره ليس عبثا . بيان ذلك : حينما توجد قرينة فى الكلام تدل على المسند إليه تجد الأديب يذكره إذا وجدت مرجحات الذكر ؛ وتجده يحذفه إذا وجدت مرجحات الحذف فإذا لم توجد مرجحات للحذف كان الرجوع إلى الأصل من مرجحات الذكر وللأديب أن يذكر المسند إليه مع وجود القرينة ، لكن الاحتراز من العبث وهو من مرجحات الحذف موجود دائما مع القرينة الدالة على المسند إليه لكن لا تلزم مراعاته دائما ، فقد يكون الكلام مع مخاطب يعلم أن ذكر المسند إليه مع وجود القرينة الدالة عليه ليس عبثا .

مثال ذلك قولنا : حضر محمد جوابا لمن سأل أحضر محمد ؟ فجائز أن تقول فى الجواب : نعم « حضر » وتحذف المسند إليه « محمد » لكن لا توجد مرجحات للحذف ولذلك قلنا فى الجواب : حضر محمد . فرجعنا إلى الأصل وهو ذكر المسند إليه « محمد » .

---

(١) سورة الأعراف آية ١١٩ .

لأنه لا مقتضى للعدول عنه .

٢ — الاحتياط لضعف التعويل على القرينة مثل « أبو الطيب نعم الشاعر » وهذا عندما تعقد ندوة لتقويم شعر أبي الطيب فإن الحديث يتشعب ويتناول كثيرا من الشعراء القدماء والمحدثين ، وعلى الرغم من تحديد موضوع الندوة وهو « تقويم شعر أبي الطيب » إلا أننا نجد أنفسنا مضطرين إلى ذكر المسند إليه عندما نعلن الحكم فنقول مثلا « أبو الطيب نعم الشاعر » وذلك بسبب ماجرى خلال الندوة .

٣ — التنبيه على غباوة السامع ، وأنه لا يفهم إلا بالتصريح كما تقول لإنسان مسلم : « القرآن كلام الله » ، و « رسولنا محمد ﷺ يقول : كذا وكذا » .

وبقول البائع مثلا للمشترى : التفاحة بعشرين قرشا : والتفاحتان بأربعين قرشا .

فذكر المسند إليه فى هذه المثل (القرآن ، ومحمد ، وجملة : « التفاحتان بأربعين قرشا » كل هذا تعريض بغباوة السامع :

٤ — زيادة التقرير والإيضاح حتى يتمكن الحكم فى ذهن السامع مثال ذلك قوله تعالى : « الم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون »[١] .

هذه الآيات ذكرت القرآن الكريم ، وأنه هداية عظيمة للمتقين ،

---

(١) سورة البقرة الآيات : ١-٥ :

والمؤمنين الذين جمعوا بين التقوى والإيمان بالغيب، والإتيان بالفرائض، والإيمان بما أنزل على رسول الله ﷺ وعلى من قبله من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. والأساليب العالية لابد أن تعقب الموصوف الذى وصف بأوصاف عظيمة - باسم الإشارة كما فى الآيات الشريفة - « أولئك » ليعلو النظم ويسمو، وزيادة فى التقرير والإيضاح يكرر أو يذكر المسند إليه مرة أخرى فتقول الآية « وأولئك هم المفلحون ».

وتقول فى كلامنا : الطلاب الذين ذاكروا دروسهم ، وثابروا هؤلاء أفادوا وهؤلاء نجحوا . فكان من الممكن أن نقول : « هؤلاء أفادوا ونجحوا » : ولكن زيادة فى التقرير والايضاح ذكرنا المسند اليه « هؤلاء نجحوا » .

٥ - إظهار تعظيم المسند إليه أو إهانته كقولنا :

« القهار يصون عباده » فتذكر المسند إليه « القهار » ولفظ « القهار » بالذات لعظم هذا الاسم .

وتقول : « اللعين إبليس » فتذكر المسند إليه لإهانته لما يدل عليه هذا الاسم من الحقارة .

٦ - التبرك بذكر المسند إليه : كجوابك على من سألك هل الله يرضى هذا ؟ فتقول : نعم الله يرضاه :

وهل محمد ﷺ نبيكم ؟ فتقول : نعم محمد نبينا .

فتذكر المسند إليه فى المثالين (الله ، محمد ﷺ) ، وقد قامت القرينة عليهما كما هو واضح من السؤال ، وذلك للتبرك لأنها أسماء تمس حبات قلوب المؤمنين .

٦ — الاستلذاذ بذكر المسند إليه . وهذا كثير فى شعر الغزل والنسيب والمدح ومن المشهور فى ذلك قول الشاعر :

بِاللهِ يَاظبياتُ القاعِ قُلْنَا لَنَا ... لَيْلَاى مِنْكُنَّ أَمْ ليلى من البشرِ

فذكر المسند إليه وهو «ليلى» مرة ثانية للاستلذاذ بذكرها عند المحبين وكان يمكن حذفها .

٧ — بسط الكلام وإطالته بذكر المسند إليه حين يحسن الإطناب ، وذلك مثل قوله تعالى: «وما تلك بيمينك ياموسى ، قال : هى عصاى »(١) فقد ذكر موسى عليه السلام المسند إليه فى (هى عصاى) وكان يمكن فى غير النظم القرآنى أن يقول : (عصاى) فقط لقيام القرينة الدالة على المسند إليه وذلك لبسط الكلام وإطالته لتقرير حقيقة ثابتة عن النبيين ، وهى : أن الله اصطنعهم لنفسه ، وأيدهم برحمته فمهما كان جلال الموقف ، تراهم رابطى الجأش ثابتى القلب ، لا يذهب عنهم الكلام .

ومن أجل هذا زاد فى الجواب فقال : (أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ، ولى فيها مآرب أخرى)(٢) .

٨ — يذكر المسند إليه للتسجيل على السامع حتى لا يتأتى له الإنكار ومنه قول الفرزدق فى على بن الحسين رضى الله عنهما حين أنكر هشام ابن عبد الملك معرفته :

هذا الذى تعرِفُ البَطْحَاءُ وَطْأَتَهُ ... والبيتُ يعرفُهُ والحِلُّ والحرمُ
هذا ابنُ خيرِ عبادِ اللهِ كلِّهِم ... هَذَا التَّقِى النَّقِى الطَّاهِرُ العَلَمُ
هذا ابنُ فاطمةَ إِنْ كنتَ جاهِلَه ... بجَدِّهِ أنبياءُ اللهِ قد خُتِمُوا

---

(١) سورة طه آية : ١٧ ، ١٨ .
(٢) سورة طه الآية : ١٨ .

هذا ابنَ فاطمَة إنْ كُنتَ جاهلَه بجده أنبياء الله قــد ختموا

وليس قولُكَ هـــذا بضائره العربُ تَعْرِفُ مَنْ أنكرْتَ والعجَم

فذكر المسند إليه «هذا» ، وكان يمكن حذفه بعد البيت الأول. لوجود القرينة الدالة عليه — وذلك للتسجيل على السامع حتى لا يتأتى له الإنكار . فقد روى — كما أشرنا فيما سبق — : أن على بن الحسين طاف يوما بالبيت فالتف الناس حوله ، فرآه هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى ، فسأل عنه متجاهلا إياه . فأنشد الفرزدق هذه الأبيات للتسجيل على الخليفة ودفعاً لإنكاره وتجاهله .

٩ — وأحيانا يذكر المتكلم المسند إليه ، ويقصد من وراء ذلك الإرهاب والتخويف يقول مثلا : أمير المؤمنين يأمرك بكذا ، أو عميد الكلية قرر فصل كل من يحاول الغش . وقد يكون فى ذلك ما يدعو إلى الطاعة والامتثال .

١٠ — إظهار التعجب من المسند إليه ، إذا كان الخبر غريبا مثل «محمد يقاوم الأسود» ، و«محمد يحمل كذا طنا من الحديد» .

وغير ذلك من الأغراض التى تأتى من تصرف الأديب فى نظمه .

وهكذا ترى الأديب ، ينتقى ألفاظه ، ويكون له من وراء كل لفظ قصد وهدف .

ويأتى القارىء والناقد بعد الأديب، فيستحسان الألفاظ والإسنادات والتراكيب ، ويقرءون ما وراءها ، ذاك ليستبطن المعنى ويتأثر به ، وهذا ليحكم له أو عليه .

تعريف المسند إليه

من تصرفات الأديب التى تحدث فى « النظم » أنه يعمد إلى المسند إليه . فيأتى به معرّفا بأحد أنواع المعارف ؛ ليحقق بذلك أغراضا بلاغية تؤكد المعنى وتقويه .

وقد ذكر البلاغيون : أن المقام إذا اقتضى التعريف ، فأتى المتكلم بالمسند إليه معرّفا كانت الفائدة أتم .

بيان ذلك : أن الغرض من الإخبار - كما مر - إفادة المخاطب الحكم أو لازمه ولازم الحكم هو : أيضا حكم ، لان المتكلم كما يحكم فى الاول بوقوع النسبة بين الطرفين ، يحكم هنا بأنه عالم بوقوع النسبة .

ولاشك أن احتمال تحقق الحكم كلما كان بعيدا من الذهن كان الإعلام به أكبر فائدة ، وكلما كان أقرب كانت الفائدة أضعف .

وبُعده بحسب تخصيص المسند إليه والمسند . فكلما ازدادا تخصيصا ازداد الحكم بُعداً ، وكلما ازدادا عموما ازداد الحكم قربا . وإن شئت فاعتبر حال الحكم فى قولنا : « شىء ما موجود » يعنى أن الفائدة فيه ضعيفة ؛ لأن كل إنسان يعلم بوجود شىء ما ، فيكون الحكم قريبا ، ومن ثم تكون الفائدة ضعيفة بخلافها فى قولنا : « زيد حافظ للتوراة » فليس كل إنسان يعلم حصول حفظ معين من إنسان معين ، فيكون الحكم بعيداً ، ومن ثم تكون الفائدة أتم وأقوى . والمراد بتخصيص المسند إليه : كماله بالتعريف .

والنكرة وإن أمكن أن تخصص بالوصف بحيث لايشاركه فيه غيره كقولك : « أعبد إلها خلق السماء والأرض » و « لقيت رجلا سلم عليك

اليوم وحده قبل كل أحد ، لكنه لا يكون فى قوة تخصيص المعرفة لأنه وضعى بخلاف النكرة(١) .

وبحثنا الذى سيعرض عليك، سيدرس إيثار الأديب لنوع من أنواع المعارف دون غيره ، أو إيثار التعريف على التنكير .

والتعريف يكون بالإضمار أو بالعلمية أو بالموصولية أو بالإشارة ، أو بأل ، أو بالإضافة إلى أحد المعارف .

والأديب هو الذى يعرف متى يأتى بالمسند إليه معرّفا بأحد أنواع المعارف دون غيره، وفى الصفحات التالية عرض لبعض الأغراض البلاغية التى يحققها الأديب من تعريف المسند إليه .

تعريف المسند إليه بالإضمار

إذا اقتضى المقام إيراد المسند إليه معرّفا بالإضمار، فذلك يكون لأحد **أسباب :**

١ — أن يكون المقام مقام التعبير عن المتكلم من حيث أنه متكلم، وذلك مثل قولك : «أنا ضربت» والشاهد فى أنا والتاء ، والبلاغيون يجمعون بينهما إشارة إلى أنه لافرق بين أن يكون ضمير المتكلم منفصلا مثل « أنا » أو متصلا مثل « التاء » ، والمثال يدل دلالة واضحة وقوية على المسند إليه حيث عبر بضمير المتكلم المراد النص عليه .

---

(١) راجع المطول لسعد الدين التفتازانى صـ ٧٠ ، وراجع أيضا بغية الإيضاح جـ ١ صـ ٧٠ ، وعروس الأفراح للسبكى صـ ٢٨٧ جـ ١ ضمن شروح التلخيص .

وقد يحقق تعريف المسند إليه بضمير المتكلم أغراضا أخرى إضافة إلى تمام الفائدة ، وذلك يأتى فى مثل . قول النبى ﷺ : « أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب .

فواضح فيه الاعتداد بالنفس مع الفخر وتمام الفائدة . لإيراد المسند إليه إلى ذهن المخاطب بضمير المتكلم .

ومنه قول بشار بن برد :

أنا المرعث لا أخفى على أحد
ذرت بى الشمس للقاصى وللدانى

والمرعث : المقرط ، وكان بشار يلقب بالمرعث لرعثة كانت له فى صغره ، ذرت : طلعت ، وهو كناية عن شهرته ، والشاهد فى قوله : « أنا » حيث جاء المسند إليه معرّفا بضمير المتكلم ، وفيه فخر واعتداد بالنفس .

٢ — أن يكون المقام مقام التعبير عن المخاطب من حيث إنه مخاطب ومن المشهور فى ذلك قول أمامة الخثعمية تخاطب ابن الدمينة الشاعر :

وأنت الذى أخلفتنى ما وعدتنى
وأشمت بى من كان فيك يلوم

فالشاعرة تلوم نفسها على سماعها لوعود هذا الرجل ، وتتجسم مشكلتها فى داخل نفسها ، فتصوغها شعرا يقطر أسى ولوعة ، وتتخيل أو تتحقق أن هذا الرجل موجود أمامها وحاضر بمجلسها فتوجه إليه الخطاب .

وهذا يحدث كثيرا عند من يحب أو يكره ، تراه يتخيل أن مطلوبه جالس أمامه ، فيخاطبه خطاب الحاضر وفى ذلك إفراغ لنفس الأديب أو المتكلم وتهدئة لعواطفه الثائرة .

وأصل الخطاب أن يكون مع حاضر معين لكن المتكلم قد يترك

الخطاب مع معين إلى غير معين ليعم الخطاب كل مخاطب كقــولنا : « فلان لئيم إن أكرمته أهانك ، وإن أحسنت إليه أساء لك » ، فلا تريد مخاطبا بعينه بل تريد : إن أكرم أو أحسن إليه ، فعرض هذا الأسلوب فى صورة الخطاب أفاد العموم ، وأن سوء معاملته لا يختص بواحد دون آخر .

ومنه قوله تعالى : (ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم[1]) فهذا الخطاب لم يقصد به مخاطب معين هو فلان مثلا ، وإنما المراد أن حالهم تناهت فى الظهور بحيث لا يختص بها راء دون راء ، بل كل من أمكن منه الرؤية يتناوله الخطاب .

وفى الآية ما يشعر بأن حال المجرمين يوم القيامة واضحة لكل الناس لا تخفى على أحد .

ومن هذا الباب قول الشاعر :

إذا أنت أكرمْت الكريمَ ملكتَه
وإنْ أنت أكرمت اللئيمَ تمرّدا

فالخطاب فى البيت لا يختص به مخاطب معين بل هو ملك لكل الأجيال تعرض عليهم هذه الحكمة فى كل زمان ومكان .

وذلك بشرط أن يكون المخاطب به صالحا لأن يخاطب به كل أحد ، فإن لم يكن فلا ، كقوله تعالى : (كذلك يوحى إليك) فالخطاب خاص برسول الله ﷺ

---

(١) سورة السجدة آية : ١٢

٣ — أن يكون المقام مقام التعبير عن الغائب من حيث إنه غائب ، وذلك لتقدم ما يرجع إليه المسند إليه لفظا كقول الشاعر :

من البيض الوجوه بنى سنان
لو أنك تستضىء بهم أضاءوا

هم حلوا من الشرف المعلى
ومن حسب العشيرة حيث شاءوا

كانوا

فالشاهد فى البيت الثانى : حيث ورد المسند إليه ضمير الغائب ، وتحس فى هذا الضمير الامتلاء ، والفخامة ، والإيماء إلى علو درجة هؤلاء الممدوحين ،

وأحيانا يكون مرجع الضمير فى حكم الملفوظ به ، وذلك مثل قوله تعالى: « إعدلوا هو أقرب للتقوى »[1] :

والشاهد فى الآية الضمير « هو » فإنه يرجع إلى العدل المفهوم من (اعدلوا) فالعدل أقرب للتقوى التى أمرتم بها غير مرة ، أى : أقرب لأن تتقوا الله . أو لأن تتقوا النار :

وأحيانا يكون للمرجع قرينة تدل عليه ، وذلك مثل قوله تعالى : « حتى توارت بالحجاب »[2] فإن قرينة ذكر العشى والتوارى بالحجاب مع سياق الكلام الدال على فوات وقت الصلاة يدل على أن المعاد للشمس :

وإما أن يكون المرجع قد تقدم حكما بأن لا يدل عليه شىء مما ذكر لكن قدم لنكتة كضمير « رب » والشأن ، فإن التقدم فيهما لازم للضمير

---

(١) سورة المائدة آية ٨ :
(٢) سورة ص آية : ٣٢ .

لنكتة وهى البيان بعد الإبهام لكن حكم الضمير التأخر ، وذلك مثل قوله تعالى :(فإنها لاتعمى الأبصار(١) فلا يخفى عليك مافى ضمير الغائب من الإيحاءات البلاغية .

تعريف المسند إليه بالعلمية

المراد بالعلم هنا « علم الشخص » وقدم العلم على بقية المعارف ؛ لأنه أعرف منها .

وترى الأديب يأتى بالمسند إليه معرّفا بالعلمية وذلك لأن المقام مقام التعبير بالعلم ، وإيراد المسند إليه معرفا بالعلمية يحقق أغراضا بلاغية منها :

١ — إحضاره بعينه فى ذهن السامع ابتداء باسم مختص به ، وذلك مثل قوله تعالى : (قل هو الله أحد) على أن يكون لفظ الجلالة (الله) مبتدأ ثانيا ، والمعنى : أى الشأن الله أحد ، فهذا المقام مقام الرد على الملحدين وتوضيح التوحيد لهم ، والعلمية أنسب بهذا المقام دون سائر المعارف

ومن إيراد المسند إليه علما ، قول مالك بن عويمر من قصيدة فى رثاء أبيه :

أبو مالك قاصرٌ فقرَهُ على نفسِه وُمشِيعٌ غِنَاهُ

فهذا الفقيد الذى كان لايمد يده للناس فى ساعة فقره وكان يبذل عطاياه للناس أيام غناه - بالإضافة إلى أنه أبو الشاعر .

هذه العاطفة القوية التى أجج نارها عصامية هذا الرجل وكرمه وأبوته

---

(١) سورة الحج آية : ٤٦ .

للشاعر ، لايعبر عنها إلا « العلم » أى النص عليه باسمه المشخص المحدد . ليعلن للناس بأنه فرد فى محاسنه لايدانيه أحد من الناس، ولا يوجد مثله.

ومثله قول الشاعر :

الله يعلم ماتركت قتالهم
حتى علوا فرسى بأشقر مزبد

البيت للحارث بن هشام فى الاعتذار عن فراره عن أخيه أبى جهل يوم بدر ، والأشقر : لون يأخذ من الأحمر والأصفر . والمزبد : الذى له زبد.

يعتذر الشاعر بأنه لم يفر إلا بعد أن جرح ، فسال الدم على فرسه . وغرض البيت الاعتذار ، وهو يخرج من القلب فيحمل مشاعر الشاعر كلها، فيقدم المسند إليه على خبره الفعلى ، فهذا التصرف الذى أحدثه الشاعر أعطى الأسلوب كل الثقة وكل الفخامة والهيبة والوقار .

وفى القرآن الكريم عند الأمور الخاصة بالمولى جل وعلا يأتى لفظ الجلالة معرفا بالعلمية ومقدما على خبره الفعلى يقول تعالى : (الله يعلم ماتحمل كل أنثى)(١) . ويقول : (الله أعلم حيث يجعل رسالته(٢) ويقول (الله الذى رفع السموات)(٣) .

(١) — ويأتى الأديب بالمسند إليه معرّفا بالعلمية لقصد تعظيمه أو إهانته ؛ كما فى الكنى والألقاب المحمودة أو المذمومة ، مثل : أبو الخير جارك ، وأبو المعالى حضر ، فواضح أن المتكلم حينما يأتى بالمسند إليه

---

(١) سورة الرعد آية ٨ .
(٢) سورة الأنعام آية ١٢٤ .
(٣) سورة الرعد آية ٢ .

معرفا فإنما يقصد إفادة غرض ؛ كتعظيم المسند إليه فى المثالين السابقين .

وإذا أراد إهانة المسند إليه قال: أبو الجهل صديقك وأنف الناقة ذهب

٣ — التبرك بالمسند إليه مثل الله ربنا : ومحمد نبينا .

٤ — الاستلذاذ بالمسند إليه ، وهذا كثير فى شعر الغزل والنسيب والمدح، ترى الشاعر يذكر المسند إلية باسمه العلم، ويكرر ليفرغ ما فى نفسه من الوجد والصبابة ، والمشهور فى ذلك قول قيس بن الملوح :

بالله ياظبياتِ القاعِ قُلْنَ لنا
لَيْلَاىَ مِنْكُنَّ أَمْ لَيْلَى من البَشَرِ

٥ — ويأتى المسند إليه معرّفا بالعلمية لقصد التفاؤل أو التطير مثل : «سعد فى دارك» لاشك أن كلمة سعد توحى بالبشر والإيناس وتدخل التفاؤل والاطمئنان على قلب من يسمعها .

أما إذا قال القائل : السفاح فى دارك ـ فمن غير شك تنقبض النفس وتتقزز وتتشاءم وتتطير .

تعريف المسند إليه بالموصولية

يأتى المسند إليه معرّفا بالموصولية ، ليحقق أغراضا بلاغية منها :

١ — أن يكون المخاطب لايعلم من أحوال المسند إليه غير الصلة كقولك : الرجل الذى كان معنا أمس رجل صالح ، فجاء المسند إليه معرفا باسم الموصول « الذى » استطعنا بواسطة صلته أن نعرف من هذا الرجل ؟

٢ — من المعلوم أن أهل اللغة الأصليين كان يستهجنون التصريح بكل ماهو قبيح ، ولذلك كثرت عندهم الكنايات والتلميحات والرموز

وترى اسم الموصول ، يؤدى دورا هاما فى هذا المجال ، فيعبر به المتكلم العربى عن كل مايستقزز فيقول مثلا : « الذى يخرج من السبيلين ناقض للوضوء » فيطوى ذكره صراحة ، لقذارته تنزيها للسان المتكلم ، وحماية لسمع المخاطب .

٣ — زيادة التقرير . يحتمل ثلاثة أوجه . تقرير الغرض المسوق له الكلام ، وليس مسندا ولا مسندا إليه ، وتقرير المسند ، وتقرير المسند إليه وقوله تعالى : (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه)(١) يحتمل الكل ، فالغرض المسوق له الكلام نزاهة يوسف عليه السلام — وبعده عن تهمة الفحشاء وماذكر فى صلة الموصول (التى هو فى بيتها) التى هو فى بيتها أشد تحقيقا وتقريرا لتلك النزاهة مما لو قيل : (وراودته امرأة العزيز ، لأن امتناع يوسف عليه السلام عن الفحشاء ، وهو فى بيتها ، ومتمكنا ، وآمنا معها ، يدل دلالة واضحة على نزاهة يوسف عليه السلام — . ونهاية فى الطهارة باطنا وظاهرا .

وفى الآية أيضاً تقرير المراودة التى هى المسند ، لما يفيده وجوده فى

---

(١) سورة يوسف آيه ٢٣

بينها ، وانفراده بها فى البيت ؛ مما يدعو إلى التمكن منها على أتم وجه وهذا أيضاً جاء من الموصول وصلته (التى هو فى بيتها)[1]

وفى الآية أيضاً تقرير المسند إليه الذى هو (التى) ونفى احتمال أن يكون غيرها أو مشابها لها اللذين يمكن احتمالهما لو قلنا : « وراودته امرأة العزيز أو زليخا » .

٤ — يؤتى بالمسند إليه معرّفا باسم الموصول قصد التفخيم والتهويل وذلك مثل قوله تعالى : (فغشيهم من اليم ماغشيهم)[2] ففى اسم الموصول إبهام ، وفيه من التفخيم والتهويل مالا يخفى . وتفصيل ما فى (الموصول وصلته) من قوة ، تعجز عنه ريشة الفنان .

ويأتى المفعول به معرفا بالموصولية ليحقق أغراضاً بلاغية .

اقرأ قول الشاعر دريد بن الصمة :

صَبا ما صَبا حتى عَلَا الشيبُ رأسَه
فلما عَلَاه قال للباطلِ ابعدِ

فأنت تحس ما فى اسم الموصول وصلته (ما صبا) من التهويل والتفخيم ما يملأ عليك حواسك .

ويقول أبو نواس :

ولقد نَهزْتُ مع الغواةِ بدلوهم
وأسمتُ سرح اللحظِ حيث أساموا
وبلغتُ ما بلغ امرؤ بشبابه
فإذا عصارةُ كلِّ ذاك أثامُ

---

(١) راجع مواهب الفتاح للمغربى ص ٣٠٥
(٢) سورة طه آية : ٧٨

تهز بالدلو فى البئر : إذا ضرب بها فى الماء لتمتلىء ، ويقال « أسام الماشية » إذا أخرجها إلى المرعى . السرح فى الأصل : ذهاب الماشية إلى المرعى ، والعصارة : المراد بها هنا الثمرة أو النتيجة . والشاهد فى قوله : « ما بلغ امرؤ بشبابه » لأنه مفعول به(١) . وقد أورده الشاعر معرّفا بالموصولية ، ولا يخفى عليك دور الموصول فى تفخيم المعنى المراد .

٥ — ويأتى الأديب بالمسند إليه معرّفا بالموصولية لينبه المخاطب على خطئه وذلك كقول عَبدَةَ بن الطبيب :

إن الذينَ تَرَوْنَهم إِخْوانَكم
يَشْفِى غَلِيلَ صُدُورِهِم أَنْ تُصْرَعُوا

والغليل : العطش الشديد أو الحقد ، والشاهد فى أن الموصول فى البيت أفاد من تخطئتهم فى ظنهم ما لا يفيده : إن قوم فلان يشفى .

ومنه قوله تعالى : (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم)(٢) فجاء المسند إليه معرّفا بالموصولية (الذين تدعون من دون الله) وفى ذلك تنبيه على خطأ المخاطبين فى دعوتهم غير الله .

٦ — أن يقصد الإيماء إلى وجه بناء الخبر ، ومعناه أن يكون فى صلة الموصول ما يدل على الخبر ، بحيث لو تأمل السامع « الموصول وصلته » فى أول الكلام عرف الخبر . وتلك ميزة فذّة من مميزات اللغة حيث تلزم القارىء بالتأمل وتشحذ فكره وتجعله يتابع الكلام من أوله إلى آخره .

والدستور فى ذلك قوله تعالى : (إن الذين يستكبرون عن عبادتى

---

(١) راجع بغية الإيضاح ج ١ ص ٧٦
(٢) سورة الأعراف آية : ١٩٤

سيدخلون جهنم داخرين)[١] فإن الاستكبار الذى دلت عليه الصلة (يستكبرون عن عبادتى) أوحى بأن الخبر هو جملة : (سيدخلون جهنم داخرين) أى ذليلين .

ومنه قوله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم)[٢] وعند تلاوة الموصول وصلته (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) نفهم أن نوع الخبر هو : ثواب من عند الله لهؤلاء المؤمنين العاملين للصالحات فإذا انتهى الكلام كانت نهايته تحقيقا لما فهم من الموصول وصلته ، وذلك واضح فى قوله جل وعلا : (لهم جنات النعيم) .

٧ — وربما جعل الإيماء إلى وجه بناء الخبر ذريعة ووسيلة إلى التعريض بالتعظيم لشأن الخبر كقول الفرزدق :

إنّ الذى سَمَكَ السماءَ بَنَى لنا بيتًا دعائمُهُ أعزُّ وأطولُ

يفتخر الشاعر بأنه من بيت شرف وعز ومجد ـ وسمك : بمعنى رفع وتعريف المسند إليه بالموصولية (الذى سمك السماء) هذه الصلة لم تكشف عن الخبر فحسب ، بل أشعرتنا بأن الخبر عظيما ، ولذلك جاء قوله : (أعز وأطول) تحقيقا لما أحسسناه من وحى الصلة .

٨ — وربما جعل الايماء إلى نوع الخبر ذريعة إلى تعظيم شأن غير الخبر ومن ذلك قوله تعالى : (الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين)[٣] فالموصول وصلته (الذين كذبوا شعيبا) يدل على الخبر ، وهو الخسران للمكذبين . وأيضا فيه تعظيم لسيدنا شعيب عليه السلام ـ وهو ليس خبرا) وذلك لأن خسرانهم وقع بسبب تكذيبهم له .

---

(١) سورة غافر آية ٦٠ (٢) سورة لقمان آية ٨
(١) سورة الأعراف آية ٩٢

٩ — وربما جعل الإيماء إلى نوع الخبر ذريعة إلى الإهانة لشأنه كقولك: « إن الذى لا يحسن النحو ألف فيه » ، أو شأن غيره ، كقولك : « إن الذى يتبع الشيطان خاسر » فالصلة تفيد أن الخبر من نوع الخسران ، والخسران ذريعة إلى تحقير الشيطان ـ وهو ليس خبرا .

١٠ — وقد يجعل الإيماء إلى نوع الخبر ذريعة إلى تحقيق الخبر وتثبيته ، كقول عَبدَةَ بن الطبيب :

إن التى ضربتْ بيتًا مُهاجِرَةً بكوفة الجندِ غالتْ وُدَّها غُولُ

فى صلة الموصول ما يحقق الخبر ويثبته . فالتى تترك حبيبها وتهاجر وتقيم بكوفة الجند بعيدا عنه ، لا شك أنها قررت الهجر ، وانقطـــاع المحبة وزوالها .

وضرب البيت شد حباله بالأوتاد ، وهو كناية عن الإقامة ، وغالت أهلكت كأكلت ، والغول : المهلك .

١١ — وقد يؤتى بالمسند إليه معرفا بالموصولية ، لتشويق السامع إلى الخبر ليتمكن فى ذهنه ، وذلك إذا كانت الصلة تتضمن أمرا غريبا . كقول أبى العلاء المعرى :

والذى حارتِ البريةُ فيـــه حيوانٌ مستحدثٌ من جمادِ

فعندما نقرأ صلة الموصول (حارت البرية فيه) ، نجدها أمرا غريبا يشوّق المتلقى إلى معرفة من أوقع الناس فى هذه الحيرة ، فإذا وصل إلى الخبر ، وعرف أنه « الحيوان » أى : الانسان الذى خلق من طين ، تمكن الخبر فى نفسه ؛ لمجيئه بعد تهيئة وتمهيد وتشويق .

تعريف المسند إليه بإسم الإشارة

وترى الأديب يتأنق فى عبارته، فيأتى بالمسند إليه معرفا باسم الإشارة، بما فيه من قوة وتحديد وتعيين ، وإفراغ للنفس مما تحس به . وإليك بعض الأغراض :

١ — تميز المسند إليه أكمل تميز بإحضاره فى ذهن السامع بوساطة اسم الإشارة ، ونحن نعرف أن المشار إليه يجب أن يكون محسوسا، وذلك مثل قول ابن الرومى فى مدح أبى الصقر الشيبانى :

هذا أبو الصقر فردا فى محاسنه
من نسل شيبان بين الضال والسلم

الضال : شجر السدر البرى . والسلم : شجر ذو شوك .

وقوله : « بين الضال والسلم » كناية عن عزهم ، لأن هذه الأشجار بالبادية . وهى مجد العرب وعزهم .

وترى الشاعر قد أتى بالمسند إليه معرّفا باسم الإشارة : فصلت الأضواء عليه من كل جانب ، وكأنه يتحدى أن يكون له ضريب أو نظير .

ومثله قول الشاعر :

أولئك قومٌ إنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا البُنَا
وإن عاهدوا أَوْفَوْا وإنْ عَقَدُوا شَدُّوا

والبنا بضم الباء : لبناء الشرف ، وبكسرها لبناء العمران . وعقدوا : أبرموا أمرا من أمورهم .

فالشاعر : أتى بالمسند إليه معرّفا باسم الإشارة ليحدد الممدوحين ويميزهم أكمل تمييز .

ومنه أيضا قول الشاعر :

وإذا تأمل شخصَ ضيفٍ مقبلٍ   متسربلٍ سربالَ ليلٍ أغْبَرِ
أوما إلى الكوماءِ هذا طارقٌ   نَحَرَتْنِي الأعداءُ إن لم تُنْحَرِي

أو ما : تخفيف أو ما بمعنى أشار ، والكوماء : الناقة الضخمة .

والبيتان فى المدح ، وتحس أن تعريف المسند إليه باسم الاشارة فى قوله : (هذا طارق) لإفراغ لما فى الشاعر من عاطفة متأججة تجاه صفة الكرم ، وإن كان بعض النقاد يقولون : إن قوله : (تأمل) فيه نقص أدبى والصواب أن يقول : (تخيل أو توهم[1]) وبيان ذلك : أن المدح يقتضى المبالغة وكلما كان الشاعر مبالغا فى وصف ممدوحه بصفة من الصفات كان أنجح - ولفظ (تأمل) تفيد أن الممدوح لا يذبح إلا بعد التحقيق من وجود الضيف، ومن هنا يأتى الشك فى كمال صفة الكرم فيه، أما إذا قال: (توهم) فيفهم منها أن صفة الكرم قد كملت فيه ، لدرجة أنه إذا تخيل، أو توهم شخص ضيف ، ذهب إلى ماله ، وذبح أنفسه قياما بحق صفة الكرم .

وانشد قول المتلمس :

ولا يُقيمُ عَلَى ضَيْمٍ يُرادُ به   إلا الأذلاّنِ عَيْرُ الحىِ والوتدِ
هذا علَى الخسفِ مربوطٌ برمتِهِ   وَذا يُشَجُّ فلا يَرْثِى له أحدُ

فالمسند إليه (هذا ، وذا) تحس منهما التعيين والتحديد وكأنك ترى المشار إليهما أمامك الآن .

٢ — يؤتى بالمسند إليه معرفا باسم الاشارة للقصد بأن السامع غبى

---

(١) عروس الأفراح ص ٣١٤ ج ١

لا يتميز الشيء عنده إلا بالحس . كقول الفرزدق :

أولئكَ آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جَمَعَتْنا يا جَرِيرُ المجامعُ

البيت في هجاء جرير . وآباء الفرزدق غائبون لموتهم . ولكن الشاعر يقدر وجودهم ، ويبالغ في ذلك بالإشارة إليهم ، وجرير يعلم آباء الفرزدق ويحفظهم فردا فردا ، فتعريف المسند إليه باسم الإشارة (أولئك آبائي) تعريض بغباوة جرير ، وكأنه لا يعلم آباء الفرزدق إلا إذا رآهم رأى العين ، والأمر في : « فجئني بمثلهم » للتعجيز .

٣ — ويأتي المسند إليه معرفا باسم الإشارة لبيان حاله في القرب والبعد أو التوسط وذلك مثل قولك : « هذا زيد » في بيان حال القريب ، وفي بيان حال البعد : ذلك زيد . وفي بيان حال التوسط : « ذاك زيد » .

٤ — أن يقصد تحقيره بالقرب . تأمل قول الله تعالى : (وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا ، أهذا الذي يذكر آلهتكم[١]) وقوله : (أهذا الذي بعث الله رسولا[٢]) وقوله تعالى : (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب[٣]) — تجد أن المسند إليه جاء معرفا باسم الإشارة في الآيات .

وتحس منه في الآية الأولى ما كان يضمره الكفرة لرسول الله وكذلك الآية الثانية . وفي الآية الثالثة تحقير للدنيا على الرغم من طول أبعادها ولكنها لحقارتها ونهايتها المحتومة تجدها في نظر من يعرف حقيقة الموت — حقيرة قصيرة لا قيمة لها .

ويأتي المجرور معرفا باسم الإشارة للدلالة على التحقير أيضا وذلك مثل قوله تعالى : (ماذا أراد الله بهذا مثلا) .

---

(١) سورة الأنبياء آية ٣٦ (٢) سورة الفرقان ٤١
(٣) سورة العنكبوت آية ٦٤

٥ — القصد إلى تعظيم المسند إليه بالتعبير عنه باسم الإشارة الموضوع للبعيد ، وذلك مثل قوله تعالى: (آلم ذلك الكتاب) فذلك للبعيد وهو إشارة إلى القرآن الكريم — والقرآن بين أيدينا ، وقريب منا ، ولكن الآية تتحدث عن منزلة القرآن الكريم ، وأنه فى نهاية الكمال وقد فاق جميع الكتب المنزلة ، فأوجزت هذه المعانى كلها وعبرت عنها باسم الإشارة الموضوع للبعيد إيماء إلى بعد منزلة القرآن الكريم .

ومنه قوله تعالى : (فذلكن الذى لمتننى فيه(١)) لم تقل هذا وهو حاضر رفعا لمنزلته فى الحسن ، وتمهيدا للعذر فى الافتتان(٢) به » .

٦ — القصد إلى تعظيم المسند إليه بالتعبير عنه باسم الإشارة الموضوع للقريب ، تأمل قوله تعالى : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) تجد اسم الإشارة يعبر عما نكنه نحو كتاب ربنا من قربه لنفوسنا وتدبرنا لآياته وعطفنا بوحيه وتوجيهاته .

٧ — القصد إلى تحقير المسند إليه بالتعبير عنه باسم الأشارة الموضوع للبعيد : وذلك مثل قولك: ذلك اللعين وشى بى عند فلان ، فتشير إليه باسم الإشارة الموضوع للبعيد ، لتحرمه من القرب منك ، وفى ذلك تحقير له .

٨ — القصد إلى التنبيه بأن المشار إليه المعقب بأوصاف جدير من أجل تلك الأوصاف بما يذكر بعد اسم الإشار ، وذلك مثل قول حاتم الطائى .

وللهِ صُعْلُوكٌ يُسَاوِرُ هَمَّهُ
وَيمضِى على الأحداثِ والدهرُ مقدمَا(٣)

---

(١) سورة يوسف آية ٣٢ (٢) بغية الايضاح ج ١ ص ٨٠

(٣) الصعلوك : الفقير ، يساور : يواثب

فتى طلبات لا يرى الخمص ترحة ولا شبعة إن نالها عد مغنما(١)

إذا ما رأى يوما مكارم أعرضت تيمم كبراهن ثمت صمما(٢)

يرى رمحه ونبله ومجنه
وذا شطب عضب الضريبة مخذما(٣)

وأحناء سرج قاتر ولجامه
عتاد أخى هيجا ، وطرفا مسوما(٤)

فذلك إن يهلك فحسنى ثناؤه
وإن عاش لم يقعد ضعيفا مذمما(٥)

فترى الشاعر قد ذكر خصالا فاضلة من المضاء إلى الأحداث مقدما ، والصبر على ألم الجوع ، والأنفة من أن يعد الشبعة مغنما ، وتيمم كبرى المكرمات ، والتأهب للحرب بأدواتها . ثم عقب ذلك بقوله : «فذلك» فأفاد أنه جدير بالعيشة الكريمة إن بقى على قيد الحياة ، وإن مات — فسيكون له ذكرى طيبة وثناء حسن .

---

(١) الخمص : الجوع .

(٢) أعرضت : بمعنى ظهرت ، وتيمم بمعنى : قصد .

(٣) المجن : الترس، وشطب السيف: الخطوط فى متنه . وضريبته: حده. والعضب : القاطع. والمخذم: القاطع بسرعة .

(٤) أحناء السرج : جمع حنو : وهو اسم لكل من قربوسه المقدم والمؤخر . القاتر: الجيد الوقوع على الظهر ، وهيجا : مقصور هيجاء وهو الحرب ، والطرف : الجواد الكريم الأصل ، والمسوم: الذى يرسل ليرعى أو للإغارة .

(٥) الحسنى : اسم للإحسان .

تعريف المسند إليه « بأل » أو « باللام »

من التصرفات الدقيقة التي يحدثها الأديب في «النظم» — أن تأتي عبارته، وقد عرف فيها المسند إليه بأل، وتعريف المسند إليه « بأل » فيه من الدقة والتلميح والإشارة والجلال، ما يدعو إلى دراسة « أل » والوقوف على أسرارها.

فمن خصائصها أنها تشير إلى شيء — في الأسلوب — ذكر قبلها على أي صورة كان، فترتبط الأسلوب بعضه ببعض فتجعله حياً، وتوقظ ذهن القارىء، وتحركه، وتشحذه، وتقوى همته.

وتراها أداة مفضلة للموازنة بين جنس وجنس، إذا أنت عجزت عن الموازنة التفصيلية بين فرد وفرد لاستحالة الاستقراء أو خوف الوقوع في محظور مثلا، كما تجعل أسلوب الكاتب يعتمد على ذكاء القارىء ومعلوماته الحية بنفسه، وبغيره وبشئون الحياة، وهنا يتجلى أثر الأدب الحي الصادق في الفرد والمجتمع، وفي الصفحات التالية وضع لك البلاغيون نبراسا تسير على هديه — عند قراءة الأدب ودراسته وفهمه ونقده — نعرضه لك في إيجاز مفيد.

ذكر البلاغيون : أن المتكلم يأتي بالمسند إليه معرفا بأل لغرضين :

الغرض الأول — أن يكون تعريف المسند إليه بأل للإشارة إلى شيء من أفراد الحقيقة واحدا كان أو أكثر — معهود بين المتكلم والمخاطب، وتسمى :

لام العهد الخارجي، وتأتي على ثلاثة أنواع :

١ — لام العهد الخارجي الصريحي : وهي التي يتقدم لدخولها ذكر صريح في الكلام.

تأمل قول الله تعالى : (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري)(١) فكل من لفظي (المصباح ، الزجاجة) مسند إليه وقد جاء كل منهما معرفا « بأل » للإشارة بها إلى معهود خارجا عهدا صريحاً لتقدم ذكره صراحة في قوله : « فيها مصباح » ، وفي قوله : « في زجاجة » .

وتقول : « أديت خدمة لمجتمعي فأثمرت الخدمة وأينعت » . فلفظ « الخدمة » مسند إليه ، وقد عرف « بأل » للإشارة بها إلى معهود خارجا عهداً صريحاً لتقدم ذكره صراحة في قوله : « قدمت لمجتمعي خدمة » .

(ب) لام العهد الخارجي الكنائي : وهي التي يتقدم لمدخولها ذكر كنائي ، كما في قوله تعالى : (رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم ، فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى)(٢) فلفظ « الذكر » مسند إليه ، وقد عرف « بأل » للإشارة بها إلى معهود خارجا عهداً كنائيا لتقدم ذكره كناية في قوله تعالى : حكاية عن أم مريم (رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني) . فإن لفظ (ما) مبهم ، يعم — بحسب وضعه — الذكور والأناث ، لكن التحرير : وهو أن يعتق الولد ليكون وقفاً على خدمة بيت المقدس ، كان خاصا بالذكور ، فلفظ « ما » حينئذ كناية عن « الذكر » : باعتبار اختصاص التحرير بالذكور دون الإناث ، لأنهن عورة لا يناسبهن الانكشاف الحاصل بالخدمة . « وليس المراد بالكناية هنا « الكناية المعلومة » بل المراد استعمال المبهم في معين بقرينة فأشبه الكناية »(٣) .

---

(١) سورة النور آية : ٣٥ (٢) سورة آل عمران آية : ٣٦ ، ٣٧

(٣) مواهب الفتاح حـ ١ ص ٣٢٢

(ج) لام العهد الخارجي العلمي : وهي التي لا يتقدم لمدخولها ذكر مطلقاً — لا صريحاً ولا كناية — ولكن للمخاطب علم به :

إما بحضور المشار إليه بذاته كقولك لداخل البيت : « أغلق الباب » ولمن يجلس معك : « اليوم ربيع » فكل من لفظي « الباب » و « اليوم » مسند إليه ، وقد جاء معرفاً « بأل » للإشارة إلى معلوم للمخاطب بطريق الحضور ولذلك تسمى « اللام » هنا لام العهد الحضوري .

وإما بعلم المخاطب له فقط : نحو قولنا : « خرج الأمير » إذا لم يكن في البلد إلا أمير واحد ، والمخاطب يعلم ذلك وتسمى لام العهد الخارجي العلمي فقط . ولا يخفى عليك ما في هذه الأمثلة من الإيجاز والايحاء والفكر وترابط المعنى بين المتلقي والمتكلم .

الغرض الثاني : أن يكون تعريف المسند إليه « بأل » للإشارة بها إلى نفس الحقيقة ، وتسمى :

١ — لام الحقيقة أو لام الجنس : وهي التي يكون مدخولها مراداً به الحقيقة نفسها ، دون ما ينطوي تحتها من أفراد ، كقولهم : « الرجل خير من المرأة » أي أن حقيقة الرجل خير من حقيقة المرأة . فأنت تحس بدور التعريف « بأل » في الموازنة والمفاضلة ، وأنها أغنت عن الاستقراء والتفصيل إذ لا يستطيع المتكلم أن يعد أفراد الجنس فرداً فرداً ، ويستقري مميزاتهم ثم يحكم على كل فرد من الجنسين فرداً فرداً . وهذا لا ينافي أن بعض أفراد حقيقة المرأة - مثلا - خير من بعض أفراد حقيقة الرجل ، وفي هذا إيجاز وإيحاء ظاهر .

وتقول : « الحرير أفضل من القطن » أي حقيقة الحرير أفضل من حقيقة القطن .

ومنه قول أبي العلاء المعري :

والخِلُّ

والخِلُّ كالماء يبدى لى ضمائره مع الصفاء ، ويخفيها مع الكدر

والخل : الصديق . وضمائره : ما يضمره من المودة وغيرها . وليس المراد هنا خل معهود معلوم ولكن المراد : جنس الخل .

والمعنى : أن الصديق يبدى لك ما يضمره إذا صفا لك ، أما إذا جفاك فإنك لا ترى منه شيئاً ، فهو كالماء تستشف ما تحته عند صفائه ، ولا ترى ما تحته عند كدره ، فالحكم بالتشبيه على حقيقتى الماء والخل ، لا على خل بعينه ، أو ماء بعينه .

٢ - لام العهد الذهنى : وهى أن يأتى المعرف بلام الحقيقة أو الجنس مراداً به فرد مبهم من أفراد الحقيقة باعتبار عهديته فى الذهن لاشتمال الحقيقة عليه لقرينة دالة على ذلك : كقولك : « ادخل السوق » وليس بينك وبين مخاطبك سوق معهود فى الخارج . وعليه قول الشاعر :

ولقد أمر على اللئيم يسبنى فمضيت ثمت قلت لا يعنينى

فالشاعر يصف نفسه بأنه كريم النفس واسع الصدر ، لا تغمز قناته سفاهة الجاهل ولا لؤم اللئيم . والشاهد فى لفظ « اللئيم » فليس المراد به : حقيقته لاستحالة المرور على مالا وجود له خارج الأعيان ، وليس المراد به فرداً معيناً منه ، إذ لا عهد له به ، فتعين أن يكون المراد فرداً غير معين من أفراد الحقيقة .

وتقول الآية الكريمة : (وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون[1]) فلفظ « الذئب » مسند إليه وهو معرف « بأل » والمراد به فرداً ما من أفراد حقيقة الذئاب .

٣ - لام الاستغراق وهى : المراد بدخولها جميع الأفراد المندرجة

---

(١) سورة يوسف آية : ١٣

تحت الحقيقة، وعند قيام القرينة الدالة على ذلك ، وسميت لام الاستغراق لاستيعابها جميع الأفراد .

وهى نوعان : لام الاستغراق الحقيقى ، ولام الاستغراق العرفى .

(أ) لام الاستغراق الحقيقى : وهى التى يكون مدخولها مرادا به كل فرد مما يتناوله اللفظ وضعا . وذلك مثل قوله تعالى : (إن الإنسان لفى خسر(١)) فإن لفظ «الإنسان» وهو مسند إليه جاء معرفا «بأل» والمراد به جميع الأفراد التى يتناولها بحسب الوضع، ولذلك جاء الاستثناء بعد فى قوله : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) ، إذ أن الاستثناء يقتضى العموم لدخول المستثنى فى المستثنى منه .

وتقول : «الغيب يعلمه الله» ، وتريد جميع الأفراد التى يتناولها لفظ «الغيب» بحسب الوضع .

أى كل أفراد الغيب لا تخفى على الله ، والقرينة الدالة على ذلك: استحالة أن يقتصر علمه تعالى على بعض الغيوب دون بعض .

(ب) لام الاستغراق العرفى : وهى التى يكون مدخولها مرادا به كل فرد مما يتناوله اللفظ عرفا وذلك مثل قول القائل : «امتثل الطلاب أمر العميد» ، فإن المراد جميع الأفراد التى يتناولها لفظ «الطلاب» بحسب العرف ، أى طلاب كلية العميد لا طلاب الكليات بأسرها إذ ليس فى طاقة العميد أن يمد سلطانه على طلاب الكليات الأخرى عادة .

---

(١) سورة العصر : آية : ٢

تعريف المسند إليه بالإضافة

وترى المتكلم يورد المسند إليه، وقد عرفه بالإضافة وذلك ليحقق أغراضا بلاغية منها :

١ — أن تكون الإضافة أخصر طريق إلى إحضاره في ذهن السامع وذلك أن تقول : « كتابي مفيد » ، « وسيارتي سريعة » فلا شك أن لفظ « سيارتي » أخصر من قول القائل : السيارة التي أملكها . وفي الإضافة اعتزاز بما تملك حيث أضفته إلى نفسك دون حرج .

ومن المشهور في ذلك قول جعفر بن علبة الحارثي :

هَوايَ مَعَ الرَّكْبِ اليَمانِينَ مُصْعِدُ ... جَنِيبٌ وَجُثْمانِي بِمَكَّةَ مُوثَقُ

فالشاعر كان مسجونا بمكة في جناية ، فزارته محبوبته مع ركب من قومها . فلما رحلت قال فيها : هذا البيت ، « هواي » : أي الذي أحبه ، والمصعد : الذي أبعد في السير . جنيب : المستتبع من « جنب البعير » إذا قاده إلى جنبه .

والشاهد لفظ « هواي » فقد عرفه بالإضافة لأنه أخصر طريق لإحضاره إلى ذهن السامع ، والاختصار يدل على نفسية الشاعر حيث يضيق بالسجن من ناحية ، ويشتد وجده وأساه على فراق حبيبته من ناحية أخرى ، والإيجاز شاهده في ذلك ، وفيه المحافظة على وزن الشعر أيضا .

٢ — أن يكون تعريف المسند إليه بالإضافة متضمنا تعظيم شأن المضاف إليه ، أو المضاف أو غيرهما :

فالمضاف مثل : « خادم الخليفة قادم فأكرمه » فلفظ « خادم » مسند إليه ، وقد عرف بالإضافة ، ولا يخفى عليك ما أفادته الإضافة زيادة على التعريف — فقد عظمت شأن المضاف أي الخادم .

والمضاف إليه ، مثل : خادمى فعل كذا وكذا — فأنت تحس أن هذا المتكلم يريد أن يعظم شأن نفسه ، وأنه يتخذ لنفسه خادما .

وأما غير المضاف إليه والمضاف . فمثل قولك : « خادم السلطان زار فلانا » فأنت بلاشك ، تريد تعظيم هذا الشخص بأن خادم السلطان يزوره ، وبجوار التعظيم نحس بالإيجاز .

٣ — أن يكون تعريف المسند إليه بالإضافة متضمنا تحقير شأن المضاف والمضاف إليه أو غيرهما :

فالمضاف كقولك : « خادم الحجام حضر » ، والمضاف إليه ، مثل : ضارب زيد حضر .

وأما غيرهما : ولد اللص جليس زيد ، فى هذه المثـــل بجانب الإيجاز — تحقير لزيد .

٤ — أن يكون تعريف المسند إليه بالإضافة يغنى عن تفصيل متعسر أو متعذر أو مرجوح لجهة .

فالمتعسر مثل : « أهل الكتابة كرام » فإنه يتعسر على الإنسان أن يذكرهم فردا فردا ومنه قول الشاعر .

بَنُو مطرٍ يومَ اللِّقَــاء كأنَّهمْ أُسُودٌ لها فى غَيْلِ خَفَّانَ أَشْبُلُ(١)

والمتعذر مثل قادة الجيوش حضروا ، فإنه يتعذر على المذيع

---

(١) البيت لمروان بن أبى حفصة فى مدح معن بن زائدة ، وبنو مطر قومه ، بطن من شيبان ، والغيل : الشجر المجتمع ، وخفان : مأسدة قرب الكوفة . والأشبل : أولاد الأسود ، والشاهد فى قوله « بنو مطر » لإغناء الإضافة فيه عن تفصيل متعسر .

— مثلا — أن يفصل خوفا من الإحراج فى تقديم البعض على البعض بدون مقتض لذلك .

والمرجوح لجهة مثل قول الحارث بن وعلة الجرمى :

قومِى هُمُ قَتَلُوا أُمَيمَ أَخِى فإذا رَمَيتُ يُصِيبُنِى سَهْمِى

« فأميم » منادى مرخم ، وكانت تحضه على الأخذ بثأر أخيه ممن قتله من قومه — والشاهد فى قوله : (قومى) لاغناء الإضافة عن تفصيل تركه أرجح لجهة ، هى . خوف تنفيرهم منه وإثارة الفتن بين قومه ، ولايخفى عليك مافى الإضافة من تحسر يكتمه الشاعر فى حشاياه وتأنيب وتبكيت لقومه حيث امتدت أيديهم على قتل واحد منهم .

٥ — أن يكون تعريف المسند إليه بالإضافة يتضمن اعتباراً لطيفا كقول الشاعر :

إذا كوكبُ الخَرقَاءِ لَاحَ بِسُحْرَةٍ سُهَيلٌ أذاعَتْ غَزْلَها فى القَرائِبِ

فالشاعر أضاف الكوكب الخرقاء للإشارة إلى أن هذه المرأة طبعها الإهمال والكسل ، فلاتنجز لباس الشتاء إلا فى وقت متأخر .

إلى غير ذلك من الأغراض التى لاتخفى على صاحب الذوق السليم والطبع العربى الأصيل .

تنكير المسند إليه

ومن التصرفات التى يحدثها الأديب فى « النظم » تنكير المسند إليه ، ليحقق أغراضا بلاغية منها :

١ — يأتى المسند إليه منكرا للقصد إلى فرد غير معين مما يصدق عليه اسم الجنس ، كقوله تعالى : (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى(١))

---

(١) سورة القصص آية : ٢٠

فلفظ « رجل » مسند إليه وجاء نكرة لأن القصد منه إلى فرد غير معين ، فمواقف الرجولة التي من شيمها قول كلمة الحق مطلوبة في كل زمان ومكان ومن جميع أفراد الجنس ، ولذا جاء التنكير للدلالة على أنه فرد منتشر غير معين ولا محدد .

وفي التنكير أيضا « تعظيم وتعجب » يحس بهما من يعيش في المجتمعات الفاسدة التي يعز فيها قول كلمة الحق والعمل لها .

ومنه — في غير باب المسند إليه — قوله تعالى : (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ، ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا[١]) .

٢ — أن يراد من تنكير المسند إليه نوع مخالف للأنواع المعهودة كقوله تعالى : (وعلى أبصارهم غشاوة[٢]) أي : نوع خاص من الغشاوة لا يتعارفه الناس بحيث يغطى مالا يغطيه شيء من الغشاوات وتحس في التنكير للفظ « غشاوة » التعظيم كما أحس بذلك السكاكي .

ومنه — في غير باب المسند إليه - قوله تعالى : (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة[٣]) أي نوع من أنواع الحياة يكون في المستقبل ، لأن الحرص لا يكون إلا على شيء مستقبل .

وتقول الآية الكريمة : (والله خلق كل دابة من ماء[٤]) فالتنكير فيها يحتمل النوعية بمعنى خلق كل نوع من أنواع الدواب من نوع من أنواع الماء — ويحتمل الإفراد ، أي خلق كل فرد من أفراد الدواب من فرد من أفراد النطف .

---

(١) سورة الزمر آية ٢٩
(٢) سورة البقرة آية : ٧
(٣) « « آية : ٩٦
(٤) سورة النور آية ٤٥

٣ — أن ينكر المسند إليه للتعظيم أى أنه أعظم من أن يعرف ويعين كقول الشاعر :

لهُ هِمَمٌ لامُنْتَهى لِكِبارِها　　وهِمَّتُهُ الصُّغْرى أَجَلُّ مِنَ الدَّهْرِ

أى همم عظيمة الشأن رفيعة المقام .

وقوله تعالى : (ولكم فى القصاص حياة(١)) أى حياة عظيمة .

٤ — أن ينكر المسند إليه للتحقير بمعنى انحطاط شأنه إلى حد لا يمكن أن يعرف وذلك مثل : « لك عدو لا يعتد به » أى عدو حقير لا قيمة له ، ولا يعرفه أحد .

وقد اجتمع التعظيم والتحقير فى قول ابن أبى السمط :

فَتَى لايبالى المُدْلِجُونَ بنُورِه　　إلى بابِهِ ألاَّ تُضِىءَ الكواكِبُ
لهُ حاجِبٌ عن كلِّ أمْرٍ يَشِينُهُ　　وليسَ لهُ عن طالِبِ العُرْفِ حاجِبُ

التنكير فى حاجب الأول للتعظيم ، وفى الثانى للتحقير ، لأن مقام المدح يقتضى أن الحاجب أى المانع عن كل مايشين لابد أن يكون عظيما ، وليس له أى حاجب عن المعروف والإحسان ، ولو كان حقيرا فنيل إحسانه ومعروفه مبذول لكل الناس .

٥ — وقد يقصد بالتنكير : إفادة معنى التكثير ، بمعنى أن هذا الشيء كثير حتى أنه لايحتاج لتعريف ، وذلك مثل قولهم : « إن له لإبلا » ، و « إن له لغنما » فقام هذا الكلام يقتضى أن المراد « إبلا كثيرة وغنما » ، والتنكير يشعر بأن هذا أمر لا يمكن الإحاطة به لكثرته .

(١) سورة البقرة آية ١٧٩

ومنه قوله تعالى . (قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً (١)) فواضح أن السحرة يريدون أجراً كبيرا من فرعون إذهم غلبوا موسى عليه السلام .

٦ — وقد يقصد بالتنكير إفادة معنى التقليل وذلك قوله تعالى : (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر (٢)) .

أى وشيء « ما » من رضوانه أكبر من ذلك كله ؛ لأن رضاه سبب كل سعادة وفلاح ، ولأن العبد إذا علم أن مولاه راض عنه فهو أكبر فى نفسه مما وراءه من النعم (٣) .

فالتنكير فى « رضوان » للتقليل ، أى أقل قدر من رضاء الله خير للإنسان من الدنيا ومافيها ، ولايخفى عليك ما فى ذلك من التعظيم لرضاء الله .

وقد جاء التنكير للتعظيم والتكثير والفرق بينهما : أن التكثير ينظر فيه إلى الكميات والمقادير ، والتعظيم ينظر فيه إلى علو الشأن وكذلك الفرق بين التقليل والتحقير .

تأمل قوله تعالى لنبيه : (وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك)(٤) فلفظ « رسل » مسند إليه ورد منكرا لافادة التكثير والتعظيم ومعناه : رسل ذوو عدد كثير ، وذوو شأن عظيم . وقد يكون التنكير للتحقير والتقليل معا نحو : وصلنى منه شيء ، أى حقير قليل .

---

(١) سورة الشعراء آية ٤١ .
(٢) سورة التوبة آية ٧٢ .
(٣) بغية الايضاح جـ١ صـ٩١ .
(٤) سورة فاطر آية ٤ .

٧ — وقد يأتى المسند إليه منكرا ؛ لأن المقام يمنع من التعريف كقول الشاعر :

إذا سئمت مهنده يمين   لطول الحمد بدله شمالا

فالمقام يقتضى المبالغة فى المدح .

ومن هنا نجد الشاعر لم يقل : « يمينه » احترازا عن التصريح بنسبة السآمة إلى يمين الممدوح ، مبالغة فى المدح .

وصف المسند إليه

قد تتأمل الجملة فتجد المسند إليه قد وصف بوصف ساعد على وضوح المعنى ، والبلاغيون حريصون على لفتك إلى كل تصرف يحدث فى النظم ويكون له تأثير فى إيصال المعنى إلى قلب السامع . ودواعى وصف المسند إليه كثيرة منها .

١ — أن يكون الوصف مفسرا وكاشفا عن معنى المسند إليه .

ومن المشهور فى ذلك قول أوس بن حجر يرثى فضالة بن كلدة :

أيتها النفس أجملى جزعا   إن الذى تحذرين قد وقعا

إن الذى جمع الشجاعة والنجـ   ـدة والبر والتقى جمعا

الألمعى الذى يظن بك الظن   كأن قد رأى وقد سمعا

أودى فلا تنفع الإشاحة من   أمر لمرء يحاول البدعا

فالمسند إليه فى الأبيات « الذى » فى قوله : « إن الذى جمع » ولفظ « الألمعى » منصوب صفة له وكاشفة عن معناه .

وخبر « إن الذى » البيت الأخير « أودى فلا تنفع .

« حكى أن الأصمعي سئل عن الألمعي فأنشد الأبيات السابقة ولم يزد .

وقوله تعالى: (إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا)(١) قال الزمخشري الهلع: سرعة الجزع عند مس المكروه وسرعة المنع عند مس الخير .

من قولهم : « ناقة هلوع » سريعة السير ، وعن أحمد بن يحيى ثعلب قال لي محمد بن عبد الله بن طاهر : ما الهلع؟ قلت : قد فسره الله تعالى » (٢) .

ومنه قولهم : الجسم الطويل العريض محتاج إلى فراغ يشغله » .

٢ — أن يكون وصف المسند إليه مخصصا له - والتخصيص رفع الاحتمال في المعارف ، وتقليل الاشتراك في النكرات .

وذلك مثل : « زيد التاجر عندنا » فزيد مسـنـد إليه والتاجر صفة مميزة له .

٣ — أن يكون وصف المسند إليه مدحا له أوذما ، مثال الأول « جاء زيد العالم ، ومثال الثاني « ذهب زيد الفاسق »

٤ — أن يكون الوصف تأكيدا للمسند إليه كقولك : « أمس الدابر كان يوما عظيما » فهنا لفظ الدابر » صفة لأمس وتفيد تأكيدا زائدا على الوصفية وليس تأكيدا اصطلاحيا كما هو معروف في علم « النحو وذلك بشرط أن يكون المقام اقتضى وصف الأمس بالدبور .

٥ — أن يكون الوصف بيانا للمسند إليه وذلك كقوله تعالى: (وقال

---

(١) سورة المعارج آية ١٩، ٢٠، ٢١ .

(٢) بغية الإيضاح ح١ ص ٩٦ .

الله لاتتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد(١)) قال الزمخشرى : الاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية دال على شيئين: على الجنسية والعدد المخصوص: فإذا أريدت الدلالة على أن المعنى به منهما ، والذى سيق له الحديث هو العدد : شفع بما يؤكده ، فدل به على القصد إليه ، والعناية به ، ألا ترى أنك لو قلت : إنما هو إله ولم تؤكد بواحد لم يحسن ، وخيل أنك تثبت الإلهية لا الوحدانية(٢) .

توكيد المسند إليه

وترى المتكلم أتى بالمسند إليه مؤكداً ليحقق أغراضا بلاغية منها :

١ — تقرير المسند إليه فى ذهن السامع ، إذا اقتضى المقام ذلك ، حيث يخاف المتكلم أن يكون السامع غافلا عن سماعه أولا ، فيكرره ليسمعه ثانيا . وحينئذ يتقرر المسند إليه ويصل الحكم إلى السامع كما يريد المتكلم .

فحرص المتكلم على وصول المعنى المراد من المسند إليه كاملا وبدقة إلى ذهن السامع ، هو الهدف من التصرف البلاغى الذى يحدثه المتكلم فى النظم أوفى العبارة ، وذلك مثل : « جاء زيد زيد » فزيد المسند إليه قد أكد « بزيد » الثانى لأن المتكلم أراد أن يجعله مستقرا محققا ثابتا بحيث لا يظن به غيره ، وذلك إذا ظن المتكلم غفلة السامع عن سماع لفظ المسند إليه « زيد » أو عن حمله على معناه .

٢ — وقد يأتى المسند إليه مؤكدا لدفع توهم السامع أن المتكلم قد

---

(١) سورة النحل آية : ٥١

(٢) انظر عروس الأفراح جـ١ ص ٣٦٥ ، وبغية الإيضاح جـ١ ص ٩٧ ، ٩٨

تجوّز فى كلامه ، فيقول المتكلم مثلا : زار الكلية اليوم رئيس الجمهورية رئيس الجمهورية أو نفسه أو عينه لئلا يتوهم السامع أن الزائر للكلية بعض مساعدى الرئيس أو مستشاريه ، وإنما أسندت الزيارة إلى لفظ رئيس الجمهورية مجازا ، ولاشك أن دفع توهم التجوّز فى المسند إليه مما يقرر معناه، ويحقق الغرض المقصود .

٣ — ويأتى المسند إليه مؤكدا لدفع توهم السامع أن المتكلم ذكر المسند إليه سهوا ، وأن صاحب الحكم غيره ، وذلك مثل : « جاءنى زيد زيد » فزيد الأول مسند إليه ، وزيد الثانى تأكيد دفع توهم السامع أن المتكلم سها فى إثبات الحكم لغير مَنْ هو له .

٤ — وقد يأتى المسند إليه مؤكدا لدفع توهم السامع عدم الشمول وذلك مثل : « جاءنى القوم كلهم أو أجمعون » ، « فالقوم » مسند إليه وهو يقتضى الشمول ، أى يشمل المجىء جميع أفراد القوم ، ولكن قد يتوهم السامع أن «القوم» مستعمل فى البعض من باب إطلاق الكل على البعض على سبيل المجاز المرسل اللغوى ، فيأتى المتكلم بالتأكيد وهو « كلهم » أو « أجمعون » لدفع هذا المجاز الذى يوهم عدم إرادة الشمول : فيقول المتكلم : جاءنى القوم كلهم أجمعون .

بيان المسند إليه

١ — وقد يأتى المتكلم بعطف البيان على المسند إليه لقصد إيضاحه باسم مختص به ، وذلك مثل « جاءنى صديقك خالد » فصديقك مسند إليه وخالد عطف بيان له ، ولا شك أن عطف البيان وضح المسند إليه لأنه أخص إذا فرض أنه لايسمى من الأصدقاء بخالد إلا صديق واحد ، فيكون بيانا للأول .

ومثال ما يحصل به البيان قول الشاعر :

والمؤمن العائذات الطير يمسحها ركبان مكة بين الغيل والسند

والواو فى « والمؤمن » واو القسم ، والمراد بالمؤمن : المولى سبحانه وتعالى مأخوذ من الأمان ، والعائذات : جمع عائذة من العوذ وهو الالتجاء والطير : عطف بيان على العائذات . والمعنى : والله الذى آمن الطير الملتجئة للحرم والساكنة به للأمن من الاصطياد والأخذ وقد حصل ، إذ لا يجوز لأحد أخذها ، بل الركبان القاصدون مكة المارون بين الغيل والسند تمسحها ولا تتعرض لها ، والغيل ، بفتح الغين ، وسكون الياء .

والسند بفتح السين والنون : موضعان فى جانب الحرم فيهما الماء[1] .

والعائذات ليس من باب المسند إليه لأنه إما مفعول به للمؤمن أو مضاف إليه . والطير عطف بيان للعائذات لأن العائذات صادق على الطير وعلى غيره مما يعوذ بالحرم ويؤمنه الله سبحانه وتعالى فيه من سائر الوحوش .

٢ — وقد يأتى عطف البيان للمدح . وذلك فى قوله تعالى : (جعل الله الكعبة البيت الحرام)[2] فالبيت الحرام عطف بيان للمدح ، لأن الكعبة أظهر من نار على علم ، وإنما كان للمدح ، لأن فيه دلالة على أن هذا البيت موصوف بالحرمة ، ومنعوت بتعظيم الإحترام والمنع من كل امتهان وانتهاك ، وإنما جعل عطف بيان لأن البيت ليس مشتقا[3] .

---

(١) راجع حاشية الدسوقى ج١ ص ٣٧٣

(٢) سورة المائدة آية : ٩٧ .

(٣) راجع مواهب الفتاح ج١ ص ٣٧٤ .

الابدال من المسند إليه

الابدال من المسند إليه يكون لزيادة تقرير الغرض الذى يستعمل له الكلام فثاله فى بدل المطابقة قولهم : « جاءنى أخوك زيد » فزيد بدل ودل على تقرير الغرض لأن مفهومه هو مفهوم « أخوك » ومثاله فى بدل البعض قولهم : (جاءنى القوم أكثرهم) والتقرير فيه بذكر ما اشتمل عليه الأول بالدلالة الكلية « فإن الأكثر بعض القوم » ولا يخلو بدل البعض من بيان إجمالى وتوضيح المقصود ، ومثاله فى بدل الاشتمال « أعجبنى الاستاذ علمه » وقد حصل فيه التقرير من جهة أن الكلام السابق يقتضيه إجمالا ويشعر به فى الجملة . بمعنى أن النفس قبل ذكره تتشوف لشىء يطلبه الكلام السابق ، ويشتمل عليه بالتقاضى وبنوع من الاستلزام . فذكره بعد تحققه يكون تفصيلا ، فيكون كأنه ذكر إجمالا ثم تفصيلا وهذا الاقتضاء هو المراد بالاشتمال .

ومنه فى غير باب المسند اليه قوله تعالى : (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم) فإن الصراط الثانى بدل ، وفيه بيان أن الصراط المستقيم هو صراط المنعم عليهم بالإيمان والرضوان والهدى من كل ضلال . ففية إيضاح وزيادة تقرير .

العطف على المسند إليه

وترى المتكلم قد عطف على المسند إليه ويريد من وراء ذلك أغراضا بلاغية منها :

١ — تفصيل المسند إليه مع الاختصار ، وذلك إذا كان العطف بالواو ،

مثل : « جاءنى زيد وبكر وخالد » فإن فى هذا المثال تفصيلا للفاعل الذى فعل المجىء بأنه زيد وبكر وخالد — وقولنا : « مع الاختصار » احتراز ، عن نحو : جاءنى زيد ، وجاءنى بكر ، وجاءنى خالد ، فإن فى هذا

المثال تفصيلا للفاعل أيضا ، ولكن بدون اختصار ، وهو ليس من العطف على المسند إليه المحقق للاختصار ، ولكنه من باب عطف الجمل الذى طريقه التطويل .

والعطف « بالواو » يفيد مجرد الاجتماع فحسب وذلك يكون :

أ — إما فى ذات واحدة كقولك : قام على وقعد ، فقد أفاد العطف فيه اجتماع القيام والقعود فى ذات «على» من غير تعرض لأزيد من ذلك .

ب — وإما أن يكون الاجتماع فى وصف واحد كقولك : قام على وزيد ، فإن فيه اجتماع ذات «على» وذات «زيد» فى وصف واحد هو القيام.

حـ — وإما أن يكون الاجتماع فى الوجود وذلك مثل قولك : « قام على وقعد زيد » فإن فيه «اجتماع» قيام «على» وقعود زيد فى الوجود ، وذلك فى عطف الجمل .

٢ — ويعطف على المسند إليه أيضا إذا أراد المتكلم تفصيل المسند مع الاختصار ، وذلك إذا كان العطف بغير الواو .

وتفصيل ذلك أننا عرفنا أن العطف بالواو يكون لمجرد الاجتماع فحسب ، ولكن العطف بغير الواو يفيد مع الاجتماع خصوصية أخرى توضح أن ذلك الاجتماع كان باصطحاب ، أو بأن أحد المجتمعين كان قبل الآخر ، أو بعده بمهلة أو بدونها .

والمتكلم حينما يريد إفادة تلك الخصوصية فى عبارته ، له طريقان : طريق التطويل ، وذلك بزيادة ما يدل على تلك الخصوصية فيقول مثلا : « جاء زيد وعمرو قبله أو بعده بسنة أو بشهر أو بأثره » ، فقد أفاد هذا الكلام أن اتصاف أحد المسند إليهما بالحكم ، إنما هو قبل الآخر أو بعده بمهلة أو بدونها ، وهذا معنى التفصيل ؛ لكن تلك الإفادة بزيادة القبلية والبعدية بسنة أو شهر وبالأثرية فيها تطويل .

والطريق الثانى : الاختصار، وذلك يكون بإفادة تلك الخصوصية بحرف العطف المفيد لها ، وذلك مثل قولهم : (جاءنى زيد فعمرو) فإن العطف « بالفاء » يفيد تعلق الحكم بالثانى بعد الأول بلا مهلة ، وفيه تفصيل واضح وتقول : « جاءنى زيد ثم عمرو » فإن العطف بثم يفيد البعدية مع المهلة .

وتقول : « جاءنى القوم حتى خالد » إذا كان خالد أعلى القوم أو أدناهم، فإن العطف بحتى يفيد أن معطوفها غاية لما قبلها فى الرفعة كقولهم : «مات الناس حتى الأنبياء » أو فى الدناءة كقولهم : «غلب الناس زيدا حتى النساء».

٣ — أن يكون العطف على المسند إليه لرد السامع من الخطأ إلى الصواب وذلك كما فى العطف « بلا » ، وهى للنفى بعد الإثبات نحو : « جاءنى زيد لا عمرو » لمن اعتقد أن عمرا جاء دون زيد أو أنهما قد جاءا معاً ، فترده إلى الصواب ببيان انفراد زيد بالمجىء دون عمرو .

ومما يستعمل للرد إلى الصواب من حروف العطف « لكن » وهى للإثبات بعد النفى وذلك نحو : « ما جاء زيد لكن عمرو » ردا على من زعم أن زيدا جاء دون عمرو.

٤ — أن يكون العطف على المسند إليه لصرف الحكم عن محكوم عليه إلى محكوم عليه آخر ، وذلك إذا كان العطف « ببل » .

وكان المعطوف عليه مثبتا نحو : « جاءنى زيد بل عمرو » .

وبل فى هذا المثال تفيد صرف الحكم الذى هو المجىء عن زيد ، وتثبته لعمرو ، ويكون « زيد » فى حكم المسكوت عنه ، محتملا للإثبات أو النفى وهذا هو المشهور ، وقيل : بنفى الحكم عن « زيد » قطعا(١) .

---

(١) راجع مواهب الفتاح ص ٣٨٣ .

أما إذا كان المعطوف عليه منفيا ، مثل : — ما جاءنى زيد بل عمرو » — فهو يفيد ثبوت الحكم للتابع «عمرو» مع السكوت عن ثبوته أو انتفائه عن المتبوع «زيد» ؛ والمعنى : ثبوت المجىء «لعمرو» مع احتمال مجىء «زيد» وعدم مجيئه .

وقيل : إن ذلك يفيد انتفاء الحكم — أى المجىء — عن المتبوع «زيد» قطعا .

• — أن يكون العطف على المسند إليه يشعر بأن المتكلم شاك أو يكون القصد إلى تشكيك السامع أو إبهام الحكم عليه أو القصد إلى التخيير أو الاباحة ، وذلك يكون إذا كان العطف «بأو» .

فمن الأول والثانى قولك : جاءنى زيد أو عمرو إذا كان المتكلم لا يدرى أيهما جاء ؛ أو إذا كان يقصد تشكيك السامع لغرض فى نفسه .

ومثال الإبهام قوله تعالى : «وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين»[1] .

والمعنى : نحن وأنتم فريقان أحدهما مهتد والآخر ضال ، فإما أن يكون المهتدون إيانا والضالون أياكم ، وإما العكس ، فقد أبهم الأمر على السامعين تفاديا لنسبتهم إلى الضلال حتى لا يشتد عنادهم ، وتيسر لهم سبل النظر إلى ما هم فيه من اختلاف وتفرق وضلال ، وإلى ما عليه المسلمون من ألفة ومحبة وإيثار واتحاد ، فيتبين لهم خطؤهم فيقلعون عن عنادهم ، ويدخلون الإسلام .

التخيير والإباحة : والفرق بينهما أن الإباحة لا تمنع من الجمع

---

(١) سورة سبأ آية : ٢٤

بين التابع والمتبوع ، وأما التخيير فإن الحكم لا يكون إلا لأحدهما .

فإذا قلنا : « جالس الحسن أو الكامل » فإن كان المقصود الجلوس مع أحدهما فحسب فالكلام على التخيير ، وإن كان المقصود أن يجلس مع أحدهما أو كلاهما كان الكلام على الإباحة .

تعقيب المسند إليه بضمير الفصل

يعقب المسند إليه بضمير الفصل لأغراض بلاغية منها :

١ — تخصيص المسند إليه بالمسند ، أى قصر المسند على المسند إليه ، وذلك مثل : « محمد هو كريم فى هذا البلد » فضمير الفصل « هو » يفيد أن المسند « كريم » مختص بالمسند إليه وهو « محمد » بحيث لا يتعداه إلى أن يكون غير محمد كريما مبالغة فى وصفه بالكرم .

ومنه قوله تعالى : (ألم يعلموا أن الله هـو يقبل التوبة عن عباده)(١) والمعنى : لا يقبل التوبة عن العباد إلا الله .

فقبول التوبة مقصور عليه جل وعلا .

٢ — وقد يكون تعقيب المسند إليه بضمير الفصل — لمجرد التأكيد، إذا كان التخصيص حاصلا بدونه ، بأن يكون فى الكلام ما يفيد قصر المسند إليه نحو قوله تعالى : (إن الله هو الرزاق)(٢) .

والمعنى : لارازق إلا هو ، أو قصر المسند إليه على المسند نحو :

---

(١) سورة التوبة آية : ١٠٤ .
(٢) سورة الذاريات آية : ٥٨

« الكرم هو التقوى » و« الحسب هو المال » ، أى لا كرم إلا بالتقوى ، ولا حسب إلا المال .

ومنه قول أبى الطيب :

إذا كان الشباب هو السكْرِ والشيبُ هَمًّا فالحياةُ هو الحمامُ

أَىْ لا حياة الا الحمام[1] فالقصر حاصل بتعريف الطرفين وضمير الفصل للتأكيد .

---

(١) راجع المطول ص ١٠٥ ، ١٦٠ .

تقديم المسند إليه

المألوف فى الجملة الإسمية أن يتقدم المبتدأ . ويأتى بعده الخبر ، كما أن المألوف فى الجملة الفعلية أن يتقدم الفعل ، ويتبعه الفاعل . ثم تأتى مكملات الجملة .

وقد يخالف الأديب هذا المألوف . فيتصرف فى ترتيب « النظم » كى يجعله قادرا على الإيحاء بأفكار زائدة على المعنى الأصلى ، دون حاجة إلى تعبير آخر .

ومن هذه التصرفات : « تقديم المسند إليه » : لتحقيق أغراض بلاغية منها :

١ — أن يكون ذكر المسند إليه المقدم أهم ، والعناية به أولى . وهذا تعليل القدماء للتقديم ، وقد نعى عليهم الشيخ عبد القاهر — هذا الإجمال ، وقال : واعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا فى التقديم شيئا يجرى مجرى الأصل غير العناية والاهتمام . لكن ينبغى أن يفسر وجه العناية بشىء يعرف فيه معنى ، وقد ظن كثير من الناس أنه يكفى أن يقال : قدم للعناية ، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية وبم كان أهم(١) .

ثم جاء البلاغيون بعد عبد القاهر ، وفصلوا وجه كون ذكر المسند إليه أهم . والعناية به أولى بما يلى :

(أ) كون المسند إليه هو الأصل : لأنه المحكوم عليه ، ولابد أن يكون مذكورا قبل الحكم عليه ، إذا لم يكن فى العبارة ما يقتضى العدول

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٧٤ .

عن ذلك الأصل ، ومثال ذلك قولهم : « عادل سديد الرأى » فعادل مسند إليه ، وقد قدم لكونه الأصل ، ولا مقتضى للعدول عن ذلك الأصل . وتحس بأن تقديم المسند إليه فى هذا المثال — أن المتكلم يريد أن يشعر السامع بأن همه وقصده العناية « بعادل » المسند إليه .

وقد وضعه فى مكانه الأصلى ، وهذا دليل على تلك العناية ، وبرهان على الأهمية .

(ب) وقد يقدم الأديب المسند إليه ؛ ليتمكن الخبر فى ذهن السامع ، وذلك إذا كان فى المبتدأ تشويق إليه . فيكون حق الكلام تطويل المسند إليه ، ولا شك أن مجىء الخبر بعد التشوق إليه ، ألذ وأوقع فى النفس .

ومن المشهور فى ذلك قول أبى العلاء :

والذى حارَتِ البريةُ فِيهِ   حيوانٌ مُسْتَحدَثٌ مِنْ جَمادِ

والمعنى : أن الذى تحيرت فيه الخلائق ، واختلفت فى أمر بعثه : هو ذلك الحيوان الآدمى ، بدليل ما قبله :

بانَ أَمْرُ الإلهِ واخْتَلفَ النا   سُ فَدَاعٍ إِلى ضَلَالٍ وَهَادِ

والشاهد : تقديم المسند إليه « والذى حارت البرية فيه » ، لأن فى تقديمه تشويقا إلى الخبر « حيوان مستحدث من جماد » ، إذ قد اتصل بالمسند إليه ، ما يدعو إلى الدهشة والعجب ، وهو : قوله « حارت البرية فيه » — فإذا ما ذكر المسند ؛ أى : الخبر بعد هذا التشويق — تمكن فى النفس واستقر فى القلب .

ومنه إذا كان المسند إليه ضمير شأن أو قصة ، فإن فيه من الإبهام :

ما يحتاج إلى التفسير والتوضيح : فإذا ورد المسند ، وقام بتوضيح هذا الإبهام ،كان فى تقديم المسند إليه ، تشويق إلى ذكر الخبر ، وذلك مثل قوله تعالى : (قل هو الله أحد)(١) : وقوله : (فإنها لا تعمى الأبصار)(٢) : وقول الشاعر :

هِىَ الدُّنْيَـا تَقُولُ بِمِلْءِ فِيهَا
حَـذَارِ حَـذَارِ مِنْ بَطْشِى وَفَتْكِى

ولا شك أن الإبهام الذى جاء من ذكر الضمائر فى الأمثلة السابقة يجعل النفس تتلهف على ذكر الخبر ؛ لتزيل هذا الإبهام ، وحينئذ يطلب الكلام بعضه بعضا بوصف بالترابط ، ومعانيه بالتماسك ، وهذان من أوصاف الأسلوب الجيد .

(ح) تعجيل المسرة أو المساءة كقولك : « سعد فى دارك ، و « السفاح فى دار صديقك » .

(د) وقد يقدم المتكلم المسند إليه للإيهام بأنه لا يزول عن الخاطر ، فهو إلى الذكر أقرب ، كقول جميل ،

بثينة ما فيها إذا ما تُبُصِّرَتْ مُعَابٌ ولا فيها إذَا نُسِبَتْ أَشَبٌ

تبصرت : استقصى النظر إليها ، والأشب : العيب ، والمعنى : أن من نظر إلى بثينة لا يجد فيها معابا ، ومن نسبها لا يرى فيها عيبا .

(و) إظهار تعظيمه ، أو تحقيره ، فثال الأول : قوله تعالى : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم)(٣) ، فمحمد ﷺ

---

(١) سورة الإخلاص آية : ١ :
(٢) سورة الحج آية : ٤٦ .
(٣) سورة محمد آية ٢٩ ،

مسند إليه قدم للتعجيل بإظهار تعظيمه .

ومثال الثانى ، قولهم : « الدنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة » ، فالدنيا مسند إليه ، قدم للتعجيل بإظهار تحقيره :

٢ — تخصيص المسند إليه بالخبر الفعلى ، أى قصر الخبر الفعلى عليه . وذلك إذا كان الخبر جملة فعلية وله صور :

الصورة الأولى : إذا كان المسند إليه ضميرا ، وولى حرف النفى ، وذلك مثل قولهم : « ما أنا قصرت فى حاجتك » ، تريد أنه لم يقع منك تقصير ، وأنت لا تنفى أن يكون التقصير قد وقع من غيرك ، ولهذا لا يصح أن تقول : ما أنا قصرت ولا غيرى ، لاستحالة وقوع تقصير من غير فاعل ، ومنه قول الشاعر :

وما أنا أَسْقَمْتُ جِسْمِى به
وَلاَ أنا أَضْرَمتَ فى القلبِ نارَا

فالمعنى أن هذا السقم الموجود ، والضرم الثابت ، ما أنا جالبا لهما ، فالقصد إلى نفى كونه فاعلا لهما لا إلى نفيهما .

ويفهم من ذلك : أن المسند إليه إذا قدم على الخبر الفعلى ، كان الفعل ثابتا وواقعا ، فإذا نفيته عن نفسك — مثلا ثبت لغيرك ، ولا يجوز نفيه عن الغير لاستحالة وقوع فعل بلا فاعل .

فإذا قلت : ما أنا فعلت هذا ، كان كلاما صحيحا ، لأنك تنفى فعلا واقعا ومشارا إليه ، عن نفسك ، وتثبته لغيرك .

أما إذا قلت : ما فعلت هذا : كان كلاما فاسدا لأنك تنفى فعلا ، مع أنك تشير إليه ، ومعلوم أن الإشارة تكون لمحسوس ثابت ومعين .

وتقول : « ما قلت أنا ولا أحد غيرى ، كان الكلام صحيحا . لأن الفعل

ليس واقعا ، بل هو منفى ، كما ترى ، فلك أن تنفيه عن نفسك وعن غيرك — أما إذا قلت : « ما أنا قلت ولا أحد غيرى » كان كلاما فاسدا ، لأنك تنفى فعلا واقعا ، عن نفسك ، وعن غيرك ، وهذا غير ممكن قطعا . وأمثلة تقديم المسند إليه السابقة أفادت التخصيص — وإن شئت قلت : القصر ، من قصر الصفة على الموصوف .

الصورة الثانية : إذا كان المسند إليه اسما ظاهرا معرفة وولى حرف النفى ومثال ذلك : « ما زيد فعل هذا » فهذا يفيد التخصيص ، بمعنى أنك نفيت الفعل عن زيد وأثبته لغيره .

الصورة الثالثة : إذا كان المسند إليه نكرة ، وولى حرف النفى ، مثاله : « ما رجل جاءنى » وفى هذه الصورة سبب آخر لإفادة التخصيص ، وهو كون المسند إليه نكرة ، ويكون إما لتخصيص الجنس ، والمعنى « ما رجل جاءنى بل امرأة » وإما لتخصيص الوحدة — والمعنى : « ما رجل جاءنى بل رجلان » .

الصورة الرابعة : إذا كان المسند إليه نكرة ، ولم يل حرف النفى ، وكان الخبر مثبتا مثاله « رجل جاءنى » .

الصورة الخامسة : إذا كان المسند إليه نكرة ولم يل حرف النفى وكان الخبر منفيا ، وذلك نحو : « رجل ما جاءنى » .

وإذا تقدم المسند إليه على خبره الفعلى وكان نكرة فإنه يكون للتخصيص قطعا ، إلا أنه يكون مرة لتخصيص الجنس بالفعل ، ومرة أخرى لتخصيص العدد من هذا الجنس .

والفصل بين المقامين ، إنما هو لحال المخاطب ، فإن كان النزاع فى

الجنس، فالتخصيص له ، والقصر عليه ، وإن كان في العدد فالتخصيص للعدد ؛ تقول لمن عرف أن قد أتاك آت ، ولم يدر أرجل هو أم امرأة : « رجل جاءنى » أى لا امرأة فيفيد قصر المجيء على جنس الرجال تعيينا ، أو يفيد قصر المجيء على جنس الرجال قلبا ، اذا كان المخاطب يعتقد العكس .

وتقول لمن عرف أن قد أتاك آت من جنس الرجال ، ولم يدر أرجل هو أم رجلان : « رجل جاءنى » ، أى لا رجلان فيفيد قصر المجيء على العدد المذكور ، وهو الواحد من جنس الرجال تعيينا ، أو يفيد قصر المجيء على العدد المذكور ، وهو الواحد من جنس الرجال قلبا ، اذا كان المخاطب يعتقد العكس .

هذا ، ويلحق بالجنس في هذا الباب النوع ، بحسب الوصف ، أو غيره .

قال الشيخ عبد القاهر : « وكذلك إن قلت : « رجل طويل جاءنى » لم يستقم حتى يكون السامع قد ظن انه قد أتاك قصير ، أو نزلته منزلة من ظن ذلك » .

وسر هذا التنوع هو أن الإسم النكرة حامل لمعنيين : الجنس والعدد ، لأن أصل النكرة أن تكون للواحد من الجنس ، فيقع القصد بها تارة إلى الجنس فقط ، أى إذا كانت منازعة المخاطب في الجنس ، وتارة إلى الواحدة : « يعنى أو غيرها من أنواع العدد » ، إذا كانت المنازعة في العدد(١) .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٩٤ ، ٩٥ ، وانظر أيضا محاضرات في البلاغة ص ٦٣ ، ٦٢ لأستاذنا العقدة .

الصورة السادسة : إذا تقدم المسند إليه على الفعل ، ولم يكن فى الكلام نفى ، وكان الغرض قصر الفعل على المقدم ، ونفيه عن واحد آخر ، أوعن جميع ما عدا المقدم ، وهو على الأول قصر إضافى ، وعلى الثانى حقيقى ، مثال ذلك أن تقول : « أنا كتبت فى معنى فلان — أى شأنه — وأنا شفعت فى بابه » — أى أمره — تريد أن تدعى الانفراد بذلك ، وأن ترد على من زعم أن غيرك مشاركك فى الأمر ، فتفرد نفسك به ، وهو على الأول : « قصر قلب » ، وعلى الثانى ، قصر إفراد ، ويجوز أن يكون (قصر تعيين)(١) .

إذا قلته لمن ردد الأمر بينك ، وبين غيرك ، وكل ذلك من « القصر الإضافى » .

فإذا أردنا أن نثبت الفعل لأنفسنا ، وننفيه عن جميع من عدانا « كان قصرا حقيقيا »(٢) .

ومن البين فى أن التقديم يأتى للتخصيص ، قولهم فى المثل : « أتعلمنى بضب أنا حرشته » ، أى أعملت الحيلة الخاصة فى صيده حتى اصطدته(٣) : والمثل يضرب لمن يخبرك بشىء أنت أعلم به .

---

(١) قصر القلب : ما كان المخاطب ، معتقدا فيه العكس ، والإفراد : ما كان معتقدا فيه الشركة ، والتعيين : ما كان فيه مترددا .

(٢) الإضافى : ما كان بالنسبة لعدد محصور من الصفات أو الموصوفين : والحقيقى ما كان بالنسبة لجميع ماعدا المقصور عليه .

(٣) هذه الحيلة أن يحرك يده على باب جحره حتى يظن أنها حية ، فيضربها بذيله ، فيمسكه .

فإن المعنى ما حرشه أحد غيرى ، وواضح أنه من قصر القلب ، لأن حرش الضب لا يكون من اثنين .

ومنه قوله تعالى : (ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لاتعلمهم نحن نعلمهم(١)) ، مردوا على النفاق : تمهروا فيه .

فإن المعنى : لايعلمهم إلا نحن ، وذلك لإبطانهم الكفر فى أعماق قلوبهم . وواضح أنه من قصر القلب ؛ لأن العلم بما فى القلوب لا يكون إلا من الله .

الصورة السابعة : إذا قدم المسند إليه على الفعل والنفى جميعا ، وكان الغرض من التقديم قصر نفى الفعل على المسند إليه المقدم وإثباته لغيره ، نحو قولنا : « أنا لا أفعل كذا » و« أنت ما كتبت فى شأنى » .

٣ — تقديم المسند إليه لتقوية الحكم ، ويكون فى صورتين :

الصورة الأولى : أن يتقدم المسند إليه على الخبر الفعلى ، ولم يكن فى الكلام نفى ، وكان الغرض إفادة تقوية الحكم الذى هو ثبوت الفعل للفاعل وتوكيده ، ودفع الشك عنه ، لا قصره عليه مثال ذلك أن تقول : « هو يعطى الجزيل » ، « هو يحب الثناء » ، لا تريد أن تقصر الفعل عليه ، ولا أن تنفيه عن غيره ، وإنما تريد أن تحقق الحكم ، وتمكنه فى نفس السامع ، وتدفع الشك عنه . ومنه قول الشاعر :

هم يفرشون اللبد كل طمرة وأجرد سباح يبذ المغاليا

اللبد : المتلبد من الصوف أو الشعر ، والطمرة : الفرس الكريمة . والأجرد : القصير الشعر ، والسباح : الذى يشبه سيره السباحة فى اللين واليسر والمغاليا : المبالغ فى عدوه ، والشاهد : هم يفرشون .

---

(١) سورة التوبة آية : ١٠١

ومنه قول الآخر :

هم يضربون الكبش يبرق بيضه على وجهه من الدماء سبائب

والكبش : رئيس القوم . والبيض جمع بيضة وهي : الخوذة الحديدية. والسبائب : الطرائق ، والشاهد : هم يضربون ، وقول الآخر :

سُلَيْمَى أزمعتْ بَيْنًا فأَيْنَ تقولُها أيْنَا ؟

والشاهد : سليمى أزمعت .

وقول الشاعر :

هما يلبسانِ المجدَ أحسنَ لبسةً شحيحانِ ما اسْتَطاعا عليه كلاهما

والشاهد : هما يلبسان .

ومنه قوله تعالى : (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون[1]) والشاهد في الآية : (وهم يخلقون) :

وقوله تعالى : (وإذا جاءوكم قالوا آمنا ، وقد دخلوا بالكفر ، وهم قد خرجوا به[2]) والشاهد : وهم قد خرجوا به :

فإن تقديم المسند إليه ، في كل ذلك قصد به تأكيد ثبوت الفعل للفاعل، ومنع السامع من الشك ، فبدىء بالمسند إليه : لتنبيهه ، ومنعه من الشك والإنكار .

وسر إفادة التقديم التقوية في مثل : « هم يضربون الكبش يبرق بيضه » أن الضرب قد أسند إلى ضمير « هم » مرتين : إحداهما : إسناده إلى واو الجماعة في « يضربون » والثانية إسناد جملة « يضربون » إلى الضمير « هم » الذي هو المسند إليه المقدم ، وهو عين الضمير « واو الجماعة » في « يضربون » فهذا التكرار للإسناد هو منشأ التوكيد ، ودفع الشك .

وقد استدل الشيخ عبد القاهر الجرجاني على أن تقديم المسند إليه على

---

(١) سورة الفرقان آية ٣ (٢) سورة المائدة آية ٦١

الفعل يفيد تقوية الحكم وتوكيده — بأن البلغاء يستعملونه فى المواضع التى تحتاج إلى توكيد ، منها :

١ — أن يجىء فيما سبق فيه إنكار ، كأن يقول قائل : لا أعلم ماتقول ، فتكذب عليه ، فتقول له : أنت تعلم أن الأمر على ما أقول ، فتقدم الفاعل.

وقوله تعالى : (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون(١)) أى يعلمون كذبهم ، ولا شك أنهم ينكرون الكذب ، وينكرون كذلك علمهم بكذبهم ، ومعلوم أن الإنكار يقتضى توكيد الحكم ، من أجل ذلك قدم الفاعل .

٢ — أنه يجىء فيما اعترضه شك ، كأن يقول قائل : كأنك لا تعلم ماقال فلان ، فيظهر شكه فى علمك ، فتقول : أنا أعلم ما قال ، ولكنى أداريه .

٣ — أنه يجىء فى تكذيب مدع ، كقوله تعالى : (وإذا جاءوكم قالوا آمنا ، وقد دخلوا بالكفر ، وهم قد خرجوا به) ، فإن قولهم : « آمنا » دعوى منهم أنهم لم يخرجوا بالكفر ، فالموضع موضع تكذيب ، وهو أيضاً من قبيل رد الإنكار ، لأنهم ينكرون الكفر .

٤ — أنه يؤتى به فيما القياس فى مثله ألا يكون ، أى فيما يقتضى العقل والمنطق ألا يكون ، نحو قوله تعالى : (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون) فإنهم وإن كانوا لا ينكرون أنها مخلوقة ، فإن عبادتها تقتضى أنها غير مخلوقة ، لأن العقل يقتضى أن يكون المعبود خالقا لا مخلوقا .

٥ — وكذلك يجىء تقديم المسند إليه للتقوية — فى كل خبر كان على

---

(١) سورة آل عمران آية ٧٥

خلاف العادة ، وفيما يستغرب من الأمور ، كما يقولون فى كتب النحو : « بقرة تكلمت » و « فلان يدعى العظيم وهو يعيا باليسير ، ويزعم أنه شجاع وهو يفزع من أدنى شىء » فكل ذلك أمر مستغرب جاء على خلاف العادة فهو فى حاجة إلى التوكيد ، لعدم الاستعداد لقبوله .

٦ — يجىء هذا الأسلوب كثيرا فى الوعد والضمان ، كقول الرجل : أنا أعطيك ، أنا أكفيك ، أنا أقوم بهذا الأمر ، وذلك أن من شأن الموعود أن يعترضه الشك فى تمام الوعد ، وفى الوفاء به ، فهو أحوج إلى التوكيد .

٧ — وكذلك يكثر فى المدح والفخر ، نحو : هو يعطى الجزيل وهو يقرى الضيف ، ومنه قول الشاعر :

نحنُ فِى المَشْتَاةِ نَدْعُو الجَفَلَى ۝ لا تَرَى الآدِبَ مِنَّا يَنْتَقِرُ

والمشتاة : زمان الشتاء أو مكانه ، والجفلى بالتحريك : الدعوة العامة. والآدب : الداعى إلى الطعام . وينتقر : يدعو النقرى وهى : الدعوة الخاصة .

وقول الآخر :

ولأنْتَ تَفْرِى ما خَلَقْتَ وبعـ ۝ ـضُ القومِ يَخْلُقُ ثُمّ لا يَفْرِى

الخلق هنا : التقدير والقياس ، والفرى : التصنع ، وأصلهما فى الأديم وهو الجلد ، يقول : أنت إذا قدرت أديما لتصنعه ، صنعته وأتممته ، وبعض الناس يقيس الأديم ويقدره ، ولكنه لا يصنعه ، ولا يتمه ، والكلام مثل ، يشبه الرجل الذى يعد العدة فينجزها ، أو يعزم العزم فيمضى ، بمن يقدر الجلد فيصنعه ويتمه ، ويشبه من يعد فيخلف ، ويعزم فلا يمضى ، بمن يقدر الجلد ولا يصنعه .

وإنما احتاج المدح إلى التوكيد ؛ لأن من شأن المادح أن يمنع الناس من الشك فيما مدح به ، وكذلك المفتخر .

٨ — أنه لا يجيء إذا كان الفعل لا يشك فيه ، ولا ينكر ، بل يؤتى بالفعل مقدما ، غير مبنى على الاسم ، فإذا أخبرت عن عادته الخروج ، قلت : « خرج » ، ولا تقول : « هو خرج » ، لأنه ليس بحاجة إلى توكيد ، وكذلك إذا أخبرت عن عزم على الركوب ، ولم يكن شك فى ركوبه ، تقول « : ركب » ، ولا تقول : « هو ركب » .

الصورة الثانية : أن يتقدم المسند إليه على الفعل والنفى جميعا لإفادة تقوية الحكم وتوكيده ، فإن قولنا : « أنت لاتحسن كذا » — إذا قصدت التقوية — اشد لنفى الإحسان من قولنا : « لاتحسن كذا .

ولذلك لا تقول : « أنت لاتحسن كذا » إلا لمن هو أشـد إعجابا بنفسه ، وأعرض دعوى ، فتمكد به فى دعواه ، بالتوكيد الذى يفيده تقديم المسند إليه

وتأمل قوله تعالى : (والذين هم بربهم لا يشركون[١]) ، وقوله : (لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون[٢]) وقوله : (فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لايتساءلون [٣])

وقوله جل شأنه : (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون [٤])

---

(١) سورة المؤمنون آية : ٥٩ (٢) سورة يس آية : ٧
(٣) سورة القصص آية : ٦٦
(٤) سورة الأنفال آية : ٢٢

فإن تقديم المسند إليه فى كل ذلك ، يفيد من التركيد مالا يفيده تقديم الفعل (١) .

٤ — تقديم لفظ « مثل » و « غير » على الخبر الفعلى .

ومن التصرفات التى تحدث بلاغة فى نظم الكلام تقديم لفظ « مثل » و « غير » على الخبر الفعلى ، وتلك البلاغة تأتى إذا كان الحكم عليهما كناية عن الحكم على ما أضيفا إليه : وحينئذ ترى البلغاء يقدمونهما أبداً فى الكلام وقال الشيخ عبد القاهر إن تقديمهما كاللازم ، ولم يقل : إنه لازم ؛ لأن القواعد النحوية لا تقتضى وجوب تقديمهما ، لكنهما لما لم يستعملا فى كلام البلغاء إلا مقدمين أشبها اللازم الذى تقضى القواعد تقديمه ، كأسماء الاستفهام ، وليس معنى قوله : « كاللازم » أنه يجوز تأخيرهما ، فتقديمهما حينئذ لازم بلاغة ، كاللازم صناعة .

وبيان سر التقديم للفظ « مثل » أنه إذا جعل البليغ الحكم عليها بشىء كناية(٢) عن الحكم على ما أضيفت إليه بذلك الشىء — أى يكون الحكم على ما أضيفت إليه هو المقصود من الكلام بطريق الكناية . مثال ذلك ، قولنا : « مثلك رعى الحق والحرمة ، تمدح رجلا ، فإنك لاتقصد أن هناك شخصا آخر يماثل الممدوح كانت منه رعاية الحق والحرمة ، وإنما تقصد بطريق الكناية أن رعاية الحق كانت من المخاطب نفسه .

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ٧٣ - ٩١ ، وبغية الإيضاح ح١ ص ١٠٧ - ١٢٣ ودرسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر لأستاذنا عبد الهادى العدل ص ٢٣٦ - ٢٨٠ ، الطبعة الثانية ، المطبعة الأميرية .

(٢) الكناية هنا كناية عن نسبة ؛ لأننا سنرى فى الأمثلة أن البليغ يجعل الحكم على « مثل » و « غير » كناية عن الحكم على ما أضيفتا إليه ، والحكم هو النسبة .

ومن الأمثلة المشهورة فى هذا الباب قول المتنبى :

مثلُكَ يثنى الحزن عن صوبه   ويَسْتَرِدُّ الدَّمْعَ من غَرْبِه

والصوب : القصد . والغرب : مجرى الدمع .

ومنه قول ابن القبعثرى للحجاج ، وقد قال له ، « لأحملنك على الأدهم — أى القيد — : مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب » ، يريد بالأدهم : الفرس الذى غلب سواده على بياضه ، وعطف عليه « الأشهب » وهو : الفرس الذى غلب بياضه على سواده .

فابن القبعثرى أبرز وعيد الحجاج فى معرض الوعد ، وأراه بألطف وجه أن من كان على صفته فى السلطان وبسطة اليد ، فجدير بأن يعطى ، لا أن ، يقيد

فقال له الحجاج : إنه حديد ، فقال : لأن يكون حديدا خير من أن يكون بليدا ، وكل هذا من أسلوب الحكيم الذى سيأتيك نبأه فيما يستقبل من البحث

فلم يرد المتنبى الحكم على شخص آخر يماثل الممدوح ، وكذلك لم يرد ابن القبعثرى ذلك ، وإنما أراد كلاهما إثبات الخبر لما أضيفت إليه مثل بطريق الكناية ومن أجل هذا المعنى يقول المتنبى :

ولم أقل مثلك أعنِى به   سواك يافردا بلا مشبه

وأنت تحس أن هذا الأسلوب الكنائى أبلغ وأفخم من الأسلوب الصريح ، كأن يقال : أنت رعيت الحق ، أنت تثنى الحزن عن صوبه ، الأمير يحمل على الأدهم والأشهب ، لأن الأسلوب الكنائى كدعوى الشىء ببينة ودليل ، أى : أنه إذا ثبت أن من كان مثله ، وعلى أخص أوصافه يفعل كذا ، أولا يفعل ، لزم عقلا أنه هو أيضا يفعله ، أولا يفعله ، لأن ماثبت لأحد المثلين ، أو نفى عنه ، يجب أن يثبت مثله للآخر ، أو ينفى عنه ، فكأنك

تقول : أنت تفعل كذا لأن مثلك يفعله ، فهو من استعمال الملزوم فى اللازم .

أما إذا كان المقصود بالكلام الذى وردت فيه « مثل » ظاهره ، وهو الحكم على مماثل لما أضيفت إليه ، فليست مما معنا ، مثال ذلك قول الموظف المغبون : « مثلى يتقاضى كذا وكذا ، وأنا آخذ كذا ، فواضح أنه : يريد الحكم على إنسان آخر مماثل له .

وبيان سر التقديم فى لفظ « غير » أنه إذا جعل البليغ الحكم على « غير » بشىء كناية عن الحكم على ما أضيفت إليه بضد ذلك الشىء ، أى : يكون الحكم على ما أضيف إليه ، هو المقصود من الكلام بطريق الكناية .

ومن المشهور فى ذلك قول المتنبى :

غَيْرِى بِأَكْثَرِ هَـٰذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ
إِنْ قَاتَلُوا جَبُنُوا أَوْ حَدَّثُوا شَجُعُوا

فالمتنبى لا يقصد أن شخصا آخر غيره يغر ويخدع ، إنما يريد أن يحكم على نفسه بضد هذا الحكم ، وهو أنه لا يغر ولا يخدع بطريق الكناية .

ومنه قول أبى تمام :

وغيرى يأكل المعروفَ سُحْتًا ... وتَشْحَبُ عنده بِيضُ الأَيَادِى

السحت : الحرام ، وشحب لونه : تغير من هزال أو جوع أو سفر ، وبيض الأيادى من إضافة الصفة للموصوف ، والمراد بالأيادى : النعم .

فقد وشى واش إلى القاضى أحمد بن أبى دؤاد وزير المعتصم ، فزعم أن أبا تمام هجاه ، فأراد أبو تمام بهذا البيت : أن يدفع عن نفسه هذه الوشاية ، فقال : « كيف أهجوك ، وقد غمرنى معروفك ؟ ، لو فعلت لكنت آكلا له حراما ، وأنا لا آكل المعروف حراما » .

فلم يرد أبو تمام أن هناك شخصاً آخر هو الذى يفعل ذلك ، وإنما أراد أن ينفى عن نفسه هذا الأمر بطريق الكناية .

وأنت تحس أن هذا الأسلوب الكنائى أبلغ وأقوى من الأسلوب الصريح ؛ لأنه كدعوى الشىء ببينه ، على ما رأيت فى «مثل» ، وذلك أننا إذا حكمنا على غيرنا على سبيل العموم بحكم لزم ثبوت ضده لنا ، فإذا نفينا عن غيرنا أمرا ، لزم ثبوت ضده لنا ، وإذا أثبتنا له أمراً لزم نفيه عنا ، فالذى يقول : غيرك لا يجود ، نفى عن غير المخاطب الجود ، فلزم إثباته له ،

أما إذا قصد المتكلم المعنى الحقيقى الظاهر ، وهو الحكم على مغاير لما أضيف إليه «غير» فليس مما معنا ومثال ذلك قول ابن شرف القيروانى :

غيرِى جَنَى وأنا المُعَاقَبُ فيكم ... فكأنَّنِى سَبَّابَةُ المتندِّم

فالشاعر يريد : أن شخصاً غيره هو الذى جنى ، وأما هو : فقد عوقب بدون جناية(١) .

٥ — تقديم المسند إليه للدلالة على سلب العموم . أو عموم السلب .

من أسرار ودقائق «النظم» التى تهم البليغ والمتلقى ، استعمال لفظ «كل»(٢) .

إذا تأملنا الأساليب البلاغية ، نجد أن البليغ يقدم أداة النفى على لفظ «كل» ، ليفيد سلب العموم والشمول ، عما أضيف إليه لفظ «كل» ؛ فيقتضى ذلك : ثبوت الفعل لبعض ، ونفيه عن بعض .

---

(١) راجع فى ذلك «دلائل الإعجاز» ص ٩١ – ٩٣ ، وبغية الإيضاح ج١ ص١٢٣-١٢٦ ، دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبدالقاهر ص ٢٨٣-٢٨٥

(٢) راجع فى ذلك : «دلائل الإعجاز» ص ١٨٢ — ١٨٧ لعبد القاهر الجرجانى تصحيح المراغى .

وتجده حينا آخر يقدم لفظ «كل» على أداة النفى ؛ ليفيد عموم السلب وشموله لكل ما أضيف إليه لفظ «كل» . أو ما فى معناه : كجميع وعامة.

فمثال : تقديم أداة النفى على كلمة «كل» لفظا لإفادة سلب العموم والشمول قول أبى الطيب :

مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى المرءُ يُدْرِكُهُ ... تَأْتِى الرِّيَاحُ بِمَالَا تَشْتَهِى السُّفُنُ

والمعنى : أن المرء قد يدرك بعض ما يتمناه وقد لا يدرك بعضه .

وقول أبى العتاهية .

ما كُلُّ رأي الفتى يَدْعُو إلى رَشَد ... إذا بدا لك رأيٌ مُشْكِل فَقِفِ

والمعنى : أن بعض رأى الفتى قد يدعو إلى رشد وبعضه قد لا يدعو .

وذلك لأن أداة النفى إذا تقدمت على كلمة «كل» ، توجه النفى إلى الشمول خاصة ، دون أصل الفعل ، وأفاد الكلام ثبوته لبعض ، ونفيه عن بعض ؛ ووجه ذلك : أن الكلية نوع من التقييد : والنفى إذا اتجه إلى كلام مقيد بقيد ، فإنه ينصب خاصة على هذا القيد ،

ولو قدمت «كلا» على أداة النفى ، فقلت : كل ما يتمنى المرء لايدركه ، وكل رأى الفتى لايدعو إلى رشد ؛ لتغير المعنى ؛ ولصار بمنزلة أن يقال : إن المرء لايدرك شيئاً مما يتمناه ، ولا يكون فى رأى الفتى ما يدعو إلى رشد بوجه من الوجوه.

ومنه إذا قلت : «ماجاء القوم كلهم» ، و«ما جاء كل القوم» ، و«لم آخذ الدراهم كلها» . و«لم آخذ كل الدراهم» .

ومثال : تقديم أداة النفى على كلمة «كل» تقديرا لإفادة سلب العموم والشمول أيضاً ، قولهم : «كل الدراهم لم آخذ» بنصب كل؛ لأنها تكون حينئذ — قدمت على الفعل المنفى «وأعمل فيها ، والمعمول رتبته التأخر عن العامل .

والمعنى : أنه أخذ بعض الدراهم دون بعض .

ومثال : تقديم كلمة « كل » على أداة النفى لافادة عموم السلب أن تقول « كلهم لا يأتيك » ، و « كل ذلك لا يكون » ، و « كل هذا لا يجوز » ، فتنفى أن يأتيه واحد ، وتأبى أن يكون أو يجوز شىء مما أشرت إليه :

ومنه قول ابراهيم النبهانى الطائى فى الرثاء :

فكيف ، وكُلٌّ لَيْسَ يَعْدُو حِمَامَه
ولا لامرىء عما قضى الله مُزْحَلُ ؟

الحمام : قضاء الموت وقدره ، ومزحل : زوال ، أى : مفر .

(والمعنى على نفى أن يعدو أحد من الناس حمامه ، وذلك أنك إذا بدأت « بكل » ، كنت قد بنيت النفى عليه ، وسلطت الكلية على النفى ، وأعملتها فيه ، وإعمال معنى الكلية فى النفى يقتضى أن لا يشذ شىء عن النفى .

ولو عكست . فقلت : فكيف ، وليس يعدو كل حمامه ؟ ! فأخرت لفظ « كل » عن النفى لأفسدت المعنى ، وصرت كأنك تقول : إن من الناس من يسلم من الحمام ، ويبقى خالدا لا يموت ، وهذا ظاهر بطلانه .

ومنه قول دعبل :

فو الله ما أدرِى بأىِ سهامها
رمتنى ، وكُلٌّ عندنا ليس بالمُكْدِى

أبا الجيد أم مجرى الوشاح وإننى
لأُتْهِم عينيها مع الفاحم الجَعْدِ

المكدى : الذى يحفر ولا يجد ماء ، أى : أن سهامها لا تخطىء المرمى .

الوشاح بالضم : صفان فى سلك من لؤلؤ وجوهر — منظومان

ويختلفان معطوف أحدهما على الآخر . وأبهمه إذا أنسب إليه مايتهم به .

والمعنى : على نفى أن يكون فى سهامها مكرر على وجه من الوجوه .

وتقول للطالب: «كل الدروس لاتهمل» نهى عن إهمال كل درس من الدروس ، وحث على مذاكرتها كلها ، وتقول: «لاتهمل كل الدروس» نهى عن إهمال بعض منها .

وتلاحظ أن النهى فى هذين المثالين : مثل النفى فى إفادة المعنيين .

ومن الواضح فى إفادة عموم السلب قول النبى صلى الله عليه — لما قال له ذو اليدين : أقصرت الصلاة ، أم نسيت يارسول الله ؟ : «كل ذلك لم يكن» أى : لم يكن واحد منهما : لا القصر ، ولا النسيان ، فقال ذو اليدين للنبى ﷺ . «بعض ذلك قد كان» .

ويقول الخطيب : إن دلالة هذا الحديث على ما معنا من وجهين :

أحدهما : أن السؤال «بأم» عن أحد الأمرين لطلب التعيين بعد ثبوت أحدهما عند المتكلم على الإبهام ، فجوابه : إما بالتعيين لأحد الأمرين ، أو بنفى كل واحد منهما ، وقد أجاب النبى بنفى الأمرين أى بعموم السلب ، ولا يصح هنا أن يكون الجواب بنفى أحدهما من غير تعيين ، كما فى سلب العموم .

ثانيهما : ماجاء فى الحديث عند ما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : «كل ذلك لم يكن» قال ذو اليدين : «بعض ذلك قد كان» ، والإيجاب الجزئى وهو «قول ذى اليدين» نقيضه السلب الكلى وهو . قوله ﷺ .

ومن الواضح أيضاً فى تقديم لفظ «كل» لإفادة عموم السلب قول أبى النجم .

قد أصبحتْ أمُّ الخيار تدعى عَلَىَّ ذنبا كُلُّهُ لم أصنع

برفع «كل» كما هي الرواية، لأن المعنى أنه لم يصنع من الذنب قليلا، ولا كثيراً، ولا كلا: مما ادعته عليه، لأن الكلية مسلطة على النفي وعاملة فيه، وواضح أن إعمال معنى الكلية في النفي يقتضي ألا يشذ شيء عن النفي.

ويقول الشيخ عبد القاهر: إن الشاعر فصيح، والفصيح الشائع في مثل هذا البيت نصب لفظ «كل»، حتى لا يكون في البيت تهيئة للفعل — وهو هنا — «لم أصنع» — للعمل ثم قطعه.

وسياق كلام الشاعر: أنه أراد أنها تدعي عليه ذنبا لم يصنع منه شيئاً، لا قليلا، ولا كثيرا، فلو كان النصب مفيدا لذلك، والرفع غير مفيد، لم يعدل عن النصب إلى الرفع، إذ لا ضرورة في العدول عن الفصيح الشائع، لكن الشاعر رأى أن النصب يمنع من هذا المعنى، ويقتضي أن يكون قد أتى من الذنب بعض الذي أدعته ولذلك جاءت الرواية برفع «كل» لتفيد عموم السلب أي أنه لم يفعل شيئا مما أدعته لا قليلا ولا كثيرا، ولا بعضا، ولا كلا.

وهذا !! والذي: عرضناه عليك هو رأي الشيخ عبد القاهر الجرجاني، وقد جعله الخطيب موضع نظر، ولم يوضحه.

وقد وضح ذلك النظر السعد في مطوله، بما يجعلها قاعدة أغلبية لا كلية، إذا يقول معلقا على قول عبد القاهر: «إنا إذا تأملنا وجدنا إعمال الفعل في (كل) والفعل منفي، لا يصلح أن يكون إلا حيث يراد أن بعضا كان وبعضا لم يكن(١)» — قال السعد:

وفيه نظر، لأنا نجده حيث لا يصلح أن يتعلق الفعل ببعض، كقوله

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٨٢.

تعالى : إن الله لا يحب كل مختال فخور (١)) وقوله : (والله لا يحب كل كفار أثيم (٢) ، وقوله : (ولا تطع كل حلاف مهين (٣)) فالحق أن هذا الحكم أكثرى لا كلى (٤)» .

تأخير المسند إليه

ويأتى المسند إليه مؤخراً ، إذا اقتضى المقام تقديم المسند ، أى : أن أغراض تقديم المسند هى نفسها أغراض تأخير المسند إليه ، وسيتضح ذلك فى أثناء بيان أغراض تقديم المسند .

تخريج المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر .

ومن التصرفات التى يحدثها البليغ فى « النظم » ليحقق بها أغراضا بلاغية تكسب الكلام قوة وجمالا ، وتجعل النظم يوحى بالأفكار التى تثير انتباه القارىء والسامع ورود المسند إليه فى الكلام على خلاف مقتضى الظاهر تلبية لاعتبار مناسب اقتضاه الحال .

وصور إيراد المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر كثيرة منها :

١ — وضع المضمر موضع المظهر

إذا تأملنا فى الأساليب العالية ، سنجد البليغ يضع المسند إليه إذا كان ضميرا موضع الاسم الظاهر فى أسلوبين .

---

(١) سورة لقمان آية ١٨
(٢) سورة البقرة آيه ٢٧٦
(٣) سورة القلم آية ١٠
(٤) المنازل ص ١٢٥ .

الأول : أسلوب « نعم وبئس » . مثل : « نعم شاعرا زيد » و « بئس عدوا الجهل » . ففي هذين المثالين نجد المسند إليه ضميرا مستترا ، يعود في المثال الأول إلى « زيد » ويعود في المثال الثاني إلى « الجهل » ، وكان مقتضى الظاهر أن يؤتى بالمسند إليه هنا اسما ظاهرا ، فيقال :

« نعم زيد شاعرا » و « بئس الجهل عدوا » ؛ لأن الضمير يؤتى به إذا تقدم مرجعه أو دلت عليه قرينة ، وليس هنا — في المثالين — مرجع متقدم على الضمير ، أو قرينة تدل عليه . ولكن عدل عن الاسم الظاهر إلى الضمير ؛ لغرض بلاغي ، هو : الإيضاح بعد الإبهام ، أو التفصيل بعد الإجمال ، ليتمكن في ذهن السامع مايعقب الضمير .

فأنت إذا قلت : نعم شاعرا زيد ، فأول كلمة تطرق ذهن السامع هي « نعم » فيعلم منها أنك تريد مدح إنسان ولكنه لايعرف عنه شيئا على التعيين فإذا ماسمع كلمة « شاعرا » علم جنس الممدوح ومن أي صنف من الناس ولكن الأمر مازال مجملا ، أو مبهما عند السامع ، ولذا تراه يطلب مزيدا من الإيضاح ويتشوف لبقية الكلام ، فإذا ماطرق سمعه كلمة « زيد » الممدوح عرفه على التعيين وأرتاحت نفسه ، التي طالما تشوفت ، وانتظرت سماع اسم المخصوص بالمدح .

وهكذا يكون الحال مع « بئس عدوا الجهل » .

وإنما يكون أسلوب « نعم وبئس » من وضع المضمر موضع المظهر ، على رأي من يجعل المخصوص بالمدح أو الذم مبتدأ محذوف الخبر أو خبرا محذوف المبتدأ . أما من يجعل المخصوص مبتدأ ، والجملة قبله خبر ، فلا يكون من هذا الباب لأن الضمير في هذه الحالة ، يكون عائدا على متقدم في الرتبة ، وإن تأخر في اللفظ .

الأسلوب الثاني : مثل قوله تعالى : (قل هو الله أحد) ، وقوله تعالى : (فإنها لاتعمى الأبصار) وقوله (إنه لايفلح الكافرون) .

فالمسند إليه فى الآيات (ضمير شأن أو قصة) ، وهو ضمير غيبة ولم يتقدمه مرجع ، لم تدل عليه قرينة ، وكان مقتضى الظاهر أن يعبر بدلا عنه بالاسم الظاهر .

ولكن جاء المسند إليه ضميرا ؛ لتفخيم الشأن أو القصة ، أو طريق الإجمال والإبهام ثم الإيضاح والتفصيل يساعد على تحقيق الغرض البلاغى المطلوب ،

٢ — وضع المظهر موضع المضمر

وترى البليغ يعكس ، فيضع المظهر موضع المضمر وهذا المظهر الذى حل مكان المضمر ؛ إذا كان اسم إشارة فإنه يحقق أغراضا بلاغية منها .

١ — كمال العناية بالمسند إليه لاختصاصه بحكم بديع ، فيوضع لذلك فى معرض الحس المشاهد ، ومن المشهور فى ذلك قول ابن الراوندى :

كم عاقلٍ عاقلٍ أعْيَتْ مَذاهبُه
وجاهلٍ جاهلٍ بات مَرْزُوقًا
هذا الذى ترك الأوهام حائرةً
وصير العالم النحرير زنديقاً

والشاهد فى اسم الإشارة (هذا) فى البيت الثانى ؛ لأنه يعود إلى الحكم السابق عليه « وهو كون العاقل محروما والجاهل مرزوقا » فالمقام للضمير ، لأن هذا الحكم غير محسوس ، واسم الإشارة موضوع للمحسوس ، والحكم البديع الذى أسند إلى اسم الإشارة ، هو : « جعل الأوهام حائرة والعالم النحرير زنديقا » ، فالمرجع مذكور كما تراه :

وأعيت مذاهبه : أعيته طرق معاشه ، فلا ينال منها إلا قليلا .

الأوهام : المراد بها العقول . العالم النحرير : المتقن للعلوم ، والزنديق الذى يبطن الكفر ويظهر الإسلام أو هو الكافر .

٢ — وقد يأتى البليغ باسم الإشارة مكان الضمير ، ويريد التهكم بالسامع ، وكأن يقول لك أعمى : أتشهد أن عمراً سلب مالى ؟ ، فتقول له : نعم ذالك الذى يقف بجانبك — سواء كان فى جانبه أم لم يكن(١) » وكان الظاهر أن يقول : « هو الذى يقف بجانبك ».

٣ — وترى البليغ يضع اسم الإشارة موضع الضمير ، للنداء على كمال بلادة السامع وللتعريض بغباوته وأنه لا يدرك غير المحسوس بالبصر ، أى لا يدرك إلا المحسوس وذلك مثل قول الفرزدق لجرير :

أولئكَ آبائى فجئْنى بمثلِهم ... إذا جمَعتْنا ياجرير المجامع

فالفرزدق وضع اسم الإشارة (أولئك) وكان يمكنه أن يأتى به ضميرا ، فيقول : « هم آبائى » لتقدم مرجعه فى الأبيات السابقة التى تتحدث عن مفاخر آبائه وأجداده ، ولكنه آثر اسم الإشارة الظاهر عن الضمير ، للتعريض بغباوة جرير ، والتنبيه على كمال بلادته ، ويريد أن يفهمنا أن « جرير » لا يدرك إلا المحسوس بالبصر ، ومعلوم أن اسم الإشارة يدل على مشاهد معين .

٤ — وأحيانا تراه يضع اسم الإشارة موضع الضمير ، للتنبيه على كمال فطانة المتلقى ، وأن غير المحسوس بالبصر عنده ، كالمحسوس عند غيره . « وذلك كقول المدرس بعد تقرير مسألة غامضة .

وهذه عند فلان ظاهرة مد حاله ، وتعريضا بغيره ، فكان مقتضى الظاهر أن يقال : « وهى ظاهرة عند فلان » لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر لخلافه ، للتنبيه على كمال فطانة ذلك السامع ، وأن المعقول صار عنده كالمحسوس .

---

(١) انظر بغية الإيضاح جـ ١ ص ١٣٧

• — أو يدعى البليغ أن الأمر قد كمل ظهوره حتى كأنه محسوس بالبصر، فيضع اسم الإشارة مكان المضمر ومن ذلك قول القائل عند الجدال، وتقرير مسألة أنكرها الخصم: «هذه ظاهرة أو مسلمة» فكان مقتضى الظاهر أن يقال: «وهى ظاهرة»؛ لكنه عدل إلى خلاف الظاهر ادعاء لكمال الظهور»(1).

ومنه فى غير باب المسند إليه؛ قول الشاعر:

تعاللت كى أشجى وما بك علةٌ   تريدين قتلى قد ظفرتِ بذلك

تعالك: أى أظهرت العلة، أشجى: أحزن.

فمقتضى الظاهر أن يقول الشاعر: «قد ظفرت به» فعدل عن الضمير إلى اسم الإشارة؛ لادعاء ظهور القتل، وأنه فى غاية الوضوح بحيث لا يشك فيه أحد، وتحس فى التعبير باسم الإشارة، استبعاد قتله عن غيرها، والحاصل أنها ظفرت بقتله، مع أن استبعاد قتله عن غيرها واضحا فى نفسه.

وإذا كان المظهر الذى وضع مكان المضمر غير اسم الإشارة بأن كان علما، أو معرفا بأل، أو بالإضافة.

ترى البليغ يأتى به، ليحقق أغراضا بلاغية منها:

١ — زيادة التمكين أى التقرير؛ والتثبيت، حتى يكون مستحضرا لا يزول عن الخاطر.

تأمل قوله تعالى: (قل هو الله أحد، الله الصمد)، تجد أن الغرض تقرير اعتقاد عظمة المسند إليه. وإفراده بالصمدية، فاقتضى المقام الإظهار بدلا عن الإضمار الذى هو الأصل. فى قوله تعالى: (الله الصمد)،

---

(1) حاشية الدسوقى حـ١ ص ٤٥٥.

إذ لو قيل فى غير النظم القرآنى : « هو الصمد » كان فى الإضمار إبهام ما ، والمظهر أدل على التمكين ، الذى يناسب التعظيم ، والإفراد بالصمدية[١] .

ومثله فى إفادة الغرض البلاغى السابق وليس من باب المسند إليه قوله تعالى : (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل)[٢] .

والمعنى : وبالأمر الثابت المحقق وهو الحكمة المقتضية للإنزال من هداية الخلق ، وتحقيق حجة السعادة والشقاوة ، أنزل الله القرآن بالحق أى بتلك الحكمة نزل .

فكان مقتضى الظاهر أن يقال : « وبه نزل » فترك الضمير فى « به » وأتى بالاسم الظاهر « وبالحق نزل » لزيادة التمكين والتثبيت ، لأن المقام مقام تقرير حكمة الإنزال .

وتدبر الآية الكريمة : (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم ، فأنزلنا على الذين ظلموا)[٣] الذين ظلموا هم : اليهود .

يقص الله علينا أخبارهم فلقد أنقذهم من التيه ، وأمرهم أن يدخلوا قرية « أريحاء » ، متواضعين لله ، وأن يأكلوا هنيئا من خيراتها ، ويقولوا عند دخول بابها . طلبنا منك يارب حط وإسقاط خطايانا عنا ، فيغفر الله للمخطىء منهم ، ويزيد المحسن إحسانا ، فبدل الظالمون منهم كلمة (حطة) بكلمة (حنطة) بالنون استهزاء بما قيل لهم ، كما يفعل السفهاء ، فالنظم القرآنى يريد أن يسجل عليهم ويقرر ظلمهم فقال : (فأنزلنا على الذين ظلموا) وكان يمكن — فى غير النظم القرآنى — أن يقال : « فأنزلنا عليهم » ولكن وضع

---

(١) انظر مواهب الفتاح حـ ١ ص ٤٥٧
(٢) سورة الإسراء آية : ١٠٥
(٣) سورة البقرة آية : ٥٩

الاسم الظاهر « على الذين ظلموا » مكان « عليهم » لزيادة التقرير والتثبيت.
ولا يخفى عليك أن « على الذين ظلموا » جار ومجرور ؛ فهو ليس من باب المسند إليه.

ومن غير باب المسند إليه قول الشاعر :

إن تسألوا الحق نعط الحق سائله والدرع محقبة والسيف مقروب

والمحقبة : المشدودة فى الحقيبة ، والمقروب : الموضوع فى قرابه والمعنى إن تطلبوا الحق نعطكم إياه ، فوضع الظاهر « الحق » موضع الضمير لزيادة التقرير وتمكين المعنى فى ذهن السامع.

٢ — تقرأ بعض الأساليب فتجد المظهر قد وضع مكان المضمر ، وتتأمل ، فتجد الغرض منه إدخال الروع فى نفس السامع ، وتربية المهابة ، أو طلب امتثال ما أمر به المتكلم مثالها : قول الخلفاء : أمير المؤمنين يأمرك بكذا ، فإن مقتضى الظاهر أن يقول : « أنا آمرك بكذا » لأن المقام للتكلم ، ومعلوم أن إسناد الأمر إلى لفظ أمير المؤمنين دون الضمير الذى هو « أنا » موجب لتقوية الداعى على الامتثال وتربية المهابة.

وعليه من غير باب المسند إليه . قوله تعالى : « فإذا عزمت فتوكل على الله »(١) ، والمعنى : يقول الله لنبيه ﷺ : فإذا قطعت برأى بعد المشاورة ، فثق بربك ، وأنت قادم على العمل ، وتوكل على

فمقتضى الظاهر أن يقال : « فتوكل على » ، لأن المقام للمتكلم ، فعدل عن ضمير المتكلم إلى المظهر ، وهو لفظ الجلالة ، لما فيه من تقوية الداعى إلى امتثال أمر التوكل.

٣ — ويوضع المظهر غير اسم الإشارة مكان المضمر للاستعطاف مثاله قول الشاعر :

إلهى عبدك العاصى أتاكا مقرًا بالذنوب وقد دعاكا

(١) سورة آل عمران آية : ١٥٩

فإنْ تَرْحَم فأنْتَ لذاك أهْــل　　　وإن تطرد فمن يرحم سواك

ومقتضى الظاهر أن يقال : أنا أتيتك عاصيا ، فجاء بالاسم الظاهر الذى هو لفظ « العبد » بدلا من الضمير « أنا » لما فى الإشعار بالعبودية المنسوبة لرب العزة من ترقب الرحمة ، واستحقاق العطف ، والشفقة .

٣ — الإلتفات

من التصرفات التى تحدث فى « النظم » بلاغة ودقة وجمالا ، أسلوب الالتفات ، وهو من صور إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، وهو ليس خاصا بالمسند إليه ، وللسكاكى رأى فى حصر صور الالتفات يخالف رأى الجمهور .

فالالتفات عند السكاكى هو : التعبير عن المعنى بطريق من الطرق الثلاثة التى هى : التكلم والخطاب والغيبة — مخالف لمقتضى الظاهر ، سواء سبقه تعبير آخر بإحدى هذه الطرق ، أو لم يسبقه وذلك كقول ربيعة بن مقروم :

بَانَتْ سُعَادُ فَأمْسَى القلبُ معمودَا　　　وأَخْلَفَتْكَ ابنةُ الحُرِّ المواعيدَا

المعمود الحزين، وابنة الحر : هى سعاد ، من وضع المظهر موضع المضمر .

والبيت فيه التفات على رأى السكاكى حيث لم يقل : « وأخلفتنى » ، ولا مانع أن يكون هذا الأسلوب من قبيل التجريد ، حيث جرد من نفسه شخصا آخر ، وخاطبه فقال : « وأخلفتك » بدل « وأخلفتنى » .

وقال الشاعر أيضا :

تذكرت والذكرى تَهِيجُكَ زينبا　　　وأصبح باقى وصلها قد تَقَضَّبَا

وحل بِفَلْجٍ فالأَبَاتِرِ أهلُنا　　　وَشَطَّتْ فَحَلَّتْ غمرةً فمثقبا

تقضب : انقطع . وفلج والأباتر وغمرة ومثقب : مواضع ، وقوله : « شطت » بمعنى بعدت ، والشاهد فى البيت الأول : « تهيجك » حيث لم يقل « تهيجنى » فالتفت من التكلم إلى الخطاب .

وفى البيت الثانى : إلتفات من الخطاب إلى التكلم حيث قال « أهلنا » ولم يقل أهلك كما يقتضى السياق ، ويجوز أن يكون ما فى البيتين من قبيل التجريد ، والحق أن المعنى يقوى ، إذا اعتبرنا ما فى الأبيات السابقة من قبيل التجريد ، حيث أن مواقف الحنين تقتضى أن يجرد المتكلم من نفسه شخصا آخر ، يخاطبه فيفرغ ما فى نفسه .

وعلى كل فالأسلوب تحس فيه بلاغة وقوة وجمالا .

والمشهور عند الجمهور أن الإلتفات هو : التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة وهى : التكلم والخطاب والغيبة بعد التعبير عنها بطريق آخر منها ، كأن يعبر عنه أولا : بالغيبة ثم يعبر عنه ثانيا بالخطاب ، كما سترى فى الأمثلة التى ستعرض عليك ،

ويشترط الجمهور أن يكون التعبير الثانى على خلاف ما يقتضيه الظاهر ويترقبه السامع ، فيخرج عن معنى الإلتفات ، مثل قول القائل : « أنا زيد » و « أنت عمرو » ، « ونحن اللذون صبحوا الصباحا » .

فإن التعبير بكل من « زيد » و « عمرو » و « اللذون » وهى أسماء ظاهرة ، من قبيل الغيبة ،

هذا وإن كان يصدق على كل منها : أنه قد عبر فيه عن معنى . وهو الذات بطريق الغيبة ، بعد التعبير عنه بطريق آخر وهو التكلم فى الأول والثالث ، والخطاب فى الثانى . إلا أن التعبير الثانى يقتضيه ظاهر الكلام ، ويترقبه السامع ، لأن المتكلم إذا قال : أنا ، وأنت ، ونحن ، ترقب السامع أن يأتى بعده باسم ظاهر يكون خبرا عنه ، لأن الإخبار عن الضمير إنما يكون بالاسم الظاهر ، وإن كان من قبيل الغيبة عن ضمير المتكلم أو المخاطب ، إلا أنه جار على ظاهر ما يستعمل فى الكلام :

ويخرج كذلك نحو قوله تعالى : (وإياك نستعين) فإنه وإن عبر عن المعنى ، وهو الذات العلية بطريق الخطاب بعد التعبير عنها بآخر ، وهو الغيبة ، فى قوله تعالى :

(مالك يوم الدين) إلا أن هذا التعبير على مقتضى الظاهر ، لأن الإلتفات حصل أولا : بقوله : (إياك نعبد) والثانى وهو (إياك نستعين) أتى على أسلوبه ، ولأن الإنتقال فيه من الخطاب وهو : (إياك نعبد) إلى خطاب آخر وهو: (وإياك نستعين) ، فكل واحد من قوله : (وإياك نستعين) و(اهدنا) و (أنعمت) : إذا نظرت له مع قوله : (مالك يوم الدين) يصدق عليه أنه انتقال من طريق إلى طريق آخر . لكنه ليس على خلاف مقتضى الظاهر ، بل جار على مقتضى الظاهر ، لأنه لما التفت للخطاب صار الأسلوب له . فهو خارج(١) عن الإلتفات .

وعلى ذلك يكون الإلتفات بتفسير الجمهور أخص منه بتفسير السكاكى، لأن النقل عنده أعم من أن يكون قد عبر عنه بطريق من الطرق الثلاثة ، ثم عبر عنه بطريق آخر ، أو يكون مقتضى الظاهر أن يعبر عنه بطريق فترك وعدل إلى طريق آخر ، فيتحقق الالتفات بجملة واحدة عند السكاكى، وعند الجمهور يتحقق بجملتين ، فكل التفات عند الجمهور التفات عند السكاكى ولا عكس .

وصور الإلتفات عند جمهور البلاغيين ست :

١ — التفات من التكلم إلى الخطاب كقوله تعالى : حكاية عن حبيب النجار فى موعظة قومه فى الإيمان : «ومالى لا أعبد الذى فطرنى ، وإليه ترجعون»(٢) والمعنى : أى مانع من جانبى يمنعنى من عبادة الذى خلقنى، ثم

---

(١) حاشية الدسوقى ص٤٦٥، ٤٦٦

(٢) سورة يس آية ٢٢ :

رجع إلى خطابهم : لبيان : أنه ما أراد نفسه . بل أرادهم بكلامه فقال : (وإليه ترجعون) ولم يقل : إليه أرجع ، ففيه التفات من التكلم إلى الخطاب للمبالغة في التهديد .

٢ — التفات من التكلم إلى الغيبة ، قوله تعالى : (إنا أعطيناك الكوثر، فصل لربك وانحر)(١) .

والمعنى : إنا أعطيناك يا محمد الخير الكثير البالغ فى الكثرة إلى الغاية : فقوله : (إنا أعطيناك) تكلم ، وقوله : (لربك)غيبة ، لأن الاسم الظاهر من قبيل الغيبة ، فهو التفات من التكلم إلى الغيبة ، والأصل فصل لنا ، وبلاغة الالتفات فى الآية تأتى من أن فى لفظ الرب حثا على فعل المأمور به ، لأن من يربيك يستحق العبادة ، وفيه إزالة الإحتمال أيضا ، لأن قوله : (إنا أعطيناك الكوثر) ليس صريحا فى إفادة الإعطاء من الله ، وأيضا كلمة (إنا) تحتمل الجمع كما تحتمل الواحد المعظم نفسه ، فلما التفت بقوله: (فصل لربك) زال هذان الاحتمالان)(٢) ،

٣ — التفات من الخطاب إلى التكلم قول علقمة بن عبدة العجلى :

طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الحِسَانِ طَرُوبُ
بُعَيْدَ الشَّبَابِ عَصْرَ حَانَ مَشِيبُ

تكلفنى ليلى وقد شط وليها وعادت عواد بيننا وخطوب

طحا : ذهب : بعيد : تصغير بعد ، وإنما صغره للإشارة إلى أن ذلك الوقت قريب من عنفوان الشباب ، وفى تصغيره أيضا إدعاء القرب من الشباب .

---

(١) سورة الكوثر آية : ١، ٢

(٢) أنظر حاشية الدسوقى ج ١ ص ٤٦٨

والشاهد : أن الشاعر التفت فى قوله « تكلفنى » عن قوله «بك» من الخطاب إلى التكلم ، والأصل «تكلفك» .

٤ — إلتفات من الخطاب إلى الغيبة ، قوله تعالى : (حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم) فقد التفت عن (كنتم) وهو خطاب — إلى بجرين بهم ، وهو للغيبة ، والأصل : وجرين بكم .

٥ — إلتفات من الغيبة إلى الخطاب ، كقوله تعالى : (مالك يوم الدين ، إياك نعبد) فقد التفت عن الغيبة ، وهى : (مالك) إلى الخطاب ، وهو : (إياك نعبد) .

٦ — التفات من الغيبة إلى التكلم ، كقوله تعالى : (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه)(١) .

والمعنى : أخبر سبحانه عن نوع من أنواع بديع صنعه ، وعظيم قدرته ، ليتفكروا فى ذلك ويعتبروا به ، « فتثير سحابا » جاء بالمضارع بعد الماضى « أرسل » : استحضارا للصورة ، لأن ذلك أدخل فى اعتبار المعتبرين ، ومعنى كونها « فتثير » السحاب : أنها تزعجه من حيث هو (فسقناه إلى بلد ميت) .

فقد عبر أولا : باسم الجلالة (الله الذى) موصوفا باسم الموصول ، وعاد عليه ضمير الغيبة (فاعل أرسل) ، فكان الأصل أن يساق الكلام على طريق الغيبة .

فيقال : فساقه ، أى : فساق الله ذلك السحاب إلى بلد ميت فأحياه به ، ثم عدل عنها إلى التكلم .

(١) سورة فاطر آية ٩

فقال : فسقناه ، فوقع الإلتفات :

قال امرؤ القيس :

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بالأَثْمُدِ ... وَنَامَ الخَلِيُّ ولم تَرْقُدِ

وبات وباتت له ليلةٌ ... كليلةِ ذي العائرِ الأَرْمَدِ

وذلك من نبأٍ جاءني ... وخُبِّرْتُهُ عن أبي الأسْوَدَ

الأثمد ؛ بفتح الهمزة وضم الميم : اسم موضع ويروى بكسرهما.
والعائر : قذى تدمع منه العين.

والأبيات قيل : لامرىء القيس بن حجر الجاهلي ، وقيل لامرىء القيس ابن عابس الصحابي . وقيل لعمرو بن معديكرب :

وفي الأبيات ثلاث التفاتات : الأول : من التكلم إلى الخطاب ، وذلك في البيت الأول ، وهذا ظاهر على مذهب السكاكي حيث أن الشاعر : كان عليه أن يبدأ الكلام بضمير المتكلم فعدل عنه إلى ضمير الخطاب :

فقال : « تطاول » ، الالتفات الثاني : عدوله عن الخطاب إلى الغيبة كما في البيت الثاني :

أما الالتفات الثالث : فهو التفاته عن الغيبة إلى التكلم ، وذلك في البيت الثالث ، والجمهور على أن البيت الأول من قبيل التجريد .

بلاغة الإلتفات

الالتفات من محاسن « النظم » ، قال الإمام محمود بن عمر الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ه من الهجرة النبوية فى صدر تفسيره لسورة الفاتحة . فى أثناء ذكره لمحاسن الالتفات .

« وذلك على عادة افتنان (العرب) فى الكلام وتصرفهم فيه ؛ ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب ، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع ، وإيقاظا للإصغاء إليه — من إجرائه على أسلوب واحد[1] » . ولقد صدق الزمخشرى ؛ فالنظم الحى هو الذى يشدك إليه ، ويحفزك على التفكير والتأمل فيه ، ويربى عندك ملكة التذوق للقول الفنى الجميل .

« وقد[2] تختص مواقعه بلطائف كما فى سورة الفاتحة ، فإن العبد إذا افتتح حمد مولاه الحقيق بالحمد ، عن قلب حاضر ، فإنه يجد من نفسه محركا للإقبال على ذلك الحقيق بالحمد ، وكلما أجرى عليه صفة من تلك الصفات العظام ، المفيد أولها : أنه المتولى لتدبير جميع العالمين ، وأنه مالك جميع الأمور فى يوم الجزاء ، قوى ذلك المحرك فى نفسه ، وأقبل على ذلك الحقيق بالحمد ، بغاية الخضوع وطلب الاستعانة به فى المهمات ، ووجب خطابه بقوله : (إياك نعبد ، وإياك نستعين) وكما فى قوله تعالى : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله ، واستغفر لهم الرسول[3]) ، لم يقل : —

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ، جـ ١ ص ٨ ، الطبعة الثانية ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٩٥٣م ١٣٧٣ هـ .

(٢) أنظر بغية الإيضاح جـ١ ص ١٤٦

(٣) سورة النساء آية ٦٤

واستغفرت لهم ـ وعدل عنه إلى طريق الإلتفات ، تفخيما لشأن رسول الله ﷺ ، وتعظيما لإستغفاره ، وتنبيها على أن شفاعة من اسمه الرسول ـ من الله بمكان » .

٤ — أسلوب الحكيم

ومن التصرفات التي تحدث في « النظم » ، وتدل على قوة ذكاء المتكلم ، وحسن تخلصه . وتكشف عن عبقرية اللغة ، حيث نجدها معك في مواقع ضيقة، ومآزق حرجة ، فتجد لسانك قد نطق بكلمات عذبة،وعبارات رقيقة، تأخذ بيدك وتقيل عثرتك ، وإذا أردت أن تقف على ذلك الخير الجزيل ، فسوف تراه في عرض أسلوب الحكيم .

وهو من صور إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، وليس مختصا بالمسند إليه ، وهو نوعان(١) :

١ — تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده ، تنبيها على أنه الأولى بالقصد ، وذلك مثل قول ابن القبعثري للحجاج لما قال له متوعدا بالقيد ـ لأحملنك على الأدهم : «مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب» ، فإنه أبرز وعيده في معرض الوعد ، وأراه بألطف وجه أن من كان على صفته في السلطان ، وبسطة اليد ، لجدير بأن يصفد لا أن يصفد(٢).

وكذا قوله له لما قال له في الثانية ـ إنه حديد : « لأن يكون حديدا خير من أن يكون بليدا .

---

(١) راجع بغية الإيضاح جـ١ ص ١٤٧-١٤٩ .

(٢) أي جدير بأن يعطى لا أن يقيد ، لأن الإصفاد هو: الإعطاء من الصفد ، وهو : العطاء ، ويقال : صفده يصفده بمعنى قيده

٢ ـ تلقى السائل بغير ما يتطلب ، بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها للسائل على أن ذلك الغير هو الأولى بحاله ، أو المهم له .

تقول الآية الكريمة (يسألونك عن الأهلة ، قل هى مواقيت للناس والحج(١)) ، روى أن معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم الأنصارى قالا : يارسول الله ، ما بال الهلال يبدو دقيقا مثل الخيط ، ثم يزيد حتى يمتلىء ويستوى ، ثم لايزال ينقص حتى يعود كما بدأ ، لايكون على حالة واحدة(٢) ؟

فأجاب القرآن : (قل : هى مواقيت للناس والحج) ، وفيه بيان وجه الحكمة فى زيادة الهلال ونقصانه ، وأن ذلك لأجل بيان المواقيت التى يوقت الناس عباداتهم ومعاملاتهم بها كالصوم والفطر والحج ومدة الحمل والعدة والإجارات والأيمان وغير ذلك ، وهذا الجواب : (قل هى مواقيت) من الأسلوب الحكيم ، تنبيها على أنه الأولى بالقصد ، ووجه ذلك أنهم سألوا عن أجرام الأهلة باعتبار زيادتها ونقصانها ، فأجيبوا بالحكمة التى كانت تلك الزيادة والنقصان لأجلها ، لكون ذلك أولى بأن يقصد السائل ، وأحق بأن يتطلع لعلمه .

وتأمل قوله تعالى : (يسألونك ماذا ينفقون ، قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل(٣)) .

السائلون هم المؤمنون ، سألوا عن الشىء الذى ينفقونه ما هو ؟

فأجيبوا ببيان المصرف الذى يصرفون فيه ، تنبيها على أنه الأولى بالقصد ، لأن النفقة لا يعتد بها إلا أن تقع موقعها : قال الشاعر :

إن الصنيعة لا تكون صنيعة ... حتى يصاب بها طريق المصنع
فإذا صنعت صنيعة فاعمد بها ... لله أو لذوى القرابة أو دع

---

(١) سورة البقرة آية : ١٨٩ (٢) الكشاف جـ ١ ص ١٧٦
(٣) سورة البقرة آية : ٢١٥

يقول : إن العطية لا تكون عطية حقيقة حتى تكون فى موضعها ، فكنى بإصابة الطريق عن إيصالها إلى المقصد ، وهو يستحقها ، وقوله : « فاعمد بها » أى اقصد بها ، وضمنه معنى اذهب بها ، فعداه باللام ، وقوله : أودع » ، أى : اترك ، لأنه ليس بعد هذه المصارف إلا الفخر(١) .

٥ - التعبير عن المستقبل بلفظ الماضى

ومن أجل التنبيه على تحقق وقوع الفعل، ترى البليغ يعبر عن المستقبل بلفظ الماضى ، فيبث الثقة والأمل فى نفس السامع بأن المراد من الكلام محقق الوقوع .

ومثال ذلك قوله تعالى : (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله(١)) والمعنى : هذه هى النفخة الأولى، والصور : هو القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل، صعق : زالت عقولهم فخروا مغشيا عليهم، وقيل: مات من شدة الفزع، وشدة الصوت أهل السموات والأرض، والاستثناء فى قوله : (إلا من شاء الله) متصل ، والمستثنى جبريل وميكائيل وإسرافيل، وقيل : رضوان ، وحملة العرش ، وخزنة الجنة والنار ، وقيل لا يعلمهم إلا الله .

(فالصعق يقع فى المستقبل ، وعبر عنه بصيغة الماضى - كما رأينا تنبيها على التحقق . والأصل « فيصعق » من فى السموات ومن فى الأرض .

ثم التعبير عن المستقبل بلفظ الماضى يحتمل أن يكون من المجاز المرسل والعلاقة بين المستقبل والماضى من التضاد ، والضد أقرب خطورا بالبال ،

---

(١) انظر الكشاف ج ١ ص١٩٥ هامش
(٢) سورة الزمر آية : ٦٨

فبينهما شبه المجاورة، لتقارنهما غالبا فى الخيال، وعليه فتنتفى المبالغة المقصودة، وهى الإشعار بتحقق الوقوع. وأن المستقبل كالماضى، لأن المجاز المرسل ليس فيه إلا أبلغية كون التعبير فيه كدعوى الشىء ببينة على ما سيأتى عند عرضنا للمجاز المرسل.

ويحتمل أن يكون من مجاز التشبيه، ووجه الشبه تحقق الوقوع فى كل منهما، وهو فى الماضى أظهر لبروزه إلى الوجود، فيفيد المبالغة(١).

وتقول الآية الكريمة: (ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة. وحشرناهم، فلم نغادر منهم أحدا)(٢) والمعنى: والباقيات الصالحات خير عند ربك، يوم إزالة الجبال من أماكنها، وتسييرها كما تسير السحاب، (وترى الأرض بارزة) وكل من يصلح منه الرؤية يمكنه أن يرى الأرض واضحة مكشوفة. لزوال ما يسترها من الجبال والأشجار والبنيان، أو يرى ما فيها من الكنوز والأموات. والحشر: الجمع. والمعنى جمعناهم إلى الموقف من كل مكان.

فالحشر يقع فى المستقبل، وعبر عنه بصيغة الماضى «حشر» كما رأيت، تنبيها على تحقق الوقوع، والأصل: فنحشر الخلائق جميعاً، وقوله تعالى: (ونادى أصحاب النار(٣)) وقوله تعالى (ونادى أصحاب الأعراف(٤)) فالنداء فى المستقبل، وعبر عنه بصيغة الماضى (نادى)، لأنه جعل المتوقع الذى لابد من وقوعه بمنزلة الذى تحقق وقوعه.

---

(١) راجع مواهب الفتاح ج ١ ص ٤٨٥
(٢) سورة الكهف آية: ٤٧
(٣) سورة الأعراف آية: ٥٠
(٤) سورة الأعراف آية: ٤٨

وعن حسان بن ثابت أن ابنه عبد الرحمن لسعه زنبور وهو طفل فجاء إليه يبكي ، فقال له : يا بني ، مالك ؟ قال : « لسعني طوير كأنه ملتف في بردي حبرة » فضمه إلى صدره وقال : « يا بني ، قد قلت الشعر » والمعنى : ستقول الشعر في المستقبل .

وقوله تعالى : (وإن الدين لواقع(١)) فقد عبر باسم الفاعل الذي يدل على الوقوع في الحال ، ـ وهو : لفظ « واقع » مكان « يقع » ، لأن وقوع الدين أي الجزاء استقبالي إن أريد الجزاء الأخروي ، وإن أريد الدنيوي كان التعبير على أصله .

ومنه قوله تعالى : (ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود(٢)) فقد عبر بمجموع مكان يجمع لأن الجمع يكون في المستقبل .

٦ - التعبير عن الماضي بلفظ المضارع

وترى البليغ يعكس فيعبر عن الماضي بلفظ المضارع إحضارا للصورة العجيبة ، وإشارة إلى تجدده شيئاً فشيئا كقوله تعالى : (والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا) أي فأثارت وقوله تعالى:(واتبعوا ما تتلوا الشياطين(٣) أي ما تلت .

٧ — القلب

القلب من صور إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، وليس مختصا بالمسند إليه :

---

(١) سورة الذاريات آية : ٦
(٢) سورة هود آية : ١٠٣
(٣) سورة البقرة آية : ١٠٢

قال البلاغيون فى تعريفه : أن يجعل المتكلم أحد أجزاء الكلام مكان الآخر ، والآخر مكانه ، على وجه يثبت حكم كل منهما للآخر ، وهو ضربان :

١ — أن يكون الداعى للقلب من جهة المعنى ؛ لتوقف صحته عليه ، ويكون اللفظ تابعا ، وذلك مثل قولهم : « عرضت الناقة على الحوض » ، والأصل : « عرضت الحوض على الناقة » ؛ لأن المعروض عليه ، يجب أن يكون ذا شعور واختيار ، لأجل أن يميل للمعروض ، أو يحجم عنه .

والسبب فى هذا القلب هو : أن المعتاد أن يؤتى بالمعروض للمعروض عليه ، وهنا لما كانت الناقة يؤتى بها للحوض ، والحوض باق فى محله ، نزل كل واحد منهما منزلة الآخر ، فجعلت الناقة كأنها معروضة ، والحوض كأنه معروض عليه وثبت حكم الحوض للناقة ، وحكم الناقة للحوض ؛ فقلبوا لأجل هذا الاعتبار ، وتحقيقاً أن هذا المثال يعبر عن نفسية العرب نحو الماء ، وفرحتهم بوجوده ويسره لهم ، فالقائل يعبر عن فرحته بوجود الماء فى الحوض بعد أن كان خاليا ، فأصبح الحوض فى يده وتحت تصرفه ، فكأنه ملكه بيده وذهب به إلى الناقة وعرضه عليها لتروى ظمأها ، فهى حياته ؛ منها يشرب ويأكل ، ومن وبرها يستظل وعلى ظهرها يحمل أثقاله .

ومنه قولهم : « أدخلت الخاتم فى الأصبع » ، و « القلنسوة فى الرأس » والأصل : « أدخلت الأصبع فى الخاتم » ، « والرأس فى القلنسوة » ؛ فالقلنسوة والخاتم ظرف ، والرأس والأصبع مظروف ؛ والعادة جرت بأن يتحرك بالمظروف نحو الظرف ، ولكن الأمر هنا بالعكس ، تجد الشخص يتحرك بالظرف (القلنسوة والخاتم) نحو المظروف (الرأس والإصبع فقلبوا الكلام رعاية لهذا الاعتبار ، فنزل أحدهما منزلة الآخر ، وثبت حكم الخاتم للأصبع ، وحكم القلنسوة للرأس .

٢ — ثانيهما : أن يكون الداعى إليه من جهة اللفظ ، بأن تتوقف

صحة اللفظ عليه ، ويكون المعنى تابعا كما إذا وقع ماهو فى موقع المبتدأ نكرة ، وماهو فى موقع الخبر معرفة كقول الشاعر :

قفى قبل التفرق ياضباعا ولايك موقف منك الوداعا

ضباعا : اسم ابنته والألف فيها للإطلاق ، وأصلها ضباعة ، فرخمها فالشاعر لما عرف « الوداع » وهو فى موضع الخبر ، ونكر « موقف منك » وهو موضع المبتدأ ، جعل من باب القلب لتصحيح مقتضى الأصل، من تعريف الأول ، وتنكير الثانى ، فيكون المعنى على أن الأصل الإخبار بالأول عن الثانى ، فالتقدير ولا يكن موقف الوداع موقفا منك . ولو كان الشاعر نكر لفظ « الوداع » لصح المعنى على ظاهره ، واستغنينا عن تقدير القلب فى الأسلوب ، لأنه حينئذ يكون الأسلوب جاء على الأصل من تعريف المبتدأ ، وتنكير الخبر كما هو رأى النحاة .

آراء البلاغيين فى أسلوب القلب

وهذا القلب قبله السكاكى مطلقا ؛ لأنه يدل على الأصل الذى يقول به النحاة ، وهو : أنه إذا اجتمع اسمان أحدهما معرفة والآخر نكرة فالمعرفة هو المبتدأ والنكرة هى الخبر . ولأنه أيضا مما يورث الكلام ملاحة ؛ فإن قصد بها المطابقة كان من فن المعانى ، والأصح أن يعد من فن آخر ، ويوجد هذا القلب فى التشبيه المعكوس ، وهو من مبادىء علم البيان ، وفى السرقات الشعرية : على ما يأتى إن شاء الله تعالى : والظاهر أن السكاكى يقبل أسلوب القلب ولو أوهم خلاف المراد كقول قطرى ابن الفجاءة :

ثم انصرفتُ ، وقد أصَبْتُ ولم أُصَبْ
جَذَعَ البصيرةِ قارحَ الإقْـدام

يقال : فلان جذع : إذا كان حديث السن ، وقارح : إذا كان قديما.

لجذوع البصيرة هي : كون القائل لم يجرب الأمور ، وقروح الإقدام : كونه مقدما إقدام أهل العقل والسن القديم :

والقائل يمكنه اتصافه بالأمرين ، وهو عكس المراد ؛ لأن المقصود وصفه ببصيرة القارح ، وإقدام الجذع ؛ لأن ذلك هو المدح ، ولذلك يتمدح بأقدام الغرور أي المجرب .

فالأصل على هـــذا أن يقال : ثم انصرفت قارح البصيرة ، جذع الإقدام ، والحال أني أصبت أي : جرحت ولم أجرح ، فهو قلب يوهم خلاف المراد .

ويحتمل أن يكون جذع البصيرة ، وقارح الإقدام متعلقين بقوله : ولم أصب ، بمعنى : لم أوجد ؛ فيكون الكلام على ظاهره ، اي : لم اوجد موصوفا بجذوع البصيرة ، وقروح الإقدام بل وجدت بالعكس .

وقد أنكر قوم القلب مطلقا ، سواء تضمن اعتبارا لطيفا زائدا على مجرد ملاحة القلب التي هي التنبيه على الأصل — او لم يتضمنها ، وسواء أوهم خلاف المراد أم لا ، وحجتهم أن الكلام إنما وضع لإفادة ما يصح ، لا لإفادة مالا يصح .

ويرى جمهور البلاغيين : أن القلب إذا تضمن إعتبارآ لطيفاً زائدا على مجرد الملاحة فهو مقبول ، وذلك مثل قول الشاعر :

ومهمــه مغــبرة أرجاؤه   كأن لون أرضـــه سماؤه

ومهمه : أي : ورب مهمه أي مفازة . مغبرة : مملوءة بالغبرة أرجاؤه : أطرافها ونواحيها ؛ والأرجاء جمع رجا بالقصر .

، كأن لون أرضه سماؤه ، فقد شبه لون أرض المهمه بلون جو سمائه ؛

والأصل : «كأن لون سمائه لون أرضه» لأن الأرض هى الأصل فى الغبرة فهو المشبه به .

وقد تضمن هذا التشبيه المقلوب اعتبارا لطيفا زائدا على لطافة مجرد القلب ـ وهو : الإشعار بكثرة الغبرة فى سماء الصحراء ، حتى صار هو الذى ينبغى أن يكون مشبها به ، فيكون أصلا فى التشبيه ، والأرض هو المشبه ، فيكون هو الفرع

كما يرى الجمهور أن القلب إذا لم يتضمن اعتبارا لطيفا فهو مردود ، لأنه عكس المراد ، وعدول عن الظاهر بلا نكتة يعتبرها ، ويجعلون من القلب المردود قول القطامى :

فلما أنْ جَرَى سِمَنٌ عليها ... كما طَيَّنْتَ بالفَدَنِ السِّيَاعَا
أمرتُ بها الرجالَ ليأخذوها ... ونحنُ نَظُنُّ أنْ لَنْ تُسْتَطاعَا

الفدن : القصر . السياع : الطين المخلوط بالتبن ، أو الآلة التى يطين بها ، يعنى : أنها صارت ملساء من السمن كالقصر المطين بالسياع ؛ وفى ذلك قلب معنوى .

فإذا حمل «السياع» على الآلة لم يتضمن اعتبارا لطيفا . ويكون فيه الشاهد .

وإن حمل على «الطين» فيجوز أن يكون المقصود المبالغة فى سمنها ، لأنه يقصد تشبيهه بالسياع الذى صار لكثرته كأنه الأصل «والفدن : هو الفرع ، فيكون هو أيضا مثله مع أصله من المظم ونحوه ، ولكنه لا يخلو من تكلف(١)

---

(١) بغية الإيضاح جـ١ ص ١٥٣

وتأمل قول أبى تمام يصف قلم الممدوح .

لعابُ الأفاعى القاتلاتِ لعابُهُ وأرْىُ الجَنَى اشْتارَتْهُ أيدٍ عواسِلُ

أرى الجنى : العسل من إضافة الموصوف إلى الصفة والأصل : « الجنى كالأرى » . اشتارته : بمعنى جنته . والأيدى العواسل : العارفة بجنيه .

والأولى صفة القلم مع الأعداء ، والثانية صفته مع الأصدقاء .

والشاهد فى شطره الأول : حيث قلب التشبيه ، فشبه لعاب الأفاعى بمداد القلم فى قوة التأثير . على سبيل التشبيه المقلوب ، والأصل : أن يشبه مداد القلم بلعاب الأفاعى . والاعتبار اللطيف فيه : قصد المبالغة .

ومثله قول حسان بن ثابت الأنصارى :

كأنَّ سبيئةً من بيتِ رأسٍ يكونُ مزاجَها عسلٌ وماءُ

والسبيئة : الخمر المشتراة للشرب . وبيت رأس : بلد بالشام بين رملة وغزة .

شبه ريق محبوبته بخمر مزجت بعسل وماء : والشاهد فى : « يكون مزاجها عسل وماء » حيث نصب « مزاجها » على أنه خبر « يكون » وهو معرفة بالإضافة ، ورفع النكرة « عسل » على أنه اسم يكون ، واسم يكون مبتدأ فى الأصل . فيكون القلب فى اللفظ حيث نكر ما هو موضع المبتدأ ، وعرف الخبر ، والرجوع إلى الأصل فيهما يكون باعتبار المعرفة مبتدأ ، والنكرة خبر .

ويروى البيت : برفع « مزاجها » على أنه مبتدأ خبره « عسل » .

واسم « يكون » حينئذ ضمير الشأن . وعلى هذا فلا يكون فى البيت قلب .

واقرأ قول عروة بن الورد :

فديتُ بنفسِه نفسِى ومَالِى ولا آلوكَ إلاَّ ما يُطِيق

وما آلوه : لم أقصر فيه ، والقلب فيه معنوى ، والأصل فديت نفسه بنفسى ومالى ، وليس فى قلبه اعتبار لطيف ، لأنه يوهم خلاف المراد.

(هذا) وقد زعم قوم أن قوله تعالى : (وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا[1] من أسلوب القلب ويزعمون أن الأصل : « جاءها بأسنا فأهلكناها

والخطيب ومن تابعه لايرون فيها قلبا ، إذ ليس فى تقدير القلب فى الآية اعتبار لطيف ، ويرون أن الأصل : « أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا ، أى إهلاكنا .

ومثلها ، قوله تعالى : (ثم دنا فتدلى[2]) فعلى تقدير القلب فيه ، يكون أصله ثم تدلى فدنى ، وعلى رأى من يرى عـــدم القلب ، الأصل عنده . ثم أراد الدنو من رسولنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتدلى ، فتعلق عليه فى الهواء :

وقوله تعالى : (اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تولى عنهم ، فانظر ماذا يرجعون)[3] فعلى تقدير القلب فيه ، يكون أصله فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم ، وعلى رأى من يرى عدم القلب يكون الأصل فيه (تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه ، ليكون مايقولون : بمسمع منك ، فانظر ماذا يرجعون ، فيقال : إنه دخل على « بلقيس » من كوة ، فألقى الكتاب إليها ، وتوارى فى الكوة .

---

(١) سورة الأعراف آية ٤

(٢) سورة النجم آية ٨

(٣) سورة النمل آية : ٢٨

وأما قول خداش بن زهير :

وَتَلْحَقُ خيلٌ لاهَوَادَةَ بينها وتشْقَى الرماحُ بالضياطِرةِ الحُمْرْ

والهوادة : اللين والرفق أو مايرجى به الصلاح بين القوم ، وعلى هذا يكون المراد: لا هوادة بين أصحابها ، والضياطرة : جمع ضيطر : وهو الضخم اللئيم العظيم الإست ، والحمر : جمع أحمر اللون ، وقيل : هو الذى لاسلاح معه .

وروى : (وتركب خيل) فعلى أنه من القلب يكون أصله : وتشقى الضياطرة بالرماح وليس له اعتبار لطيف .

وقد ذكر له البلاغيون سوى القلب وجهين : أحدهما أن يجعل شقاء الرماح بهم استعارة عن كسرها بطعنهم بها .

الوجه الثانى : أن يجعل نفس طعنهم شقاء لها تحقيرا لشأنهم وأنهم ليسوا أهلا لأن يطعنوا بها ، كما يقال: « شقى الخز بجسم فلان » إذا لم يكن أهلا للبسه .

ومن هذا العرض يتبين لنا : أن هذه الأساليب التى ورد فيها القلب ، صاحبت حالة خاصة ، كازدحام الأفكار ، والتخييل ، وقصد المبالغة ، فعبر عنها القائل بواسطة أسلوب القلب .

هذا ، ونكتفى بهذا القدر من صور إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، ولماذا أردت المزيد ، فتحت يدك مصادر كتب البلاغة ففيها صور كثيرة غير الذى ذكرنا

ور ١١١

الفصل الثالث

أحوال المسند

المسند أحد ركني الجملة ، كما عرفنا فيما سبق ، ويكون فعلا أو خبرا .

وله أحوال يتأنق البليغ فى إيرادها ؛ ليعبر بها عما فى نفسه . وأحواله هى : ذكره وتركه، وتعريفه، وتقديمه وتأخيره ، ثم إيراده مفردا أو جملة، ثم تقييده بمفعول أو بشرط .

ونبدأ بأغراض تركه .

ترك المسند(١)

إذا كان فى الكلام قرينة تدل على المسند ، جاز ذكره وتركه .

وحينئذ ترى البليغ أحيانا يتركه ليحقق أغراضا بلاغية ، تكسب الكلام قوة وجمالا .

والقيمة الفنية العامة لترك المسند هى الإيجاز ، وهو البلاغة كلها ، وأيضا الاحتراز عن العبث بناء على الظاهر ؛ لأن القرينة الدالة على المسند

---

(١) البلاغيون يعبرون هنا بالترك ، وفى المسند إليه بالحذف ، للإشارة إلى أن المسند إليه هو : العمدة العظمى ، والركن الأقوم ، ومسيس الحاجة إليه أشد وأتم ، حتى أنه إذا لم يوجد فى الكلام ، فكأنه ذكر ثم حذف ، قضاء لحق المقام ، بخلاف المسند ، فإنه ليس بهذه المثابة ، فيجوز أن يترك ولا يؤتى به لغرض (انظر المطول ص ١٣٩ ، ١٤٠)

إذا ذكرت فى الكلام كان من العبث أن يذكره البليغ ، وعرفت — فيما سبق — معنى قيد (بناء على الظاهر) لأن المسند أحد ركنى الجملة فذكره ليس عبثا ، لكن البليغ يجب أن ينزه أسلوبه عن ذكر ما هو معلوم أو مفهوم بوساطة القرينة ، والبلاغة هى التى توجب عليه ذلك .

وترك المسند يحقق بجانب ذلك أغراضا بلاغية أخرى أهمها :

١ — ضيق المقام للوزن والشكاية ، والتوجع والتحسر وذلك مثل قول ضابىء بن الحارث :

وَمَنْ يَكُ أَمْسَى بالمدينةِ رَحْلُهُ فإنِّى وَقَيَّارٌ بها لَغَرِيبُ

الرحل : المراد به المأوى والمنزل ، وقيار : اسم فرس أو جمل ، ومن : اسم شرط جوابه محذوف ، أقيم مقامه ، قوله : « فإنى وقيار » ، والتقدير : ومن يك أمسى بالمدينة رحله فقد حسن حاله ، فليطب نفسا ، ولينعم بالا ، وأما أنا وقيار فلا نطب نفسا لغربتنا وكربتنا بها ، وقيار مبتدأ حذف خبره ، وهو وخبره جملة معطوفة على جملة قوله : « فإنى لغريب » ، والتقدير : « فإنى لغريب وقيار غريب أيضا » ، وعلى هذا التقدير يكون الكلام من حذف المسند ، وهو خبر قيار ، للاحتراز عن العبث بناء على الظاهر ، مع ضيق المقام للوزن والشكاية ، والتوجع ، والتحسر .

وقدم « قيار » فى البيت على قوله : « لغريب » للإشارة إلى أن قيار ولو لم يكن من جنس العقلاء ، بلغه هذا الكرب ، واشتدت عليه هذه الغربة ، حتى صار مساويا للعقلاء فى التشكى منها ، ومقاساة شدائدها ، بخلاف ما لو أخره ، فلا يدل الكلام على التساوى ، لأن فى التقديم أثرا فى الأولية(١) .

---

(١) انظر مواهب الفتاح جـ ٢ صـ ٣

فتأمل فى جمال « النظم العربى » وقد دل التقديم والحذف على حالة نفسية مع الإيجاز فى التعبير ، فهذا الحيوان الأعجم لشدة الألفة بينه وبين صاحبه أصبح يقاسمه الهموم والأحزان ، وحالة الغريب وما يلاقيه من وحشة عبر عنها الحذف أتم تعبير وأدقه .

٢ — المحافظة على الوزن مع الإيجاز والاحتراز عن العبث كقول الشاعر :

نحنُ بما عِنْدَنَا ، وأنت بما عندك راضٍ والرأْيُ مُختلِفُ

أى نحن راضون بما عندنا ، وأنت راض بما عندك من الرأى ؛ فرأينا مختلف فليقنع كل برأيه ، فخبر « نحن » محذوف كما ترى ؛ للاحتراز عن العبث مع ضيق المقام بسبب المحافظة على الوزن .

ومنه قول أبى الطيب :

قالتْ ، وقد رأتْ إصفرارِى مَنْ بِهِ وَتَنَهَّدَتْ ، فأجبتها المُتَنَهِّدُ

أى : فأجبتها : المتنهد هو المطالب به ، فالمحذوف على ذلك المسند وهو خبر وقيل : معناه من فعل به ؟ فيكون التقدير : فعل به المتنهد ، فالمحذوف أيضا هو المسند ولكنه فعل .

وتأمل الآية الكريمة (والله ورسوله أحق أن يرضوه)(١) .

كان المنافقون فى خلواتهم يطعنون على المؤمنين، وعلى النبى ﷺ، فإذا بلغ ذلك إلى رسول الله وإلى المؤمنين ، جاء المنافقون فحلفوا على أنهم لم يقولوا ما بلغ عنهم ، قاصدين بهذه الأيمان الكاذبة أن يرضوا رسول الله ومن معه من المؤمنين ، فنعى الله ذلك عليهم ، وقال :(والله ورسوله أحق أن يرضوه) ، أى هما أحق بذلك من إرضاء المؤمنين بالأيمان الكاذبة ؛ فإنهم لو اتقوا الله ،وآمنوا به ،وتركوا النفاق لكان ذلك أولى لهم ،وإفراد الضمير فى « يرضوه » إما للتعظيم للجناب الإلهى بإفراده بالذكر ، أو لكونه

---

(١) سورة التوبة آية ٦٢

لا فرق بين إرضاء الله وإرضاء رسوله ، فإرضاء الله إرضاء لرسوله ، أو المراد : الله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك فالمحذوف خبر «ورسوله» فيكون من ترك المسند للإيجاز بدون ضيق المقام ، وتقول : «زيد منطلق وعمرو» أى وعمرو كذلك ، فترك المسند للايجاز .

وعليه قوله تعالى : (واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن)(١) ، والمعنى : الكبار اللائى قد انقطع حيضهن وأيسن منه ، إن جهلتم كيف عدتهن (فعدتهن ثلاثة أشهر ، واللائى لم يحضن) لصغرهن ، وعدم بلوغهن سن الحيض : أى فعدتهن ثلاثة أشهر ، وترك المسند لدلالة ما قبله عليه ، للايجاز والاحتراز عن العبث .

٣ — اتباع الاستعمال الوارد عن العرب كقولك : «خرجت فإذا زيد» أى خرجت فإذا زيد حاضر أو موجود بالباب ، أو ما أشبه ذلك ، فترك المسند لاتباع الاستعمال الوارد ، مع الإيجاز ، والاحتراز عن العبث ، لأنه يطرد ترك المسند بعد إذا الفجائية ، لقيام القرينة على الحذف معها ، لأنها تدل على مطلق وجود .

وتقول لمن قال : هل لك أحد ؟ إن الناس إلب عليك - : «إن زيداً وإن عمراً» أى : «إن لى زيدا ، وإن لى عمرا» فترك المسند ، لاتباع الاستعمال الوارد مع الإيجاز والاحتراز عن العبث .

وعليه قول ميمون بن قيس المعروف بالأعشى :

إنَّ مَحَلّاً وإنَّ مُرْتَحَلاً   وإنّ فى السفر إذْ مَضَوا مهلا

أى إن لنا محلا فى الدنيا ، وإن لنا مرتحلا عنها إلى الآخرة ومحلا ومرتحلا مصدران ميميان بمعنى الحلول والارتحال ، والسَّفر : اسم جمع بمعنى المسافرين ، وقد أراد بهم الموتى ، والمهل : مصدر بمعنى الإمهال ، وطول الغيبة ، والمعنى : إن فى غيبة الموتى طولا وبعدا ، لأنهم مضوا مضيا لا رجوع معه إلى الدنيا .

---

(١) سورة الطلاق آية ٤

وروى : إذ مضوا مثلا ، وترك المسند هنا لاتباع الاستعمال (الوارد وضيق المقام بسبب حال الدنيا — مع الاختصار والاحتراز عن العبث .

وقوله تعالى : (قل : لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى(١)) أنتم مرفوع على أنه فاعل لفعل محذوف يفسره ما بعده : أى لو تملكون أنتم تملكون ، على أن الضمير المنفصل مبدل من الضمير المتصل وهو واو الجماعة وخزائن رحمته خزائن الأرزاق . أعلمهم الله أنهم لو ملكوا خزائن الأرزاق لأمسكوا شحا وبخلاً فترك المسند ، وهو الفعل (تملكون) للإيجاز ، وفيه تأكيد الكلام لتكرار الإسناد ، إذا التقدير (تملكون أنتم تملكون ، ويرى الزمخشرى أن فى حذف الفعل الذى ارتفع به انتم ، وإيراد الكلام فى صورة المبتدأ والخبر دلالة على أنهم هم المختصون بالشح المتبالغ(٢) .

ومن ترك المسند لإفادة الاختصاص أيضا قول حاتم : لوذات سوار لطمتنى ، أى : لو لطمتنى ذات سوار لطمتنى ، لحذف الفعل الأول لدلالة الثانى عليه .

وكذلك قول المتلمس :

ولو غير إخوانى أرادوا نقيصتى جعلت لهم فوق العرانين ميسما

والعرانين : جمع عرنين وهو الأنف كله ، أو ما صلب منه ، والميسم العلامة ، والمتلمس : هو جرير بن عبد المسيح ،

ورد على الزمخشرى بأن الإختصاص إنما يكون فى الجملة الإسمية

---

(١) سورة الإسراء آية : ١٠٠ .

(٢) أنظر الإيضاح مع البغية جـ١ صـ١٦٢ .

التي يقدم فيها المسند إليه على خبره الفعلي كما سبق ، وما هنا ليس كذلك ؛ لأنه من الجملة الفعلية ، لاختصاص « لو » بالدخول عليها .

وتأمل قوله تعالى : (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ، ويهدى من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، إن الله عليم بما يصنعون)(١) .

فجملة : (أفمن زين له سوء عمله) مستأنفة ؛ لتقرير ما سبق من ذكر التفاوت بين المؤمنين والكافرين ، و« من » في موضع رفع بالابتداء والخبر أي المسند متروك ، والتقدير : « ذهبت نفسك عليهم حسرات » ، والقرينة: قوله تعالى : (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) ،

أو التقدير :(أفمن زين له سوء عمله كمن هداه الله) فحذف « كمن هداه الله » لدلالة : « فإن الله يضل من يشاء ، ويهدى من يشاء) .

أو التقدير : (أفمن زين له سوء عمله كمن لم يزين) وهذا أولى لمطابقته للسؤال لفظا ومعنى ،

ثم كأن رسول الله ﷺ، لما قيل له ذلك ، قال : لا ، فقيل : (فإن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) ، ولا يخفى عليك جمال الحذف هنا فدلالة الكلام بعضه على بعض ، وإشارة المذكور على المحذوف لا يعلمه إلا القليل .

وأما قوله تعالى : (قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل(١)).

ذكر الله جواب يعقوب لأولاده حينما زعموا أن الذئب أكل أخاهم

---

(١) سورة فاطر آية : ٨ .

(٢) سورة يوسف آية : ١٨ .

يوسف عليه السلام ، والمعنى : زينت ، وسهلت لكم أنفسكم ، والتسويل: تقرير فى معنى النفس مع الطمع فى تمامه . وهو تفعيل من السول ، وهو : الأمنية (فصبر جميل) أى : فشأنى . أن الذى أعتقده صبر جميل، أو فصبرى صبر جميل ، فالمحذوف على هذا التقدير المسند إليه .

وإذا كان التقدير : « فصبر جميل أولى بى أو فصبر جميل أجمل» فالمحذوف المسند . والصبر الجميل : هو الذى لاشكوى معه ، وغير الجميل ما كان معه شكاية ، ولكنه خير من عدمه فيصح تفضيل الصبر الجميل عليه .

وقوله تعالى :(سورة أنزلناها (١) يحتمل حذف المسند إليه ، والتقدير « هذه سورة أنزلناها » ويحتمل ترك المسند ، والتقدير : فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها) :

وقوله : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن ، قل لا تقسموا طاعة معروفة (١)) أتى قوم إلى النبى ﷺ فقالوا : يارسول الله لو أمرتنا أن نخرج من أموالنا لخرجنا) فأنزل الله(وأقسموا بالله جهد أيمانهم)الآية وذلك فى شأن الجهاد ، أمرهم ألا يحلفوا على شىء ، فأمرهم أن يكون طاعة معروفة للنبى ﷺ — من غير أن يقسموا : أو أمركم أو الذى يطلب منكم طاعة معروفة معلومة لايشك فيها ، ولا يرتاب، كطاعة الخلص من المؤمنين الذين طابق باطن أمرهم ظاهره ، لا أيمان تقسمون بها بأفواهكم ، وقلوبكم على خلافها ، أو طاعتكم طاعة معروفة ، أى بأنها بالقول دون الفعل ، والمحذوف على هذا المسند إليه ،

أما على تقدير : طاعة معروفة أمثل وأولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة

---

(١) سورة النور آية : ١ .
(٢) سورة النور آية : ٥٣ ،

فالمحذوف المسند وتأمل قوله تعالى : (ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه) (١) النصارى مع تفرق مذاهبهم متفقون على التثليث .

والمعنى : لا تقولوا بالتثليث ، انتهوا عنه يكن خيرا لكم . فالله واحد لا شريك له » .

والشاهد فى قوله : (ولا تقولوا ثلاثة) ففيها حذف ، وفيه تقديرات :

١ — ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة ، فيكون المحذوف هو المسند إليه ، ورد هذا التقدير : بأنه تقرير لثبوت آلهة ؛ لأن النفى إنما يكون للمعنى المستفاد من الخبر « ثلاثة » دون معنى المبتدأ « آلهتنا » ، كما تقول « ليس أمراؤنا ثلاثة » فإنك تنفى به أن تكون عدة الأمراء ثلاثة دون أن تكون لكم أمراء فجائز أن تكون عدة الأمراء أقل من ثلاثة أو أكثر ، ولذلك جائز أن تكون عدة الآلهة اثنين أو أكثر من ثلاثة وذلك إشراك ، وقوله تعالى بعده (إنما الله إله واحد) يناقضه .

ولا يصح على هذا الوجه أن يقول قائل : ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة ولا اثنان ؛ لأنه يكون مثل قولهم . « ليست آلهتنا ثلاثة ولا اثنين » وهذا فاسد .

٢ — « ولا تقولوا لنا أو فى الوجود آلهة ثلاثة » فثلاثة صفة لمبتدأ محذوف لا خبر مبتدأ ثم حذف الخبر — فى الوجود ، كما حذف من « لا إله إلا الله » ، وما من إله إلا الله » ثم حذف الموصوف « آلهة » كما يحذف فى غير هذا الموضع ، وعلى ذلك يكون النهى عن إثبات الوجود لآلهة ؛ لأن النفى

---

(١) سورة النساء آية ١٧١ .

منصب على معنى المبتدأ ، وهذا ليس فيه تقرير لثبوت إلهين، مع أن ما بعده أعنى قوله (إنما الله إله واحد) ينفى ذلك ، فيحصل النهى عن الاشراك والتوحيد من غير تناقض ، ولهذا يصح أن يتبع نفى الاثنين ، فيقال : ولا تقولوا لنا آلهة ثلاثة ولا إلهان ، لأنه كقولنا : ليس لنا آلهة ثلاثة ولا إلهان ، وهذا صحيح .

٣ — « ولا تقولوا لنا أو فى الوجود ثلاثة آلهة » فثلاثة على هذا التقدير : مبتدأ ، و « آلهة » تمييز محذوف كما يحذف فى غير هذا الموضع ، فيكون النهى عن إثبات الوجود لآلهة . وهذا ليس فيه تقرير لثبوت إلهين كما مر فيما قبله .

٤ — ويجوز أن يكون التقدير : « ولا تقولوا : الله والمسيح وأمه ثلاثة » أى لاتعبدوهما كما تعبدونه ؛ لقوله تعالى : (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة)(١) ، فيكون المعنى ثلاثة مستوون فى الصفة ، والرتبة فإنه قد استقر فى العرف أنه إذا أريد إلحاق اثنين بواحد فى وصف، وأنهما شبيهان له — أن يقال : « هم ثلاثة » كما يقال : إذا أريد إلحاق واحد بآخر ، وجعله فى معناه « هما اثنان » وعلى التقدير الأخير تكون الآية من حذف المسند إليه ، وذلك واضح .

قرينة ترك المسند

قلنا : — فيما سبق — أن الحذف لابد له من قرينة تدل عليه ؛ وإلا كان الحذف مؤديا للخلل فى المعنى ، وهذا تأباه البلاغة ويمجه الذوق العربى وهذه القرينة إما أن تكون لفظية أو غير لفظية

---

(١) سورة المائدة : ٧٣

١ — فالقرينة اللفظية هي المذكورة فى الكلام ، كوقوع الكلام جوابا عن سؤال محقق . وذلك مثل قوله تعالى : (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء ، فأحيا به الأرض من بعد موتها ، ليقولن الله)(١). وقوله تعالى . (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله)(٢)

وتقدير المسند فى الآية الأولى : « نزله وأحيا به الأرض الله » وفى الثانية « خلقهن الله »

٢ — وغير اللفظية ، وهى التى ليست مذكورة فى الكلام ، وذلك كوقوع الكلام جوابا عن سؤال مقدر كقول ضرار بن نهشل يرثى أخاه يزيد ابن نهشل :

لِيُبْكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِخُصومةٍ   وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوَائِحُ

ليبك : بالبناء للمجهول ، و « يزيد » نائب فاعل .

ولما حذف الفاعل وأقيم المفعول مقامه ، وقع إبهام فى الكلام ، أى أوحى الكلام بسؤال تقديره : من يبكيه ؟ فقال : ضارع فترك المسند وتقديره : يبكيه ، وضارع أى ذليل ، فالفقيد كان ملجأ الأذلاء ، وعونا للضعفاء . والمختبط : هو الذى يأتى إليك للمعروف من غير وسيلة ، والاطاحة الإذهاب ، والإهلاك . والطوائح : جمع مطيحة : الشدائد أى يبكى لأجل إذهاب المنايا بيزيد .

وأنت ترى أن الشاعر قد بنى الفعل « يبكى » للمجهول ، ورفع « يزيد » على أنه نائب فاعل ، مع أنه كان من الممكن أن يأتى بالفعل على أصله مبنيا للمعلوم ويستقيم الوزن ، ويجعل « يزيد » مفعولا ، وضارع فاعل يبكى .

---

(١) سورة العنكبوت آية : ٦٣

(٢) سوره لقمان آية : ٢٥

وفضل هذا التركيب الذى فيه بناء « يبكى » للمجهول ونائب الفاعل وهو « يزيد » ثم ذكر الفاعل « ضارع » على خلافه الممكن : وهو أن يجعل « يبكى » مبنيا للفاعل ، والفاعل هو « ضارع » وبنصب « يزيد » على أنه مفعول ، مع أن هذا الخلاف هو الأصل - من وجوه :

١ — تكرر الإسناد ، لأن الفعل أسند - أولا - إسناد إجمال ، وأسند ثانيا - إسناد تفصيل . أما الإسناد التفصيلى فظاهر ، لأنه ذكر الفاعل المستحق الفعل بالتنصيص وهو : « ضارع » وذلك معنى التفصيل .

وأما الإسناد الجملى : فلأن إسناد الفعل المبنى للمجهول لمفعوله ، مشعر بأن له فاعلا يستحق الإسناد إليه . ولم يسم هذا الفاعل أولا ، وهذا معنى الإسناد الجملى . وهذا الإشعار يجعله كالواقع فعلا ،

فإذا تحقق أن فى ذلك التركيب إسنادين فلا شك أن التركيب المشتمل على إسنادين أوكد وأقوى مما ليس فيه إلا إسناد واحد .

٢ — مما سبق يتحقق أن ذلك التركيب يشتمل على الإجمال ثم التفصيل وهو أوقع فى النفس ، لأن فى الإجمال تشويقا يجعل معنى الكلام متمكنا من ذهن السامع ليقع العمل بمقتضاه .

٣ — وقوع « يزيد » نائب فاعل ، فيكون ركنا ، أسند إليه الفعل المبنى للمجهول وليس مفعولا فتحصل له أهمية فى الكلام ، لا يدل عليها التركيب الآخر

٤ — أن ذلك التركيب غير مطمع فى معرفة لفاعل ، لأن الكلام قد تم حيث أسند « يبكى » لنائب الفاعل فلا يطلب له فاعل يتم به الكلام ، فإذا ذكر الفاعل « ضارع » كان كحصول نعمة غير مرتقبة ، فهو كرزق

من حيث لايحتسب ، والرزق من حيث لايحتسب أيسر وأغرب .

ومع هذا لايخلو التركيب الثانى من جمال ، فإنك إذا نطقت بقوله : (ليبك) مبنياً للمعلوم ، ونصبت « يزيد » على المفعولية ، تشوقت نفسك إلى ذكر الفاعل « ضارع » فيأتى وقد تهيأت نفسك له ، وأيضا فى تقديم المفعول : « يزيد » على الفاعل « ضارع » فيه من الأهمية ماليس فى غيره ، وهذا مما يزيد الكلام دقة وجمالا .

والأمر فى ذلك يرجع إلى البليغ فى مراعاة مقتضى الحال وإفراغ مافى نفسه .

وذكر الخطيب : أن من الحذف الذى قرينته وقوع الكلام جوابا عن سؤال مقدر قوله تعالى : (وجعلوا لله شركاء الجن)(١) .

وفيه أوجه :

١ — إذا أعربنا « لله شركاء » مفعولين لجعلوا ، فالجن يحتمل وجهين :

أحدهما : ماذكره الشيخ عبد القاهر من أن يكون منصوبا بمحذوف دل عليه سؤال مقدر ، والمعنى : من جعلوا لله شركاء ؟ فالجواب : الجن فترك المسند « جعلوا » لدلالة السؤال المقدر عليه

وهذا الوجه : يجعل المراد من الكلام : إنكار الشرك مطلقا ، فيدخل اتخاذ الشريك من غير الجن فى الإنكار دخول اتخاذه من الجن . وواضح أنه من ترك المسند لدلالة القرينة عليه .

٢ — والثانى : ماذكره الزمخشرى وهو . أن ينتصب « الجن » بدلا من « شركاء » بدل بعض من كل ، تقديره : وجعلوا الجن من الشركاء لله وتفيد الآية حينئذ نفى الشريك مطلقا كما فى رأى عبد القاهر .

---

(١) سورة الأنعام آية : ١٠٠

٣— والثالث : أن يعرب « لله » جارا ومجرورا متعلقا بشركاء مقدما عليه

ويعرب « شركاء الجن » مفعولين قدم فيه « شركاء » على الجن » وفائدة التقديم : استعظام أن يتخذ لله شريك : ملكا كان أو أجنيا أو غيرهما ، ومن أجل هذا المعنى قدم « اسم « الله » على الشركاء

وإذا لم تقدم « اسم الله » على الشركاء ، وقيل : - مثلا - « وجعلوا الجن شركاء لله » لم يفد الكلام إلا إنكار جعل الجن شركاء(١) والله أعلم

ومن ترك المسند الذى قرينته وقوع الكلام جوابا عن سؤال مقدر ارتفاع المخصوص فى باب « نعم ، وبئس » على قول من يجعله مبتدأ محذوف الخبر ، فيكون التقدير . فى قولنا . « نعم الرجل زيد » فزيد هو الممدوح وهو واقع فى جواب مقدر أيضا .

كأنه قيل : من الممدوح ؟ فيكون الجواب : « زيد » فواضح فيه ترك المسند أى الخبر .

---

(١) راجع الإيضاح مع البغية ح ١ ص ١٦٦ ، ١٦٧

أغراض ذكر المسند

وترى البليغ يتفنن فى الأساليب ، فيذكر المسند ، ويريد من وراء ذلك أن يحقق أغراضا بلاغية تزيد الكلام حسنا ، ومن ذلك :

زيادة التقرير مثل قوله تعالى: « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم »[1] .

والمعنى : ولئن سألت هؤلاء الكفار من قومك من خلق هذه الأجرام العلوية والسفلية ؟ أقروا بأن الله خالقهن ولم ينكروا ، وذلك أسوأ لحالهم وأشد لعقوبتهم . لأنهم عبدوا بعض مخلوقات الله ، وجعلوه شريكا له بل عدوا إلى مالا يسمع ، ولا يبصر ، ولا ينفع ، ولا يضر من المخلوقات وهى « الأصنام » فجعلوها شركاء لله . فذكر النظم القرآنى المسند « خلقهن » مع إمكان تركه ، للتسجيل عليهم ، وبيان سفاهتهم وعدم جدوى مايعبدون .

٢ — التعريض بغباوة السامع ، كما فى قولك : محمد نبينا « فى جواب سؤال : « من نبيكم ؟ » فكان من الممكن ترك لفظ « نبينا » لدلالة القرينة عليه ، ولكنك ذكرته للتعريض بغباوة السامع وأنه لا يعلم الأمور البديهية .

٣ — الاستلذاذ بذكره وذلك مثل قوله : « هى سعاد » فى جواب سؤال ، هل هذه سعاد ؟ وكان من الممكن تركه لوجود القرينة الدالة عليه ، وهى ذكره فى السؤال ، ولكنه ذكره للاستلذاذ بذكره ، وهذا

---

(1) سورة الزخرف آية : ٩

يكثر في شعر النسيب والغزل ، ليعبر القائل عن حالة نفسية قد يضمرها فيعبر عنها بمجرد ذكر الذي يهواه .

٤ — ضعف التعويل على القرينة ، كقولك : « عنترة أشجع وحاتم أجود في جواب من قال : « من أكرم العرب في الجاهلية وأشجعهم ؟ » فصرح بالمسند احتياطا لاحتمال الغفلة عن العلم به من السؤال .

٥ — ذكر المسند ليتعين كونه اسما فيفيد الثبوت مثل : محمد كاتب ، فالكتابة صفة لمحمد .

٦ — وإما ذكره ليتعين كونه فعلا ، فيفيد التجدد والحدوث مثل : محمد يكتب .

٧ — وإما ذكره ليتعين كونه ظرفا أو جارا ومجرورا ، فيورث احتمال الثبوت والتجدد على حسب تقدير المتعلق به مثل : زيد في الدار ، تقديره : زيد مستقر أو استقر في الدار .

وإما لنحو ذلك .

إفراد المسند

المسند المفرد هو : ما كان اسما ، مثل : « محمد عالم » ، أوفعلا نحو : قدم على ،

المسند السببي هو : كل جملة وقعت خبرا عن مبتدأ وتشتمل على ضمير أو عائد ليس مسندا إليه وهذا العائد يربطها بالمبتدأ ، وذلك مثل :

« محمد أبوه عالم ، وعلى يحمل سلاحه » ، فجملة « أبوه عالم » وقعت خبرا ، أى مسندا — لمبتدأ هو « محمد » وبها عائد على المبتدأ ، وليس مسندا إليه ، وجملة : « يحمل سلاحه » ، وقعت أيضا خبرا للمبتدأ ، وهو . « على » وبها عائد وليس مسندا إليه . وسمى المسند سببيا لأن السبب معناه الحبل الذى يربط بين شيئين ، والمسند السببى به عائد يربطه بالمبتدأ ويصله به ، ولكن ليس بمسند إليه .

والمسند المفيد للتقوى هو : كل جملة فعلية وقعت خبرا عن مبتدأ وبها ضمير يكون مسندا إليه . ويعود على المبتدأ نفسه .

وقد عرفنا — فيما سبق — متى يفيد هذا التركيب التقوى ؟ وذلك مثل « زيد يعطى الجزيل ، ومحمد يجود بماله » فجملتا « يعطى الجزيل » ، « ويجود بماله » فعليتان ، وكل منهما وقعت خبرا عن المبتدأ « زيد » فى المثال الأول و « محمد » فى المثال الثانى ، وفيهما ضمير يعود على المبتدأ نفسه وهذا الضمير مسند إليه .

إذا عرفت هذا ، تبين لك قصد البليغ من إيراد المسند مفردا ، مثل : زيد منطلق ، وقام عمرو ،

ذلك القصد أو الغرض البلاغى هو : ألا يكون المسند سببيا . ولا مفيدا

للتقوى ؛ فهو يريد أن يذكره خاليا منهما ؛ لاقتضاء المقام هذا التركيب .

فإذا قصد البليغ مجرد الإخبار عن كرم « محمد » أورد المسند مفردا ، فيقول : « محمد كريم » .

وإذا أراد أن يخبر بأن « محمدا » ورث الكرم عن أصله . مثلا أورده سببيا ، فقال : « محمد أبوه كريم » وفيه تأكيد للحكم » .

وإذا أراد تقوية حكم الكرم عليه ، أورد المسند مفيدا للتقوية ؛ فتراه يقول : « محمد يعطى الجزيل » أو « محمد يجود بماله » :

إيراد المسند فعلا

وترى البليغ يأتى بالمسند فعلا ، إذا اقتضى المقام تقييده بأحد الأزمنة الثلاثة مع إفادة الاختصار والتجدد فى الحدث .

والأزمنة الثلاثة هى : الماضى ، والحال ، والمستقبل .

فالماضى : هو الزمان المتحقق فى أجزاء الزمان الذى قبل زمانك ،

والحال : هو أجزاء من أواخر الماضى . وأوائل المستقبل ، بشرط تعاقبهما من غير مهلة وتراخ ، أى : من غير فصل بين تلك الأجزاء المسماة بالحال .

ولكن متى تعد هذه المهلة ، أو الاتساع بين تلك أجزاء الحال ـ فصلا؟ يجيب البلاغيون : بأن الأمر مبنى على عرف أهل العربية ، وليس مضبوطا بحد معين ، فما يعدونه حالا فهو حال : كما جعلوا الزمن فى قولنا : « زيد يصلى » حالا ، مع كونه فى أثناء الصلاة ، فرغ منها شطر وبقى شطر . فهى واقعة فى آنات كثيرة متعاقبة ؛ وكذا زيد يأكل ، أو يحج ، أو يقرأ القرآن أو يجاهد فى الكفار ، ولا شك فى اختلاف مقادير أزمنتها .

فواضح أن الأمر لم يبن على التضييق حتى لا يسمى منها « حالا » إلا ما صادف النطق فحسب ، وواضح أيضاً : أن المراد بقولنا « من غير مهلة وتراخ » أى : بين كل جزء وما يليه ، لا بين أول الأجزاء وآخرها ؛ إذ المهلة بينهما لازمة إذا طالت المدة (١) .

والمستقبل . هو الزمان المتأخر بعد الحاضر .

ومن المشهور فى ذلك قول طريف بن تميم :

أَوَكُلَّما وردتْ عكاظَ قبيلةٌ بَعَثُوا إِلَىَّ عَرِيفَهُم يَتَوَسَّمُ

عريف القوم : هو القيم بأمرهم الذى شهر بذلك ، وعكاظ : سوق بين نخلة والطائف ، كانوا يجتمعون فيه ، يتناشدون ، ويتفاخرون .

والشاهد فيه إيراد المسند « فعلا » وهو : « يتوسم » أى : يتفرس الوجوه ، ويتأملها ، يحدث منه ذلك التوسم شيئاً فشيئا ، ويصدر منه النظر لحظة فلحظة . والمعنى أن الشاعر له على كل قبيلة جناية ، فمتى وردوا عكاظ طلبه الكافل بأمرهم .

وتلاحظ أن الفعل (يتوسم) أفاد الاختصار ؛ لأنه أخصر من قوله : « متوسم فى الحال ، أو فى الحاضر ، أو الآن ، وأنه دل على الحال والتجدد .

ومنه قوله تعالى فى شأن المنافقين : « الله يستهزىء بهم ، ويمدهم فى طغيانهم يعمهون (٢) » والمعنى : ينزل بهم الهوان والحقارة ، وينتقم منهم ، ويستخفهم انتصافا منهم لعباده المؤمنين . وجاء المسند « فعلا » يستهزىء » ليفيد التجدد وقتا بعد وقت ، وهو أشد عليهم ، وأنكأ لقلوبهم وأوجع لهم

---

(١) راجع مواهب الفتاح وحاشية الدسوقى ج ٢ ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) سورة البقرة آية ١٥ .

من الاستهزاء الدائم الثابت المستفاد من الجملة الإسمية — كما ستعرف —

ومعروف بل ومحسوس: أن العقوبة الحادثة وقتا بعد وقت، والمتجددة حينا بعد حين، أشد على من وقعت عليه - من العذاب الدائم المستمر؛ لأنه يألفه ويوطن نفسه عليه.

إيراد المسند اسما

ويؤتى بالمسند اسما لافادة عدم التقييد والتجدد، ولأن الاسم يدل على الثبوت والدوام. ومن الواضح فى ذلك قول النضر بن جؤية:

قالت طَرِيفَةُ ماتبقَى دراهمُنا   ومابِنَا سَرَفٌ فيها ولاخُرَقُ
إنا إذا اجتمعتْ يومًا دراهمُنا   ظلَّتْ إلى طُرقِ الخيراتِ تَستبِقُ
لا يألفُ الدِّرْهَمُ المضروبُ صرتَنا   لكنْ يَمُرُّ عليها وهـو منطلق

فالشاعر يتمدح بكرم قومه، وأنهم يبذلون كل مايملكون، فصرتهم لاتألف الدرهم:

والشاهد فى قوله، «وهو منطلق» فقد جاء بصيغة الاسم. لافادة ثبوت صفة الانطلاق للدرهم من غير إشعار بتجدد وحدوث، حتى يقرر أن الدرهم لايتوقف توقفا ما - عند الصرة فينقطع انطلاقه ليتجدد مرة أخرى، وإنما هو منطلق إنطلاقا ثابتاً ودائما، وهذا أبلغ فى المدح ولو قال «يمر عليها وهو ينطلق» لكان المعنى: أن انطلاقه يتجدد، وهذا يعنى أنهم يمسكونه بعض الوقت ولايخفى عليك عـــدم مناسبته لغرض المدح الذى يجود بالمبالغة.

وتقول: «زيد كاتب» فتفيد ثبوت صفة الكتابة لزيد مع دوامها،

أما إذا قلت : « زيد يكتب » فتفيد أن صفة الكتابة تتجدد وقتا بعد وقت :

تأمل قول الله تعالى : (وإذا لقوا الذين آمنوا ، قالوا : آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا : إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون [١]) ،

ذكر المنافقون فى خطابهم للمؤمنين قولهم : « آمنا » فجاء المسند فعلا ، ليفيد أن إيمانهم حدث بعد أن لم يكن ، وفى خطابهم لاخوانهم « إنا معكم » أى ثابتون على الكفر .

ولعلك تلاحظ ما فى هذه الآيه من الإيجاز المعجز .

وعليه قوله تعالى : (قالوا سلاما قال سلام [٢]) إذ أصل الأول ، نسلم عليك سلاما ، وتقدير الثانى : سلام عليكم ، كأن ابراهيم عليه السلام قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به .

أخذا بأدب الله تعالى فى قوله : (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها [٣]) فأنت تلاحظ أن تحيـــة ابراهيم بالجملة الاسمية وتحية الملائكة بالجملة الفعلية .

ومنه قوله تعالى : (قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين [٤]) أى : أحدثت عندنا تعاطى الحق فيما نسمعه منك ، أم أن أحوال الصبا ثابتة ودائمة عليك [٥] ؛

---

(١) سورة البقرة اية ١٤ ،
(٢) سورة هود آية ٦٩ .
(٣) سورة النساء اية ٨٦
(٤) سورة الأنبياء اية ٥٥
(٥) راجع الايضاح مع البغية ج١ ص ١٩٧ .

تقييد المسند إذا كان فعلا أو شبهه بمفعول ونحوه (١)

من التصرفات التي يحدثها البليغ في « النظم » ويتأنق في إيرادها ـ تقييد المسند إذا كان فعلا أو شبهه بمفعول ونحوه :

وشبه الفعل هو : مايعمل عمله كاسم الفاعل واسم المفعول ، والصفة المشبهة واسم التفضيل ... لأنها تشبه الفعل في الاشتقاق ، فيكون لها متعلقات مثله :

والمراد « بالمفعول » : المفعول المطلق غير المؤكد ، أو المفعول به ، ويكون إما بحرف مثل : « مررت بزيد » وأما بغير حرف مثل : « ضربت زيدا » ، أو المفعول فيه وهو الظرف ، أو المفعول معه ، أو المفعول له وهو : المفعول من أجله ؛ فلفظ المفعول يتناولها جميعاً لاشتراكها في مطلق المفعولية .

والمراد بنحو المفعول : الحال والتمييز والاستثناء :

وأما خبر « كان » في نحو قولك : « كان زيد منطلقا » فسند و « كان » قيد له ، والمعنى أن الانطلاق كان لزيد فيما مضى . فكأنك قلت : « زيد منطلق في الزمان الماضي .

وبيان هذا : أن منطلقا ، نفس المسند ، وليس قيداً له ، وأصل التركيب زيد منطلق » و « كان » إنما ذكرت لدلالتها :

---

(١) راجع في هذا الموضوع مواهب الفتاح جـ٢ صـ ٣٢-٣٤

على زمان النسبة ، فهى باعتبار دلالتها على الزمان قيد «لمنطلق» وليس «منطلق» قيداً لها .

وقيل : إنّ «كان» تدل على الحدث ، وأنها مسندة «لزيد» ، وأن معنى «كان زيد» حصل شيء ما «لزيد» و «منطلقا» تفصيل وتبيين لذلك الشيء المبهم ، فأول الكلام إجمال وآخره تفصيل ، وعلى هذا «فمنطلقا» تقييد وتبيين للاتصاف بمضمونها مرب للفائدة ، والمعنى : «شيء ما ثبت لزيد» فى الزمن الماضى موضح بالانطلاق . وواضح أن هذا الرأى يجعل خبر «كان» قيدا لها ، بخلاف الأول الذى يجعل الخبر مسندا ، و «كان» قيدا له .

هذا . والأمر كله يرجع للبليغ فى إيراد مثل هذه التقييدات مادام أن ذلك الإيراد يحقق شيئا زائداً عن المعنى العام .

وقال البلاغيون : إن تقييد المسند إذا كان فعلا أو شبهه بمفعول ونحوه - يكون لتربية الفائدة ، وإحداث زيادتها معه .

تقول : «أكرمت إكرام أهل الحسب» ، و «حفظت حديث البخارى» و «قرأت بمكة» ، و «جلست أمام الروضة الشريفة» ، و «سرت وطريق المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام» . و «تطهرت تعظيما للحديث» و «تصدقت مخلصا» و «طبت نفسا بالتوفيق» ، و «لا أحب إلا الصالحين» .

وإنما كان التقييد المذكور لتربية الفائدة لأمور :

١ — أن الحكم المطلق لا يزيد على فائدة مطلق نسبة المحمول ، وهو «المسند» إلى الموضوع ، وهو : «المسند إليه» .

٢ — قد لا يفيد الحكم المطلق أصلا ، لأن العلم بالمعلومات كثير ، فربما كان ذلك الحكم المطلق معلوما عند السامع فلا يفيد .

٣ — أما المقيد ففيه — كما تحس من تلك الأمثلة السابقة — فائدة زائدة عن الحكم المطلق .

٤ — العلم بالخصوصيات قليل ؛ فإن الخصوصيات كلما كثرت ازداد الحكم بها غرابة ، والحكم الغريب مستلزم للإفادة للجهل به غالبا ، وكلما كثرت غرائبه بكثرة القيود فقد كثرت فوائده .

ويظهر لك ذلك إذا قارنت بين قولهم : « شيء ما موجود » فإنه معلوم بالضرورة ، فهو خلو من الفائدة الزائدة عن الحكم ، بخلاف قولهم : « فلان بن فلان حفظ التوراة فى سنة كذا فى بلد كذا ، فى سن كذا ، رواية عن كذا » ففيه غرابات بكثرة القيود ، وبذلك كثرت فرائده وفوائده كما لا يخفى .

وواضح أنك إذا قلت : « حفظت القرآن الكريم » فتنص على المفعول ، لا تريد أن تخبر السامع بمجرد الحفظ فحسب ، ولكنك تريد أن تعبر عن فرحتك بحفظ القرآن الكريم ، وأنك مسرور بهذا الأمر ومعتز به .

وكذلك إذا قلت : « سرت وطريق المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم السلام » ، لا تريد الإخبار بالحكم المطلق ، أى : بمجرد السير فحسب ، ولكنك تريد أن تفرغ عاطفتك المملوءة بالحب والتقدير ، فتقيد المسند ، ليساعدك على إفراغ ما فى نفسك : ويعبر عما يستكن فى ضميرك .

ترك تقييد المسند إذا كان فعلا أو شبهه بمفعول ونحوه

وترى البليغ حينا آخر يترك هذه التقييدات لمانع من تربية الفائدة ، وذلك ليحقق أغراضا بلاغية منها :

١ — خوف فوات الفرصة ، وذلك مثل أن يقول الصياد لمخاطبه : « الصيد محبوس » لصيد محبوس من غير أن يقول « محبوس في شرك » وذلك لأجل أن ينتهز فرصة التأكيد حتى يبادر المخاطب بإدراك الصيد قبل فواته بالفرار أو بالموت حتف أنفه .

٢ — إرادة ألا يطلع الحاضرون على الزمان المخصوص للفعل أو مكانه ، وذلك مثل قولك : « جئت » ومرادك : « أمس ليلا » فتترك تقييد المجيء « بالأمس ليلا » مخافة أن يتوهم أحد من الحاضرين أنك أصبت بمكروه .

أو تقول مثلا « جلست » ومرادك « مع فلان » والمخاطب يعلم ذلك ، فتسقط الظرف للإبهام على الحاضرين لغرض من الأغراض .

أو أنك لاتريد أن يعلم الحاضرون بالمفعول ، فتقول : « بايعت » وتريد « زيدا » فتسقطه ، لئلا يغار الحاضرون من مبايعتك .

٣ — قد يكون المانع من تقييد المسند إذا كان فعلا أو شبهه بمفعول ونحوه عدم العلم بالفضلات المقيدة ، كقولك : « حضر زيد » ولاتعلم متى كان الحضور وعلى أي هيئة كان ، أو تقول :

« ضرب زيد » ولاتعلم من وقع عليه الضرب .

٤ — وقد يكون ترك التقييد لمجرد الاختصار حيث يقتضيه المقام كالضيق أو الضجر ، كقولك : « وصلت » والحال أنك متعب ومتألم من

عذاب السفر ، فتترك القيد الذى يدل على هيئة الوصول أوزمانه أومكانه وتريد أن ترمز إلى حالتك النفسية بذلك الترك ، والمخاطب يعرف مضمون التقييدات .

٥ — وقد يكون ترك التقييد لمجرد الاختصار مع الاحتراز عن العبث كما تقول : « ذاكرت » ومعلوم أن مرادك مذاكرة العلوم والدروس المقررة عليك .

تقييد المسند بالشرط

أدوات المعانى باب واسع ، وبحر زاخر ، ترى البليغ يتصرف فى « النظم » بوساطتها ، فيوقفك على خصوبة اللغة ومرونتها ، وقد ترك البلاغيون أمر التفصيل فيها لعلم « النحو » ودرجوا على ذكر ثلاث أدوات منها فحسب هى : إذا ، وإن ، ولو :

والواجب على البلاغيين وقد اتسع علم النقد وتشعب أن يخوضوا فيها كلها ، وأن يمدوا لها أيديهم .

ولكننا سنجد أنفسنا مضطرين لتقليدهم فى هذا الكتاب ، حتى يأذن الله ، ويعيننا على إفراد كتاب خاص لها .

إن وإذا

أشار الشيخ عبد القاهر إلى : « إن ، وإذا » فى أثناء تعريفه للنظم فقد أوصى بالنظر فى الحروف التى تشترك فى معنى ، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية فى المعنى ، فيضع كلا من ذلك فى خاص معناه ، نحو : أن يؤتى « بما » فى نفى الحال و« بلا » ، إذا أراد نفى الاستقبال ، وإن فيما يترجح

بين أن يكون وألا يكون ، «وبإذا» فيما علم أنه كائن(١) . واحتراما لوصية أستاذنا عبد القاهر نفصل أمرهما .

فنقول: «إن» و«إذا» تشتركان فى أنهما للشرط فى الاستقبال ، أى تفيدان تعلق حصول الجزاء بحصول الشرط فى المستقبل .

والمعنى الأصلى «لإن» الذى تستعمل فيه على سبيل الحقيقة اللغوية هو : عدم جزم المتكلم بوقوع الشرط فى الاستقبال .

والمراد بعدم الجزم بوقوع الشرط فى الاستقبال : الشك فى وقوعه فى المستقبل ، وتوهم وقوعه فيه ، كما تقول لصاحبك : «إن تكرمنى أكرمك» وأنت لا تقطع بأنه يكرمك ، ولذلك كان الحكم النادر موقعا «لإن» لكونه غير مقطوع به فى الغالب وقولنا : «فى الغالب» ، لأن النادر قد يقطع بوقوعه كيوم القيامة فإنه نادر ، ومع ذلك مقطوع به ، وإنما كان يوم القيامة نادرا ، لأنه لا يحصل إلا مرة ولا تكرر لوقوعه . والنادر ما يقل وقوعه جدا ، كأن يقع مرة أو مرتين ، وإن كان وقوعه لا بد منه .

وأما قولهم : «إن مات فلان فافعل كذا» فقد دخلت «إن» على أمر مجزوم الوقوع ، أجاب الزمخشرى عليه بقوله : بأن وقت الموت لما كان غير معلوم لستحسن دخول «إن» عليه .

وإذا كانت «إن» لعدم الجزم بوقوع الشرط فى المستقبل فإنها لا تقع فى كلام الله تعالى ، لأن الله عالم بحقائق الأشياء على ما هى عليه ، فيستحيل فى حقه تعالى الشك والتردد فى شىء ما .

لكن يجوز وقوعها حكاية عن الغير كما فى قوله تعالى حكاية عن إخوة

---

(١) انظر ص ٣٨ من هذا الكتاب ، ودلائل الإعجاز ص ٥٥

يوسف : « قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل(١) أو تقول إن القرآن نزل على نمط ما ينبغى أن يكون ، لو عبر عن هذه المعانى أحد من البشر لأن القرآن عربى بليغ ، يجب أن يراعى فيه مقتضى البلاغة التى تتقرر فى العربية ، أو لأن القرآن نزل على مذاهب العرب فى الكلام .

والمعنى الأصلى « لإذا » الذى تستعمل فيه على سبيل الحقيقة اللغوية هو : جزم المتكلم بوقوع الشرط فى المستقبل ، والمراد بالجزم : الرجحان فتستعمل فى الاعتقاد والظن .

كما تقول : « إذا زالت الشمس آتيك » فزوال الشمس مقطوع به .

ولما كان أصل « إذا » الجزم بالوقوع كان الغالب فى الفعل المستعمل معها أن يكون بلفظ الماضى لإشعار المعنى بتحقيق الوقوع : كقوله تعالى : (أتى أمر الله) — وذلك يناسب مفاد « إذا » .

ومن هنا استعملوا الماضى معها .

فواضح مما تقدم أن الفعل له خمسة أحوال : إما أن يجزم المتكلم بوقوعه فى المستقبل ، أو يظن وقوعه فيه ، وهاتان الحالتان تستعمل فيهما « إذا » وتارة يتردد المتكلم فى وقوعه فى المستقبل على حد سواء ، أو يظن عدم وقوعه فيه ويتوهم وقوعه ، وهاتان الحالتان تستعمل فيهما « إن » وتارة يجزم المتكلم بعدم الوقوع لكون الفعل محالا ، وهذه الحالة لا يستعمل فيها شىء منهما ، إذ لا معنى للتعليق .

يتضح من هذا العرض أن « إذا » تشارك « إن » فى عدم الدخول على المستحيل وهو : المجزوم بعدم وقوعه إلا لنكتة بلاغية كما سنوضح

---

(١) سورة يوسف آية : ٧٧

فيما بعد . وتنفرد « إن » بالمشكوك والمتوهم ، وتنفرد « إذا » بالمتيقن والمظنون الوقوع(١) .

تأمل قوله تعالى : (فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه)(٢) والمعنى : وإذا جاء قوم موسى الخصلة الحسنة من الخصب بكثرة المطر وصلاح الثمرات ورخاء الأسعار ، قالوا : هى مختصة بنا ، وإن تصبهم خصلة سيئة من الجدب والقحط ، وكثرة الأمراض ونحوها من البلاء تشاءموا بموسى ومن معه من المؤمنين . ولم يفهموا أن الأمر بخلاف ذلك ، وأن السيئة من شؤم عصيانهم ، والحسنة من رحمة الله الواسعة .

فأنت تلاحظ أنه قد جيء بلفظ الماضى « جاء » مع « إذا » فى جانب الحسنة المحققة الوقوع ـ وكانت الحسنة محققة الوقوع ، لأن المراد بها الحسنة المطلقة عن التقييد بنوع معين ، ولذلك عرفت تعريف الجنس ، أى : تعريف الحقيقة المقررة فى الأذهان ؛ لمجيئها فى ضمن أى فرد لأى نوع ، ووقوع الجنس الذى هو الحقيقة فى ضمن أى فرد من أى نوع هو : كالواجب ، فيتحقق لاتساعه وكثرة أفراده وأنواعه .

وجيء فى جانب السيئة مع « إن » بلفظ المضارع المشعر بعدم تحقق الوقوع المناسب لها .

وعبر « بإن » مع السيئة دون الحسنة ؛ لأن « إن » ـ كما سبق ـ لعدم الجزم بالوقوع ، والذى يناسبها هو النادر والسيئة نادرة بالنسبة إلى الحسنة ؛ فلا تكون مجزوما بوقوعها كالحسنة ـ لقلتها ، ومن هنا نكرت السيئة ـ فى الآية ـ ؛ لتدل على التقليل المناسب لعدم الجزم بالوقوع .

---

(١) راجع حاشية الدسوقى ج ٢ ص ٣٩ .
(٢) سورة الأعراف آية ١٣١ .

وترى الآية قد ورد فيها استعمال « إذا » فى المجزوم مع ما يناسبه ، ومعلوم أن الله عز وجل لا يتصور منه جزم ولا شك ، لأنه علام الغيوب ؛ فالشىء عنده إما معلوم الوقوع ، أو معلوم عدمه ، ولك أن تجيب — كما أشرنا فيما سبق — أن القرآن نزل على مذاهب العرب فى كلامهم .

واقرأ قوله تعالى : « وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون »(١) والمعنى : وإذا رزق الله عباده الخصب والسعة والعافية فرحوا فرح بطر وأشر ، لا فرح شكر بها وابتهاج بوصولها ، وإن تصبهم شدة بسبب ذنوبهم تركوا فرائض الله سبحانه وتعالى ، فتلاحظ أنه أتى « بإذا » فى جانب الرحمة ، وأتى « بإن » فى جانب السيئة .

واقرأ قول قعنب ابن أم صاحب فى الهجاء :

صُمٌّ إذا سَمِعُوا خيرًا ذُكِرْتُ به
وإنْ ذُكِرتُ بسُوءٍ عندَهم أَذِنُوا(٢)

ترى الشاعر قد استعمل « إذا » ؛ ليدل بأن سماع الخير عنه أمر محقق واستعمل « إن » ليدل بأن سماع السوء عنه محتمل أن يكون وألا يكون .

وأنشد قول أبى الطيب :

إذا أنتَ أكْرَمْتَ الكريمَ ملكتَه
وإنْ أنتَ أكْرَمْتَ اللئيمَ تَمَرَّدَا

تجده أفاد أن إكرام الكريم أمر محقق ، أما إكرام اللئيم فنادرا ما يحدث .

---

(١) سورة الروم آية ٣٦

(٢) روى : « وإن ذكرت بشر » .

ومن هنا قال الزمخشري : وللجهل بموقع — « إن » و « إذا » — يزيغ كثير من الخاصة عن الصواب فيغلطون ، ألا ترى إلى عبد الرحمن بن حسان كيف أخطأ بهما الموقع ، فى قوله يخاطب بعض الولاة ، وقد سأله حاجة فلم يقضها ، ثم شفع له فيها فقضاها(١) » .

ذممتَ ولم تُحمَد وأدْرَكْتُ حَاجَتي
تولَّى سِوَاكُم أجْرَها واصْطِناعَهَا

أبى لك كسب الحمد رأى مقصر ونفس أضاق الله بالخير باعها
إذا هى حثته على الخير مرة عصاها وإن همت بشر أطاعها

فالأبيات فى ذم بعض الولاة ، وهذا يقتضى المبالغة فى سلب كل الصفات الحميدة من قريب أو بعيد ، ولكن الشاعر أدخل « إذا » التى تستعمل لما هو كائن محقق على جملة : « إذا هى حثته على الخير مرة عصاها » فأشعر القارىء . أن حث نفس الوالى بالخير أمر محقق وكائن، وهذا يضعف من قوة الهجاء والذم ، وكذلك أدخل « إن » التى تستعمل فيما يترجح بين أن يكون وألا يكون على جملة : « وإن همت بشر أطاعها » فأفاد أن عزم نفسه على الشر مشكوك فيه ، ويترجح بين أن يكون وألا يكون وواضح أنه يضعف الهجاء الذى ينبغى أن يقوم — فنيا — على المبالغة .

ولذا قال الزمخشرى : « معلقا على الأبيات : « ولو عكس لأصاب(١)» .

ولكن ترى البليغ قد استعمل « إن » فى مقام القطع بوقوع الشرط لوحقق أغراضا بلاغية منها :

١ — التجاهل لاستدعاء المقام إياه ، كأن يسأل خادم عن سيده ، وقد

---

(١) بغية الايضاح جـ ١ صـ ١٧٦

(٢) بغية الإيضاح جـ ١ ص ١٧٧

أو نحو ذلك ألا يعلم أحداً بوجوده في داره حتى يشاور ، فيتجاهل الخادم بالتعبير «بإن» خوفاً من سيده ، فيقول : «إن كان في الدار فأخبرك» .

٢ — عدم جزم المخاطب بالشرط كقولك لمن لا يعتقد صدقك فيما تخبر : «إن صدقت في إخباري لك الذي كذبتني فيه فماذا تفعل» ، فتعبر «بإن» جريا على ما عند المخاطب ، واعتباراً لما يناسبه .

٣ — تنزيل المخاطب العالم بوقوع الشرط منزلة الجاهل لعدم جريه على موجب العلم كقولك لمن يؤذي أباه : «إن كان أباك فلا تؤذه» ، وتحس في هذا الأسلوب التنبيه والتأنيب والغضب .

٤ — يؤتى «بإن» - أيضا - في المجزوم به للتوبيخ على الشرط ، وتصوير أن المقام لاشتماله على ما يقلع الشرط عن أصله لا يصلح ذلك الشرط إلا لفرضه كما يفرض المحال لغرض يتعلق بفرضه كالتبكيت ، والالزام ، والمبالغة وإرخاء العنان وذلك مثل قوله تعالى : (أفنضرب عنكم الذكر صفحا إن كنتم قوما مسرفين(١) على قراءة كسرة همزة «إن» ، والمعنى : «أنهملكم ، فنضرب عنكم القرآن بترك إنزاله لكم ، وترك ما فيه من الأمر والنهي والوعد والوعيد» ، فكونهم مسرفين أمر مقطوع به ، لكن جيء بلفظ «إن» لقصد(٢) التوبيخ والتجهيل في ارتكاب الإسراف ، وتصوير أن الإسراف من العاقل في هذا المقام واجب الانتفاء ، حقيق ألا يكون ثبوته إلا على مجرد الفرض والتقدير كالمحالات لاشتمال المقام على الآيات الدالة على أن الإسراف مما لا ينبغي أن يصدر من العاقل أصلا .

ومثله قوله تعالى : (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين(٣)) تجد

---

(١) سورة الزخرف آية : ٥

(٢) انظر الإيضاح مع البغية جـ١ ص١٧٣

(٣) سورة الزخرف آية : ٨١

« إن » دخلت على أمر مستحيل مجزوم بإنتفائه . تبكيتا للخصم وإرخاء العنان له ليعثر .

والمعنى : إن صح وثبت ببرهان يقيني وحجة واضحة أن للرحمن ولدا فأنا أول من يعبد هذا الولد الذي تزعمون ثبوته ، ولكنه لم يثبت أن يكون له ولد لذلك يلزمكم ألا تعتقدوا أن للرحمن ولدا ففيه نفي للولد على أبلغ وجه ، وأتم عبارة ، وأحسن أسلوب ، حيث نزل الأمر المقطوع بإنتفائه منزلة المشكوك فيه ، واستعمل فيه « إن » .

٥ — تغليب المشكوك في اتصافه بالشرط على المقطوع باتصافه به ، كما إذا كان القيام قطعي الحصول بالنسبة إلى « زيد » وغير قطعي الحصول بالنسبة « لعمرو » بمعنى أن عمرا مشكوك في قيامه ، فيغلب « عمرو » على « زيد » في حكم القيام فيصير قيامهما كالمشكوك فيه ، فيقال لهما : « إن قمتما كان كذا » .

تأمل قوله تعالى : (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا[1]) تجد « إن » في الآية تحتمل وجهين : أن تكون للتوبيخ على الارتياب ، وتصوير أن الارتياب مما لا ينبغي أن يثبت لهم إلا على سبيل الفرض ، لاشتمال المقام على ما يزيله ويقلعه عن أصله ، وهو الآيات الدالة على أنه منزل من عند الله .

وتحتمل أن تكون لتغليب غير المرتابين من المخاطبين على المرتابين منهم ، لأنه كان فيهم من يعرف الحق ، وإنما ينكر عنادا ، فجعل الجميع كأنهم لا ارتياب لهم[2] .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٣

(٢) المطول ص ١٥٨ .

جملة الشرط وجملة الجزاء لإن وإذا(١)

« إن » ، و « إذا » موضوعان فى الأصل ؛ لإفادة تعليق حصول مضمون الجزاء بحصول مضمون الشرط فى الاستقبال ؛ أى : « إن » ، و « إذا تفيدان : أن المتكلم علق فى حال التكلم حصول الجزاء فى الاستقبال بحصول الشرط فى ذلك الاستقبال .

وعلى ذلك لابد أن تكون جملة الشرط ، وجملة الجزاء كل منهما جملة فعلية استقبالية ؛ بأن يصدر كل منهما بالمضارع فيقال مثلا فيهما : « إن تزرنى أكرمك » و « إذا تزورنى أكرمك » .

ويمتنع أن تكون كلتا الجملتين أو إحداهما اسمية . أو كلا الفعليتين أو إحداهما ماضوية .

وكانت جملة الشرط فعلية استقبالية ؛ لأن الشرط مفروض الحصول فى الاستقبال ؛ أى : أنه هو الذى إذا حصل فى الاستقبال حصل جزاؤه فى الاستقبال أيضا .

ولم تكن جملة الشرط ماضوية ، لأن دلالة الماضوية إنما هى على ضد الاستقبال .

كما لم تكن جملة اسمية ، لأن الاسمية تدل على الحصول والدوام المنافى للحدوث فى الاستقبال .

وكانت جملة الجزاء فعلية استقبالية ، لأن مفاد الجزاء : أن مضمونه

---

(٢) راجع فى هذا الموضوع مواهب الفتاح ص٥٦ ، ٥٧ ، ج ٢ والمطول ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

يترتب على حصول الشرط ، وإذا كان مضمون الشرط استقباليا ؛ استحال كون مايترتب عليه « وهو الجزاء » حالياً ، أو ماضويا ، إذ لايترتب ماحصل قبل الاستقبال على مايحصل بعده .

فإذا جاءت جملتا الشرط والجزاء فعليتين استقباليتين كان هذا هو الأصل فى استعمالهما ؛ وكان الكلام واردا على مقتضى الظاهر ، وكانت بلاغته مقتصرة على نقل المعنى إلى ذهن السامع ؛ أى : كان الأسلوب عادياً .

ومن هنا نلاحظ فى الأساليب العالية أن البليغ يتصرف فى جملتى الشرط والجزاء مع « إن » ، و « إذا » فيوردهما على خلاف هذا الأصل ـ أى يجىء بهما على خلاف مقتضى الظاهر فيقول مثلا : « إن أكرمتنى أكرمتك » ، و « إن تكرمنى أكرمتك » ، « وإن تكرمنى فأنت مكرم » ، و « إن أكرمتنى الآن فقد أكرمتك أمس » وهكذا .

ولكن هذا التصرف البلاغى لم يأت من جهة المعنى ، لأن المعنى لايتصور فى التخالف أصلا ؛ إذ يكون المعنى على الاستقبال البتة الذي هو الأصل .

تأمل قولك مثلا : « إن تكرمنى اليوم فقد أكرمتك أمس » تجد أن معناه : إن تعتد على بإكرامك اليوم فأعتد عليك بإكرامى إياك أمس ـ والسر فى العدول فى نحو هذا المثال عن الأصل وورود الجواب ماضياً ، ذكر المعتد به وهو : « الإكرام فى الماضى » وقد ذكره بلفظ الماضى فى قوله : « فقد أكرمتك أمس » ليكون ذكره مناسباً لما يراد منه وهو الاعتداد بما حصل فى الماضى . وهو أبلغ فى الرد لما فيه من ترك ذكر لفظ « الاعتداد الموحش » .

وتقول الآية الكريمة :

« وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك[1] » . والمعنى: وإن يكذبوك فاصبر . فذكرت الآية الكريمة تكذيب الرسل فى الماضى بلفظ الماضى المناسب له ، لقصد ذكر مايتسلى به ، ويحمل على الصبر .

ومن هنا ذكر البلاغيون : أن التعبير فى جملة الشرط والجواب بصيغة المضارع ، حيث أريد استعمال « إن » معها فى الأصل وهو الاستقبال هو اللازم أصالة ، وأنه لاتقع المخالفة إلا فى اللفظ فحسب لنكتة بلاغية ، لأن المخالفة بدون فائدة ممتنعة فى باب البلاغة ، وتلك النكتة هى :

« إبراز غير الحاصل وهو مايحدث فى المستقبل فى معرض الحاصل وهو الذى حدث فى الماضى وتحققنا من حصوله » وذلك يكون لأسباب منهـا .

١ — قوة الأسباب المتآخذة فى حصول غير الحاصل ـ بحيث أخذ بعضها بعضد بعض ؛ فإن الشىء إذا تقوت أسبابه يعد حاصلا ، فيعبر عنه بمـا يبرزه فى صورة الحاصل ، وذلك يطابق المقـام ؛ لمـا فيه من تأنيس النفس بحصوله ، والإشعار بأن حكمه حكم الواقع ، ليطب بذلك وقت المتكلم والمخاطب كما يقال عند انعقاد أسباب الاشتراء من حضور سوق السلعة الذى كثرت فيه ، مع قلة المشترين ، ومع وجود الثمن ، ورغبة البائعين فى البيع : « إن اشترينا كذا كان كذا » .

وتحس من هذا المثـال أيضا أنك جعلت مامن شأنه الوقوع كالواقع .

٢ — أن تبرز غير الحاصل فى معرض الحـاصل فى جملة الشرط ؛

---

(١) سورة فاطر آية : ٤

لما فى ذلك الإبراز من التفاؤل وذلك إذا كان المخاطب يتمنى شيئا فعبرت له عنه بما يشعر بحصوله فتكون قد أدخلت عليه السرور، وقربت أنت من نفسه وذلك مثل قولك: «إن ظفرت ياعلى بحسن العاقبة فهو المرام». مكان قولهم: إن تظفر ياعلى بحسن العاقبة تصل إلى مرامك.

٣ — إبراز غير الحاصل فى معرض الحاصل لإظهار رغبة المتكلم فى وقوع الشرط بسبب ذلك الإبراز الحاصل بالتعبير بالماضى فى الاستقبال.

فإن الراغب فى الشىء إذا عظمت رغبته فى حصول أمر من الأمور تراه يكثر تصور ذلك الأمر ويتخيله حاصلا، فيعبر بلفظ الماضى عن الاستقبال لكثرة التصور الموجب لتخيل الوقوع المفهوم من ذلك التعبير.

وذلك مثل قول المتكلم: «إن نجحت هذا العام فهو مطلبى».

والغرض من إظهار الرغبة: إما استدعاء الامتثال أو الإعطاء أو الإعانة على المراد ونحو ذلك.

ومن استعمال «إن» مع الماضى مع أن الأصل المضارع، لإبراز غير الحاصل فى معرض الحاصل لقصد إظهار الرغبة، تراه - إن تدبرت - فى قوله جل وعلا: (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا[1])، والمعنى ولا تكرهوا إماءكم على الزنا إن أردن تحصنا، والأصل «إن يردن» فجاءت الآية الكريمة بالمضى لإظهار الرغبة فى إرادتهن التحصن.

(١) سورة النور آية: ٣٣

تنبيهات

١ — يجوز أن يكون الجزاء طلبيا نحو : « إن جاءك زيد فأكرمه » والمعنى : « إن جاءك زيد فإكرامه مطلوب منك » ، لأن الطلبي فعلي استقبالي لدلالته على الحدوث في المستقبل ، فيجوز أن يترتب على أمر ، وذلك باعتبار المطلوب وأما نفس « الطلب » الذي هو الجواب فهو حالي ، لا ترتب له على الشرط الاستقبالي أصلا ، فالمستقبل في الحقيقة إيجاد الكلام ، وكونه مطلوباً منه ، وذلك معنى خبري ، لا طلبك أنت الآن .

أما فعل الشرط فلا يجوز أن يكون طلبيا ، لأنه مفروض الصدق في الاستقبال .

٢ — قد تستعمل « إن » في غير الاستقبال قياسا مطردا ، إذا كان فعل الشرط « كان » ، نحو قوله تعالى : (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله(١) والمعنى : إن حصل منكم ريب فيما مضى ، واستمر ذلك إلى وقت الخطاب ، فأنتم مطالبون بما يزيله ، وهو طلبكم المعارضة المفيدة لعجزكم . ومثله قوله تعالى : (إن كنت قلته فقد علمته)(٢) وقوله تعالى : (وإن كان قميصه قد من دبر)(٣) ، لأن « كان » جردت للزمان الماضي فلم تغير أدوات الشرط منها شيء .

وربما ورد دخولهما على غير « كان » وهو ماض على وجه القلة ، كقول الشاعر :

فياوطني إِنْ فَاتَنِي بِكَ سَابِقٌ ... مِنَ الدَّهْرِ فَلْيَنْعَمْ لِسَاكِنِكَ البَالُ

والمعنى : إن سبق زمان غلب علي ، وفوت علي سكني وطني ، وتولاه غيري ، فلتطب نفس هذا الساكن ، ولينعم بالا ، وجواب الشرط محذوف ، أي : فلالوم ، فقد تركتك كرها من غير ابتياعك بعيب .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٣ (٢) سورة المائدة آية : ١١٦

(٣) سورة يوسف آية : ٢٧

دل عليه قوله « فلينعم لساكنك البال » والغرض التحسر على مفارقة الوطن .

٣ — وقد تستعمل « إذا » للماضى ، نحو قوله تعالى : (حتى إذا ساوى بين الصدفين)(١) ، وللإستمرار مثل قوله تعالى : (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا)(٢)

استعمال « لو »

« لو » أصلها أن تكون للشرط فى الماضى ، مع القطع بانتفاء الشرط ، فإذا أفادت القطع بانتفاء الشرط ، أفادت انتفاء الجزاء . لأن الشرط بحسب اللغة يستلزم الجواب ، وأنه شرط فيه خارجا ، والشرط إذا انتفى انتفى المشروط ، فإنك إذا قلت : « لو جئتنى لأكرمتك » فهم أن المجىء مستلزم للإكرام وشرط فيه ، وعلى تقدير وقوع المجىء يقع الإكرام ، وفهم أن المجىء لم يقع ، وحيث أنه شرط وقد انتفى ، فيلزم انتفاء المشروط الذى هو الجزاء — أى الإكرام فى المثال المذكور . ولذلك يقال : إنها حرف امتناع لامتناع أى حرف يفيد امتناع الجزاء لامتناع الشرط .

وإذا كانت « لو » للشرط فى الماضى ، بمعنى أنها تدل على تعليق المتكلم — فى الحال — وقوع مضمون الجزاء بوقوع مضمون الشرط ، فيما مضى .

فيلزم على ذلك كون جملتيها فعليتين ماضويتين ولا تدخل على المضارع إلا لنكتة كقوله تعالى : (لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم) والمعنى : لو يطيعكم فى كثير من الوقائع لوقعتم فى بلاء وجهد وهلاك أى : أن امتناع

---

(١) سورة الكهف آية ٩٧ .
(٢) سورة البقرة آية ١٤

عنهم بسبب امتناع استمراره على طاعتهم فقد عدلت الآية الكريمة عن الماضى إلى المضارع لقصد استمرار الفعل فيما مضى وقتا بعد وقت ، لأن المضارع يفيد الاستمرار والتجدد .

ودخول « لو » على المضارع فى قوله تعالى : (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم)(١) وقوله تعالى : (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم)(٢) وقوله (ولو ترى إذ وقفوا على النار)(٣) فقد دخلت « لو » فى الآيات الكريمة على المضارع لتنزيله منزلة الماضى فى تحقق الوقوع لصدوره عمن لا خلاف فى إخباره ، كما نزل « يود » فى قوله تعالى (ربما يود الذين كفروا)(٤) منزلة الماضى ، لأن الفعل الواقع بعد « رب » المكفوفة يجب أن يكون ماضيا .

ويجوز أن يكون الغرض من التعبير بالمضارع « ترى » ، و « يود » فى الآيات السابقة إلى استحضار صورة المجرمين ناكسى الرءوس قائلين للرد على الذين يقولون .

وصورة رؤية الظالمين موقوفين عند ربهم متقاولين بتلك المقالات ، وصورة ودادة الكافرين لو أسلموا ، كما فى قوله تعالى . (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها)(٥) إذ قال : « فتثير سحابا » بلفظ المضارع بعد قوله تعالى (والله الذى أرسل الرياح) وسر هذا التعبير كما ذكرنا سابقا هو : استحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة ، وهى صورة إثارة السحاب مسخرا بين السماء والأرض على الكيفية المخصوصة ، والانقلابات المتفاوتة وذلك لأن المضارع مما يدل على الحال الحاضر الذى من شأنه أن يشاهد ، كأنه يستحضر بلفظ المضارع تلك الصورة ليشاهدها السامعون ، ولا يفعل

---

(١) سورة السجدة آية : ١٢ (٢) سورة سبأ آية ٣١
(٣) سورة الأنعام آية : ٢٧ (٤) سورة الحجر آية ٢
(٥) سورة فاطر آية : ٩

ذلك إلا فى أمر يهتم بمشاهدته لغرابة أو فظاعة أو نحو ذلك(١) . وهو فى الكلام كثير ، انظر إلى قول تأبط شرا :

ألا مَنْ مبلغٌ فتيانَ فَهْمٍ ... بما لاقيتُ عند رحا بطان(٢)

بأنى قد لقيتُ الغُولَ تَهْوِى ... بِسَهْبٍ كالصحيفةِ صَحْصَحانِ(٣)

فقلت لها كلانا نِضْوُ أرْضٍ ... أخو سَفَرٍ فَخَلِّى لى مكانى(٤)

فشدت شدةً نحوى فأهْوت ... لها كفى بمصقولٍ يمانى

فأضربها بلا دَهَشٍ فَخَرَّتْ ... صريعاً لليدين وللجِرَانِ(٥)

إذ قال « فأضربها » بلفظ المضارع مع أن السياق للماضى .

وقصد من « المضارع » أن يصور به الحالة التى تشجع فيها على ضرب الغول كأنه يعرضها لهم ليبصروها ، ويطلب منهم مشاهدتها لكى يزداد تعجبهم من جراءته على كل هول ، وثباته عند كل شدة .

---

(١) انظر المطول ص ١٧٣ والإيضاح مع البغية حـ١ ص١٨٨

(٢) فهم : قبيلة تأبط شرا ، ورحابطان : موضع .

(٣) تهوى : بمعنى تسرع ، السهب : الفلاة ، والصحصحان إما استوى من الأرض .

(٤) نضو : المهزول من كل شىء ، كأنه نضى وأخرج لحمه من جذبها

(٥) صريعا : فعيل بمعنى مفعول ، يستوى فيه المذكر والمؤنث ، والجران : فى الأصل مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره

تنكير المسند

وترى البليغ يأتى بالمسند منكرا ليحقق بذلك أغراضا بلاغية منها :

١ — إرادة إفادة عدم الحصر والعهد إذا اقتضى المقام ذلك .

لأن الحصر والعهد يستفادان من تعريف المسند ، فيستفاد من تنكيره عدمهما | وذلك مثل قولك : « زيد كاتب » ، و « عمرو شاعر » إذا أردت إفادة الإخبار بمجرد الكتابة عن « زيد » والشعر عن « عمرو » ، ولم ترد حصر الكتابة فى « زيد » ، والشعر فى « عمرو » .

٢ — أن يكون القصد من تنكير المسند التفخيم والتعظيم ، تدبر قوله تعالى فى شأن القرآن : (هدى للمتقين) أى هو هدى ، والمعنى : القرآن نور للمتقين فهدى « مسند » جاء منكرا لتفخيم هداية القرآن الكريم وأنها بلغت درجة لا يمكن أن يدرك كنهها ، ولا تحد بشىء معين .

٣ — أن يكون القصد تنكير المسند التحقير والتهوين ، كقولك : الحاصل لى من المال شىء ، أى حقير

إلى غير ذلك من الأغراض التى تتوقف على مناسبة المقام . ويعرفها صاحب الذوق السليم والطبع العربى الأصيل .

تخصيص المسند

بالإضافة أو بالوصف أو ترك التخصيص

من التصرفات التي تعطى الكلام دقة ولطافة أن يكون البليغ يقظا فلا يقدم للسامع إلا ما يقتضيه المقام .

فإذا اقتضى المقام تخصيص المسند بالإضافة أو بالوصف لتكون الفائدة أتم وأكمل — أورد البليغ المسند مضافا أو موصوفا فيقول مثلا : « امرؤ القيس شاعر فارس » و « زهير شاعر الحكمة » فقد تمت الفائدة وكملت فى الأول بوصف امرىء القيس بالفروسية فضلا عن الشاعرية ، وفى الثانى : بتخصيص زهير بشعر الحكمة .

وقد مر بنا فيما سبق — أنه إذا كثرت التقييدات كثرت الفائدة وتمت .

وإذا اقتضى المقام ترك تخصيص المسند بالإضافة أو بالوصف لمانع يمنع من تربية الفائدة : كجهل المتكلم بما يخصص المسند من وصف أو إضافة ، أو قصد إخفاء هذا التخصيص على السامعين لغرض الخوف منهم أو عليهم ، أو منعا للغيرة مثلا إلخ . ترك البليغ التخصيص

تعريف المسند

وترى البليغ يأتى بالمسند معرفا ، لإفادة السامع :

١ — إما حكما على أمر معلوم له(١) بطريق من طرق التعرف — من علمية ، وإضمار ، وموصولية ، وإشارة ، وتعريف « بأل » .

بأمر(٢) آخر معلوم له كذلك(٣) أى معرفة مثله ، سواء اتحد طريق التعريف أو اختلف .

٢ — وإما لازم بين أمرين كذلك(٤) .

تفسير هذا : أنه قد يكون للشيء صفتان من صفات التعريف ، ويكون السامع عالما باتصافه بإحداهما دون الأخرى .

فإذا أردت أن تخبر السامع بأنه متصف بالأخرى ، تعمد إلى اللفظ الدال على الأولى ، وتجعله مبتدأ ، وتعمد إلى اللفظ الدال على الثانية وتجعله خبرا ، فتفيد السامع ما كان يجهله من اتصافه بالثانية ، أى تفيده بإسناد إحداهما للأخرى ، لأن السامع يجهل الإسناد فى هذه الحالة ، وإن كان يعلم بالطرفين .

---

(١) أمر معلوم له : المراد من هذا الأمر المعلوم له هو : المسند إليه .

(٢) بأمر آخر معلوم له : المراد من الأمر الآخر هو : المسند .

(٣) جعل الحكم فى ذلك على أمر معلوم لوجوب تعريف المسند إليه عند تعريف المسند ، وإلا كان الحكم بمعلوم على شيء مجهول وهذا لا يفيد .

(٤) لازم الحكم هو ما يسمى « بلازم الفائدة للخبر » .

مثال ذلك : أن يكون للسامع أخ يسمى « عادلا » ، وهو يعرف « عادلا » هذا بعينه واسمه ، ولكن لا يعرف أنه أخوه ، ويعرف فى الوقت نفسه بأن له أخا ، ولا يعلم ثبوت تلك الأخوة لذلك الشخص المسمى « بعادل » فتقول له : « عادل أخوك » ، فأنت بهذا المثال تفيده بأن « عادلا » هذا هو أخوه ، ومن أجل هذا أتيت بالاسم « عادل » الذى يدل على الذات المعينة له — أولا — وجعلته مسندا إليه ، ثم أتيت بما يدل على صفـــة الأخوة — التى هى فى المثال المذكور — « أخوك » وجعلته مسندا .

وإن عرف السامع أن له أخا فى الجملة ، وأردت أن تعينه له باسمه وعينه ، وكان يعرف « عادلا » بعينه واسمه ، ولكن يجهل أن أخاه يسمى « بعادل » . قلت له : « أخوك عادل » فأنت تفيده بأن أخاه هذا هو « عادل » ، ومن أجل ذلك أتيت « بأخوك » الذى يدل على الذات المعينة له — أولا — وجعلته مسنداً إليه ، ثم أتيت بما يدل على الصفة المسماة « بعادل » وجعلته مسندا ، وعادل على هذا مؤول بالصفة ، وإن كان بعادل اسما جامدا ، والتقدير : « أخوك مسمى بعادل » .

وكذا إذا عرف السامع إنسانا يسمى زيدا بعينه واسمه ، وعرف أنه كان من إنسان انطلاق ، ولم يعرف أنه كان من زيد أو غيره .

فأردت أن تعرفه أن زيدا هو ذلك المنطق ، فتقول : « زيد المنطلق » .

وإن أردت أن تعرفه أن ذلك المنطلق هو : « زيد » قلت : « المنطلق زيد » ، وأل فى هذا المثال : للعهد الذهنى .

وكذا إذا عرف السامع إنسانا يسمى « زيدا » بعينه واسمه ، وهو يعرف معنى جنس المنطلق ، وأردت أن تعرف السامع أن « زيدا » متصف به ، فتقول : « زيد المنطلق » .

وإن أردت أن تعين عنده جنس المنطلق قلت : « المنطلق زيد »(١) .

قيل : إن الإخبار بالمعلوم عن المعلوم لا يفيد أصلا .

وأجيب بأن العلم بالمسندين بمعنى تحقق حصول مدلولهما فى الخارج الذى هو المراد هنا ، لا يستلزم العلم بنسبة أحدهما إلى الآخر ، فإنك تعلم أن الشخص الفلانى يسمى « زيدا » . وأن هناك رجلا موصوفا بالانطلاق ولا تعلم أن الموصوف بذلك الانطلاق هو ذلك الشخص المسمى « بزيد » .

فالكلام المعرف الجزءين مفيد أى فائدة ، وهذه الفائدة المحصلة عند تعريف الجزءين إذا اقتضاها المقام لكونها هى التى يترقبها السامع ، أو كالمرتقب لها صارت نكتة يطابق بها مقتضى الحال ، فالمراد أن مدلول هذا التركيب يؤتى به عند مناسبة المقام ولا يعدل عنه إلى غيره(٢) .

لا يقال : زيد — فى قولك : « زيد المنطلق » أنه دال على الذات فهو متعين للابتداء تقدم أو تأخر ، والمنطلق دال على أمر نسبى فهو متعين للخبرية تقدم أو تأخر ، لأنا نقول : « المنطلق » لا يجعل مبتدأ إلا بمعنى الشخص الذى له الإنطلاق ، وأنه بهذا المعنى لا يجب أن يكون خبرا ، و « زيد » لا يجعل خبرا إلا بمعنى صاحب اسم « زيد » ، وأنه بهذا المعنى لا يجب أن يكون مبتدأ .

وتعريف المسند بلام الجنس قد لا يفيد قصره على ما حكم عليه به ، أى : على المسند إليه كقول الخنساء :

إذا قَبُحَ البكاءُ على قتيلٍ رأيتَ بكاءك الحسنَ الجميلا

---

(١) انظر الإيضاح مع البغية جـ ١ ص ١٩٢

(٢) راجع مواهب الفتاح جـ ٢ ص ٩٥

والمراد : إذا قبح البكاء على أى قتيل ، وقد جاء لفظ « الحسن » معرفا بأل ، لتقرر للبكاء على أخيها صفة الحسن ، وأن تفيد أن حسنه حسن ظاهر لا ينكره أحد ولا يشك فيه شاك . وإنما لم يفد تعريف « الحسن » القصر ، لأن كلامها للرد على من يتوهم قبح البكاء على قتيلها كغيره ، والرد عليه يكفى فيه إخراج البكاء على قتيلها من القبح إلى الحسن وإنما يصح القصر إذا كان الكلام للرد على من يسلم حسن البكاء على قتيلها ، ولكنه يدعى أن بكاء غيره حسن أيضا وهذا لا يلائمه أول البيت .

وقد يفيد تعريف المسند بلام الجنس — القصر ، أى : قصر الجنس على المسند إليه ، تحقيقا مثل : « خالد الأمير » إذا لم يكن ثمة أمير سواه .

ومبالغة : مثل « محمد الشجاع » أى الكامل فى الشجاعة ، فتخرج الكلام فى صورة توهم أن الشجاعة لم توجد إلا فيه ، لعدم الاعتداد بشجاعة غيره لقصورها عن رتبه الكمال .

والمعرف « بأل » الجنسية هو : المقصور على أى حال — تقدم أو تأخر والآخر هو المقصور عليه .

والمقصور مطلقا قد يبقى على إطلاقه دون قيد كما فى قولنا : « زيد البطل » ، أو « البطل زيد » ، فالمقصور هنا هو مطلق البطولة .

وقد يقيد بوصف ، أو حال ، أو ظرف ، أو مفعول ، أو نحو ذلك ، فيكون المقصور حينئذ : الجنس ، باعتبار قيده . كقولك : « محمد القائد الجرىء » ، فالمقصور على « محمد » وصف القيادة المتسمة بالجرأة ، لا مطلق قيادة ومثال المقيد بظرف قولهم : « هو الوفى حين لا تظن نفس بنفس خيرا » فالمقصور الوفاء فى هذا الوقت .

ومثال المقصور المقيد بمفعول قول الأعشى :

هُوَ الواهِبُ المائَةَ المصطفا ةَ إمّا مُخاضًا وإمّا عِشارا

والمخاض : الحوامل من النوق ، والعشار جمع عشراء : التى مضى لحملها عشرة أشهر .

وترى الشاعر قد قصر هبة المائة من الإبل فى إحدى الحالتين — المصطفاة والحوامل — ولم يرد لا هبة النوق مطلقا ولا الهبة مطلقا .

أى : هو وحده الذى من عادته أن يهب المائة المصطفاة ، ولا يريد الشاعر أن يقول : هو وحده الذى من عادته أن يهب . أي : مطلق هبة .

وهذه الوجوه الثلاثة :

(١) التعريف بلام العهد (٢) التعريف بلام الجنس للقصر الحقيق

(٣) التعريف بلام الجنس للقصر مبالغة- تمنع جواز العطف بالفاء ونحوها على المسند إليه المحكوم عليه بالمسند المعرف - بخلاف المسند المنكر، ففاسد أن تقول : « زيد المنطلق وعمرو » ، وفاسد أيضا قولك : « زيد الأمير وعمرو » و « زيد الشجاع وعمرو » ، لأن العطف ينافى القصر .

وصحيح أن تقول : « زيد منطلق وعمرو » ، و « زيد أمير وعمرو » ، و « زيد شجاع وعمرو » لأن المسند منكر فهو لا يفيد القصر .

تأخير المسند

ويأتى المسند مؤخرا ليحقق أغراضاً بلاغية يقصدها البليغ وتلك الأغراض تأتى إذا أراد البليغ تقديم المسند إليه لكونه الأهم وقد فصلنا تلك الأهمية وغيرها حين الكلام على أحوال المسند إليه .

فالأغراض البلاغية لتقديم المسند إليه هى بعينها الأغراض البلاغية لتأخير المسند ، ولعلك الآن على ذكر منها .

تقديم المسند

يؤتى بالمسند مقدما على المسند إليه لأغراض بلاغية منها :

١ — أن يقصد البليغ تخصيص المسند بالمسند إليه أى قصر المبتدأ على الخبر ، فيكون المبتدأ مقصورا ، والخبر المقدم مقصوراً عليه .

تأمل قوله تعالى : (لكم دينكم ولى دين(١)) ، والمعنى : إن دينكم الذى هو الإشراك مقصور على الحصول لكم لا يتجاوزه إلى الحصول لى كما تطمعون ، ودينى الذى هو التوحيد مقصور على الحصول لى ، لا يتجاوزه إلى الحصول لكم ، فتجد أن المسند قد تقدم وهو « لكم » على المسند إليه وهو : « دينكم » ، وكذلك تقدم المسند (ولى) على المسند إليه وهو « دين » .

والمقصور عليه هو المقدم ، والمقصور هو المؤخر ، كما وضحنا فى بيان المعنى.

ومنه قول أبى العلاء :

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب فى ازدياد

---

(١) سورة الكافرون آية : ٦

فقد قدم المسند وهو «تعب» على المسند إليه «وهو الحياة» ليفيد قصر المسند على المسند إليه ، فدل على أن الحياة بجميع ما فيها مقصورة على التعب والشقاء ، قصرا على سبيل الإدعاء ، أى : أن ما فى الحياة من فترات الراحة والأنس والمسرة لاقيمة لها فقد نزلها منزلة العدم بجانب ما فيها من التعب والمشقة ، قصر موصوف على صفة .

وقولك : «قائم هو» ، لمن يقول : «زيد إما قائم أو قاعد» فيردده بين القيام والقعود من غير أن يخصصه بأحدهما ، ومنه : «مسلم أنا» فالمتكلم مقصور على دين الإسلام لا يتجوزه إلى دين آخر من الأديان ومنه قوله تعالى : (لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) ، والمعنى : أن خمر الجنة ليس فيها صداع ، ولا تغول العقول من السكر . ولا تسبب وجع البطون ، ولا يقىء منها الشاربون كما يقىء صاحب خمر الدنيا .

فعدم الغول مقصور على خمور الجنة لا يتجاوزه إلى خمر الدنيا ، فأنت ترى أن الآية الكريمة تقدم فيها المسند ليفيد تخصيص المسند بالمسند إليه .

ثم تأمل بعد ذلك قوله تعالى : (لا ريب فيه) ومعنى هذا النفى العام أن الكتاب ليس بمظنة للريب ؛ لوضوح دلالته ، وضوحا يقوم مقام البرهان المقتضى لكونه لا ينبغى الارتياب فيه بوجه من الوجوه .

فالآية الكريمة لم يقدم فيها الظرف ، فيقال مثلا فى غير القرآن «لافيه ريب» ، لأن الظرف لو تقدم سيفيد القصر ، الذى معناه : «عدم الريب مقصور على القرآن الكريم لا يتجاوزه إلى سائر كتب الله المنزلة» ، لأنها المعتبرة فى مقابلة القرآن الكريم ، وهذا ليس بمقصود .

٢ — أن يكون تقديم المسند على المسند إليه للتنبيه من أول الأمر على أن المقدم خبر لا نعت . كقول الشاعر :

له همم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر

والشاهد فيه « له همم » فقد قدم الجار والمجرور « الخبر » على « همم » المسند إليه ولو أخره فقال : « همم له » لأوهم أن الجار والمجرور صفة ، والحالة بعد هي الخبر ، وهذا لا يتفق مع الغرض المروم ، لأن الشاعر يريد مدح الرسول ﷺ لامدح همه .

٣ — أن يكون تقديم المسند للتفاؤل كقول الشاعر :

سَعِدَتْ بِغُرَّةِ وَجْهِكَ الأَيَّامُ وَتَزَيَّنَتْ بِبَقَائِكَ الأَعْوَامُ

فقدم « سعد » المسند ليكون أول لفظ يطرق سمع المخاطب فيدخل عليه الأنس والسرور .

أو للتطير ، بغرض تعجيل الإساءة ، كقولك لعدو : « ضاعت مساعيك » .

٤ — أو يكون تقديم المسند للتشويق إلى ذكر المسند إليه كقول محمد ابن وهيب في مدح أبي إسحاق المعتصم :

ثلاثةٌ تُشْرِقُ الدُّنيا بِبَهْجَتِها شَمْسُ الضُّحَى وأبُو إسحاقَ والقَمَرُ

ثلاثة (مسند) قدم للتشويق إلى ذكر الخبر .

ومنه قول أبي العلاء :

وكالنار الحياةُ فَمِنْ رَمادٍ أواخِرُها وأَوَّلُها دُخانُ

والمعنى: أن أول الحياة ، وآخرها ، وهما : الصبا ، والشيب ليسا بشيء ، وأن وسطها وهو الشباب هو المعتد به . والشاهد أنه قدم المسند الذى هو : الجار والمجرور (كالنار) ليفيد التشويق إلى ذكر المسند إليه ومثله قولهم :

ثلاثةٌ تُجْهَلُ مِقْـــدارَها   الأمن والصحة والقوت

وقول الآخر :

ثلاثة ليس لهــا إياب   الوقتُ والجمالُ والشبابُ

٥ — أن يكون المسند لإظهار التألم والضجر ، مثل قول المتألم المتضايق : « بئست الدنيا » . و « بئست مظاهرها » ، فبئست مسند مقدم لاظهار هذه الحالة النفسية التى يبرزها المتكلم فى هاتين العبارتين ونحوهما .

الفصل الرابع

أحوال متعلقات الفعل

تمهيد

١ — اللام فى متعلقات يحتمل أن تكون مكسورة وهو أحسن ، ويصح الفتح .

٢ — يلحق بالفعل ما فى معناه كاسم الفاعل واسم المفعول ونحوهما .

٣ — ومتعلقات الفعل هى : المفعول به، والمفعول لأجله ، والمفعول معه ، والحال ، والتمييز ، والظرف والجار والمجرور .

٤ — حال الفعل مع المفعول كحاله مع الفاعل ؛ فكما أنك إذا أسندت الفعل إلى الفاعل كان غرضك أن تفيد وقوعه منه ، لا أن تفيد وجوده فى نفسه فقط ، كذلك إذا عديته إلى المفعول كان غرضك أن تفيد وقوعه عليه ، لا أن تفيد وجوده فى نفسه فحسب ، فقد اجتمع الفاعل والمفعول فى أن عمل الفعل فيهما إنما كان ليعلم التباسه بهما ، فعمل الرفع فى الفاعل ليعلم التباسه به من جهة وقوعه منه ، والنصب فى المفعول ليعلم التباسه به من جهة وقوعه عليه .

أما إذا أريد الإخبار بوقوعه فى نفسه من غير إرادة أن يعلم ممن وقع أو على من وقع فالعبارة عنه أن يقال : «كان ضرب أو وقع أو وجد أو نحو ذلك» ، من ألفاظ تفيد الوجود المجرد(١) .

---

(١) الإيضاح ضمن شروح التلخيص جـ ٢ ص ١٢٠ — ١٢١ .

• — الفعل اللازم : هو الذى لا يتعدى إلى مفعول نحو «كرم محمد» و «شرف على» ،

والفعل المتعدى : هو الذى يتعدى إلى مفعول بنفسه مثل : «ضرب زيد عمراً» ، أو بحرف مثل : «مر زيد ببكر» .

هذا .. والكلام فى هذا الفصل يشمل ثلاثة مباحث هى :

١ — حذف المفعول به .

٢ — تقديم المفعول ونحوه من المعمولات — على الفعل وما يشبهه .

٣ — تقديم بعض المعمولات على بعض .

١ — حذف المفعول به

الفعل المتعدى قد يحذف مفعوله ، إذا دلت عليه قرينة ، وكان فى الكلام مرجح للحذف على الذكر ، وهذا الحذف قسمان :

القسم الأول : إذا كان الغرض من التركيب الذى أسند فيه الفعل إلى فاعله من غير ذكر المفعول به — مجرد إثبات الفعل لفاعله فى الكلام المثبت ، أو نفيه عنه فى الكلام المنفى ، من غير اعتبار تعلقه بمن وقع عليه ؛ فيكون الفعل المتعدى - حينئذ بمنزلة اللازم .

وهذا القسم ضربان

الضرب الأول : أن يكون الغرض من التركيب الذى أسند فيه الفعل إلى فاعله من غير ذكر المفعول به — مجرد إثبات الفعل لفاعله فى الكلام المثبت ، أو نفيه عنه فى الكلام المنفى من غير اعتبار تعلقه بمن وقع عليه ، ولم يكن الفعل كناية عن نفسه متعلقا بمفعول مخصوص ،

فيكون الفعل ـ حينئذ ـ بمنزلة اللازم الذى وضع فى أصله غير طالب للمفعول به .

وعلى هذا لا يقدر لذلك الفعل مفعول به ، لأن المقدر كالمذكور فى أن السامع نصبت له قرينة على المقدر ، يفهم من التركيب الذى قدر أو صرح فيه بمفعول الفعل : أن الغرض هو : الإخبار بوقوع الفعل من الفاعل على مفعوله ، وأن القصد إنما هو إفادة تعلقه بالمفعول الذى وقع عليه ، لا بمجرد إفادة نسبته للفاعل .

والفرق بين اعتبار تعلقه بالمفعول به ، وعدم اعتباره ، أنك إذا قلت : « فلان يعطى الدنانير » كان معناه الإخبار بالإعطاء المتعلق بالدنانير ، ويكون كلاما مع من سلم وجود الإعطاء ، وجهل تعلقه بالدنانير ، فتردد فيه أو غفل ، أو اعتقد خلافه .

وإذا قلت : « فلان يعطى » ، كان كلاما مع من جهل وجود الإعطاء أو أنكره أصالة(١) .

تأمل قوله تعالى : (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون)(٢) والمعنى : هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمونه ، فقد حذف المفعول به (الدين) ، ونزل الفعل منزلة اللازم بحيث صار المراد من الفعل حقيقته . أى : هل يستوى الذين وجدت منهم حقيقة العلم ، والذين لم توجد عندهم ـ بعد أن كان المراد علم شىء مخصوص ، وهذا الحذف للمبالغة فى الذم ، إشارة إلى أن الجهال الذين لا علم عندهم بالدين كأنهم لا علم عندهم أصلا ، وأن حقيقة العلم فقدت منهم وصاروا كالبهائم .

---

(١) راجع مواهب الفتاح جـ ٢ ص ١٢٢ .

(٢) سورة الزمر آية ٩ .

والغرض من هذا التصرف نفى المساواة بين من هو من أهل العلم، وبين من ليس من أهل العلم، لا بين من هو من أهل علم مخصوص وبين من هو ليس من أهل العلم المخصوص ؛ فلذلك نزل الفعل المتعدى «يعلم» منزلة الفعل اللازم، ومع هذا لم يجعل مطلق «العلم» كناية عن العلم بمعلوم مخصوص تدل عليه القرينة .

ومن هذا النوع قولهم : «فلان يحل ويعقد»، و«يأمر وينهى»، و«يضر وينفع» و«يعطى ويمنع»، فلا تعرض فى كل ذلك لحديث المفعول، إذ الغرض من هذه التراكيب مجرد إثبات الفعل للفاعل .

وقوله تعالى : (وأنه أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا[١])، والمعنى : أضحك أهل الجنة فى الجنة، وأبكى أهل النار فى النار، وقيل : أضحك الأرض بالنبات، وأبكى السماء بالمطر، (وأمات وأحيا)، أى : أمات الآباء وأحيا الأبناء - وقيل: أمات بعدله وأحيا بفضله، وقيل : أمات الكافر وأحيا المؤمن[٢] .

ترى أن الآية الكريمة حذفت مفعول هذه الأفعال ؛ لأن الغرض لم يتعلق به وإنما القصد إلى ذات الفعل، أى : مجرد إثباته للفاعل .

وقوله تعالى : (ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير[٣]) ؛ ففيها حذف المفعول فى أربعة مواضع إذ المعنى : وجد عليه أمة من الناس يسقون أغنامهم أو مواشيهم وامرأتين

---

(١) سورة النجم آية : ٤٣، ٤٤
(٢) انظر فتح القدير جـ ٥ ص ١١٦
(٣) سورة القصص آية : ٢٣

تذودان غنمهما ، وقالتا لا نسقى غنمنا ، فسقى لهما غنمهما .

فقد حذفت هذه المفعولات ، وذكر الفعل مطلقا ؛ لغرض العلم فقط بأنه كان من الناس فى تلك الحال سقى ، ومن المرأتين ذود ، وأنهما قالتا : لا يكون منا سقى حتى يصدر الرعاء ، وأنه كان من موسى عليه السلام من بعد ذلك سقى ؛ فأما ما كان المسقى أغنما أم إبلا أم غير ذلك ؛ فخارج عن الغرض . وموهم خلافه ؛ وذلك أنه لو قيل: وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما ، جاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو : ذود ، بل من حيث هو ذود غنم ، حتى لو كان مكان الغنم إبل لم ينكر الذود(١) .

الضرب الثانى :

إذا كان الغرض من التركيب الذى أسند فيه الفعل إلى فاعله من غير ذكر المفعول به مجرد إثبات الفعل لفاعله فى الكلام المثبت أو نفيه عنه فى الكلام المنفى من غير إعتبار تعلقه بمن وقع عليه ؛ وكان الفعل مطلقا كناية عن نفسه متعلقا بمفعول مخصوص ؛ فيكون الفعل المتعدى ـ حينئذ ـ بمنزلة اللازم الذى وضع فى أصله غير طالب للمفعول به ، وحينئذ لا يقدر له مفعول به ؛ لأن المقدر كالمذكور كما وضحنا فيما سبق .

وذلك مثل قول البحترى يمدح المعتز بالله :

شَجْوُ حُسَّادِهِ وَغَيْظُ عِدَاه   أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ وَيَسْمَعَ واعِى

فمراد الشاعر بالحساد والأعداء هم : شيعة المستعين بالله أخو المعتز بالله الممدوح .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٠٦

فقد جعل السبب فى شجو الحساد وغيظهم وجود رؤية راء، وسمع سامع .

أى : ليس فى الوجود ما يرى ويسمع إلا آثاره ؛ فإذا أبصر مبصر لا يرى إلا محاسن الممدوح ، وإذا سمع سامع كذلك ؛ فغيظ عداه أن يقع إبصار أو سمع ؛ فإنه كيف وقع لا يقع إلا على محاسنه .

فقد جعل الفعل المتعدى لازما ؛ فلم يذكر له مفعولا به ، وجعله كناية عن رؤية خاصة ، وسمع خاص ، وذلك إشعار بأن فضائل الممدوح قد بلغت من الظهور والكثرة إلى حيث يكفى فى إدراكها دون غيرها مجرد أن يكون سمع سامع فى الدنيا ، وإبصار مبصر فيها ؛ فعلم أنه المنفرد بالفضائل .

ومن الواضح أنه يفوت هذا المعنى إذا ذكر المفعول به أو قدر معه .

القسم الثانى : إذا لم يكن الغرض إثبات الفعل لفاعله ، أو نفيه عنه مطلقا بل قصد تعلقه بمفعول مخصوص ؛ لأن الغرض أن الفعل المنسوب لفاعله يتعدى لمفعول به ، وجب التقدير — حينئذ — لذلك المفعول المقصود تعلق الفعل به ، ويكون تقديره بحسب القرائن الدالة على تعين ذلك المفعول ؛ فإن كان المدلول عليه عاما قدرت اللفظ الدال عليه عاما : وإن كان خاصا قدرت اللفظ الدال عليه خاصا .

هذا ، وحذف المفعول فى هذا القسم يكون لتحقيق أغراض بلاغية توجب حذفه وهذه الأغراض منها :

(أ) البيان بعد الإبهام كما فى فعل المشيئة والإرادة ونحوهما كالمحبة — مالم يكن تعلقه بها غريبا ؛ وأكثر ما يقع ذلك بعد «لو» لأن مفعول المشيئة مذكور فى جوابها ، وكذلك غيره من أدوات الشرط ؛ فيأتى الجواب مبينا للمحذوف ودالا عليه .

تأمل قوله تعالى: (ولو شاء لهداكم أجمعين(١) والمعنى: ولو شاء هدايتكم لهداكم أجمعين؛ فإنه إذا سمع السامع «ولو شاء» تعلقت نفسه بشيء أبهم عليه لايدرى ماهو! فلما ذكر الجواب استبان ذلك الشيء بعد إبهامه وكان وقعه فى النفس أجمل، وأوقع.

وقوله تعالى: (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى(٢))، والمعنى: ولو شاء جمعهم على الهدى لجمعهم عليه؛ وكذلك قوله جل وعلا: (فإن يشأ الله يختم على قلبك(٣)) أى: فإن يشأ الختم على قلبك، وقوله: (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها(٤)) أى: ولو شئنا هداية كل نفس.

ومنه قولك: «لو أحب لأعطاكم» أى لو أحب إعطاكم لأعطاكم، وتقول: لوشئت جئت، أو لم أجىء، أى: لو شئت المجىء أو عدم المجىء، فإنك متى قلت: «لو شئت» علم السامع أنك علقت المشيئة بشىء؛ فيقع فى نفسه أن هنا شيئاً تعلقت به مشيئتك بأن يكون أو لا يكون، فإذا قلت: «جئت أو لم أجىء» عرف ذلك الشىء.

ومنه قول البحترى:

لو شِئْتَ لم تُفْسِدِ سماحةَ حاتِمٍ ... كَرَمًا، ولم تَهدِمْ مآثرَ خالدِ

والمراد بحاتم: حاتم الطائى، وبخالد خالد بن إصبع النبهانى الذى نزل عليه امرؤ القيس الشاعر.

---

(١) سورة النحل آية: ٩

(٢) سورة الأنعام آية: ٣٥

(٣) سورة الشورى آية: ٢٤

(٤) سورة السجدة آية: ١٣

والمعنى : يصف الشاعر ممدوحه بأنه بلغ فى الكرم والمجد درجة فاقت شهرة حاتم وخالد ، وقد حذف مفعول فعل المشيئة . والأصل : لو شئت عدم إفساد سماحة حاتم ، أو عدم هدم مآثر خالد لم تفسد ذلك ولم تهدم .

فإن كان تعلق فعل المشيئة بالمفعول غريباً ونادراً وجب ذكر المفعول ليتقرر فى نفس السامع ويأنس به كقول الشاعر :

وَلَوْ شئت أن أبكى دما لبكيته ... عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

والشاهد فيه قوله : « ولو شئت أن أبكى دما » ، لأن بكاء الدم غريب وإنما كان المفعول به هنا غريباً نادراً ، لأن الشاعر أراد « بكاء الدم » والانسان عادة لا يبكى دما ، فلذلك كان غريباً نادراً .

ومنه قوله تعالى : (لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء)(١) فاتخاذ الله ولداً أمر غريب ونادر ، لهذا ذكر المفعول بعد فعل الارادة .

وليس منه قول الشاعر :

فَلَمْ يَبْقَ مِنِّى الشوقَ غيرَ تفكُّرِى ... فَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِى بَكَيْتُ تَفَكُّراً

لأن الشاعر لم يرد أن يقول : فلو شئت أن أبكى تفكراً بكيت تفكرا ، ولكنه أراد أن يقول : أفنانى النحول فلم يبق منى وفى غير خواطر تجول فى نفسى ، حتى إذا شئت البكاء فعصرت عينى ليسيل منها دمع لم أجدها ، وخرج منها بدل الدمع التفكر ، فالمراد بالبكاء فى الأول البكاء الحقيقى ، وفى الثانى المجازى إشارة إلى أنه من النحول لم يبق فيه محل لدمعة ، فلو عصر عينيه لخرج منهما التفكر بدل الدمع . ولما كان البكاء الأول غير الثانى لم يصلح الثانى تفسيراً له . وعلى هذا فذكر مفعول المشيئة فى هذا البيت لعدم قيام دليل عليه لو حذف .

---

(١) سورة الزمر آية : ٤

(ب) قد يكون الغرض من حذفه دفع توهم السامع فى أول الأمر إرادة شىء غير المراد، كقول البحترى:

وَكَمْ ذُدْتَ عَنِّي مِنْ تَحَامُلِ حَادِثٍ ... وسورةِ أيامٍ حَزَزْنَ إلى العظمِ

فالبحترى يذكر أن الممدوح طالما دفع عنه عوادى الزمن، ورد عنه طغيان أيام ضربته فأوجعته، حتى بلغت فى قسوتها الغاية، وقوله: «حززن إلى العظم» كناية عن بلوغها الغاية فى الشدة، وهذا محل الشاهد، حيث حذف مفعول «حززن»، وهو «اللحم» للغرض البلاغى المذكور، إذ لو ذكر، فقيل: «حززن اللحم» جاز أن يفهم السامع — قبل ذكر ما بعده —: أن الحز كان فى بعض اللحم. ولم يصل إلى العظم، وهذا غير مراد، بل المقصود: أن الحز جاوز اللحم إلى العظم. فحذف المفعول دفعا لتوهم غير المراد، وليدل الكلام على المقصود من أول وهلة عند سماعه لهذا الكلام.

(جـ) قد يحذف المفعول به لإرادة ذكره ثانيا على وجه يتضمن إيقاع الفعل على صريح لفظ المفعول، إظهارا لكمال العناية بوقوع الفعل الثانى على المفعول حتى لا يرضى بأن يوقعه على ضميره وإن كان كناية عنه، تحرزا عن مواجهة الممدوح بما لا يليق.

ومن المشهور فى ذلك قول البحترى:

قد طلبنا فلم نجد لك فى السؤ ... دد والمجد والمكارم مثلا

يقول: قد بحثنا لك عن شبيه فى صفاتك العالية، فأجهدنا البحث وأضنانا، دون أن نعثر على هذا الشبيه، والمعنى: أن الممدوح لا نظير له ولا مثيل.

والشاهد فى قوله: «قد طلبنا» حيث حذف مفعوله، على تقدير: قد طلبنا لك «مثلا»، وقد حذف لتحقيق غرض بلاغى هو: المبالغة فى التأدب معه تعظيما له، فالمقام مقام مدح، والمدح يجود — فنيا — بالمبالغة.

ولو أن الشاعر قال: «طلبنا لك مثلا» لأشعر ذلك بجواز وجود مثل له، لأن العاقل لا يطلب إلا ما يجوز وجوده، لذلك تراه أوقع الفعل الثانى «فلم نجد» على المفعول به «مثلا» الظاهر كما ترى، ليتجنب غير المراد.

وتحس بأن حذف المفعول فى الأول أحدث ظلا من الإبهام، فلما ذكره الشاعر مع الفعل الثانى، كان بيانا لهذا الإبهام وعرفت أن هذا يكون وقعه أجمل فى النفس.

(د) وقد يحذف المفعول لإرادة التعميم، والامتناع عن أن يقصره السامع على ما يذكر معه دون غيره مع الاختصار، كما تقول: «قد كان منه ما يؤلم» أى: «ما يؤلم كل الناس» فلو ذكرت معه مفعولا معينا مثل «زيدا» لقصره السامع على «زيدا» المذكور وفاتت المبالغة المطلوبة.

وقوله جل وعلا (والله يدعو إلى دار السلام[1]) فالمراد من الآية عموم الدعوة إلى السلام. فحذف المفعول لإفادة هذا العموم والمبالغة فيه والتقدير: والله يدعو كل الناس إلى الدخول فى السلام، ونلاحظ أن الآية الكريمة أفادت الإيجاز:

(هـ) وقد يحذف المفعول «للمحافظة على روى الفقرة فى النثر، أو رعاية الوزن فى الشعر.

فمثال الأول: قولك لصاحبك. «لقد دعوت الأصدقاء وما قصرت. وما نسيتك وما أغفلت»، أى: وما أغفلتك.

ومثال الثانى: قول الشاعر:

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا ... وموج المنايا حولها متلاطم

أى: فأعلى بناءها، فحذف المفعول «بناءها» للمحافظة على وزن البيت مع وجود القرينة الدالة على المحذوف ولا يخفى عليك ما فى البيت من الإيجاز.

(و) وقد يحذف المفعول لاستهجان التصريح به : كقول عائشة رضى الله عنها ـ : « مارأيت منه ، ولا رأى منى » تريد : العورة .

(ز) وقد يحذف المفعول لمجرد الاختصار ، كقولك : « أصغيت إليه » أى : أذنى ، و « أغضيت إليه » ، أى بصرى إلى غير ذلك من الأغراض التى لاتخفى على صاحب الذوق السليم والطبع العربى الأصيل .

٢ — تقديم المفعول ونحوه من المعمولات على الفعل ومايشبهه

وترى البليغ يقدم المفعول ونحوه من المعمولات على الفعل ومايشبهه وذلك لتحقيق أغراض بلاغية منها :

١ — إفادة التخصيص : أى قصر الفعل المؤخر على معموله المقدم ، بحيث لايتعداه إلى غيره ، وذلك مثل قوله تعالى :(إياك نعبد وإياك نستعين والمعنى : نخصك بالعبادة لك ، والاستعانة بك ، أى لانعبد سواك ولا نستعين به ، والقصر حقيقى من قصر الصفة على الموصوف وتقول : « زيدا عرفت » بضم التاء ، فقدمت المفعول « زيدا » فأفاد التركيب القصر . ويكون قصر قلب إذا كان المخاطب يعتقد العكس ، أى : يعتقد أنك عرفت إنسانا ولكنه غير زيد فتؤكد له الأمر . فتقول : « زيدا عرفت لا غيره » ويجوز أن يكون قصر إفراد ، إذا كان المخاطب يعتقد الاشتراك بمعنى : أن عمرا يشارك زيدا فى معرفتك ، قلت للرد عليه : « زيدا عرفت » أى لا مع عمرو كما تزعم ، وإذا أردت تأكيده قلت بعد قولك السابق : « زيدا عرفت وحده » أى لامشاركا كما تعتقد ، ويسمى هذا القصر قصر إفراد .

ولو ردد المخاطب معرفتك بين زيد وعمرو على وجه الشك ، فقلت : « زيدا عرفت » أى لاعمرا كان قصر تعيين وسيأتى توضيح هذا قريبا إن شاء الله .

وقول شوقي :

بالعلم والمالِ يبنى الناسَ ملكَهم
لم يبنَ ملكٌ على جهلٍ وإقلالِ

فقد قصر بناء الملك على العلم والمال . وقد جاء القصر من تقديم المعمول على عامله كما ترى .

وتقول : « الله أسأل » أى : ماأسأل إلا الله . ، و « عنك سألت » أى : ماسألت إلا عنك » ، و « طلبا للراحة سافرت » أى : ماسافرت إلا طلبا للراحة ، و « على الله توكلت » أى : ماتوكلت إلا على الله .

وأما نحو قولك : « زيدا عرفته » فإن قدر المفسر المحذوف قبل المنصوب أى : « عرفت زيدا عرفته » . فهو من باب التوكيد بالتكرير الحاصل من الجملتين .

وإذا قدر الفعل المحذوف بعد « زيدا » أى المنصوب ، فكان الأصل : « زيدا عرفت عرفته » أفاد التركيب التخصيص ، وذلك لأن المقدر كالمذكور فكما أن تقديم المفعول على الفعل المذكور يفيد الاختصاص ، فكذلك تقديمه على المقدر .

وكذلك الحال فى قولنا : « باسم الله » فإنه يفيد التخصيص ، بتقدير الفعل مؤخرا ، « باسم الله أبتدىء » لا بغيره .

وقوله تعالى : « وأما ثمود فهديناهم » على قراءة نصب « ثمود » فلا يفيد إلا التخصيص . وذلك لأن سبب عدم إفادة التخصيص تقدير المحذوف المنصوب ، وسبب التخصيص تقديره بعده ، ولا يمكن هنا تقدير المحذوف قبله ، لأن المفسر - بكسر السين - لكونه بعد « أما » يجب أن يتصل بالفاء والمفسر - بفتح السين » كذلك ، وموالاة مدخول الفاء « لأما » يمتنع صراحة ، إذ لا يقال « وأما فهدينا ثمود » ، والمقدر - كالمذكور ، فيمتنع أيضا

وإذا امتنع التقدير قبل المنصوب ، وجب بعده ، والتقدير البعدى يفيد التخصيص كما علمت

٣ — تقديم بعض المعمولات على بعض

وترى البليغ يقدم بعض المعمولات على بعض، ليحقق أغراضا بلاغية تكسب الكلام رونقا وبهاء - منها :

١ — أن الأصل فى ذلك البعض أن يتقدم على البعض الآخر ، ولا موجب للعدول عن ذلك الأصل .

وذلك كتقديم « الفاعل » فإن أصله التقديم على سائر معمولات الفعل لأنه عمدة فى الجملة الفعلية فلا يتم الفعل إلا به ، بخلاف المفعول ، وأيضا لشدة طلب الفعل للفاعل يصير كالجزء منه وماهو كالجزء أولى بالتقديم مما هو فى حكم الانفصال ، ومثاله : « ضرب زيد عمرا » بتقديم الفاعل الذى هو : « زيد » على « عمرو » .

وكتقديم المفعول الأول على الثانى فى باب « ظن وأخواتها » نحو : « أعطيت زيدا درهما » فإن أصل « زيدا » الذى هو المفعول الأول : التقديم ، لأنه فاعل من جهة المعنى إذ هو : آخذ العطاء الذى هو « الدرهم »

٢ — وترى البليغ يقدم بعض المعمولات ، لأن ذلك البعض ذكره أهم والعناية به أولى .

فيقدم المفعول على الفاعل إذا كان الغرض وقوع الفعل بالمفعول لاصدوره من الفاعل ، وذلك مثل « قتل الخارجى فلان » فإن الغرض متوجه لقتل الخارجى لاغير ، وإزاحة شره ، لا لقاتله من هو(١) . ؟

ويقدم الفاعل على المفعول إذا كان الغرض متوجها إلى معرفة من وقع منه الفعل ، لا معرفة من وقع عليه ، كقولك : « قتل زيد رجلا »

---

(١) انظر مواهب الفتاح حـ ٢ صـ ١٦٢

إذا كان « زيد » ممن لا يقدر فيه أن يقتل أحدا لضعفه وهزاله ، و هو جلاء المقتول يتصف بالقوة والبأس ، وكان الغرض الأهم أن تخبر بصدور القتل من « زيد » مع أن الأصل تقديم الفاعل(١)

تأمل قوله تعالى : (ولا تقتلوا أولادكم من إمــــلاق نحن نرزقكم وإياهم)(٢) وقوله تعالى : (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم)(٣) ترى أن الآية الأولى قدمت المخاطبين فى « رزقكم » لأن الخطاب للفقراء بدليل قوله تعالى : (من إملاق) فقدم الوعد برزقهم على الوعد برزق أولادهم .

والخطاب فى الآية الثانية للأغنياء بدليل قوله : خشية إملاق) فإن خشية الفقر تكون من الغنى . فكان رزق أولادهم هو المطلوب دون رزقهم لأنه حاصل . فكان رزق أولادهم هو الأهم ، لذلك ترى الآية الثانية قدمت الوعد برزق أولادهم على الوعد برزقهم .

٣ — أن يكون فى تأخير المعمول إخلالا ببيان المعنى ، كقوله تعالى : (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه(٤) فإنه لو أخر (من آل فرعون) عن (يكتم إيمانه) لتوهم أن (من) متعلقة بيكتم ، فلم يفهم أن الرجل من آل فرعون(٦)

تم بحمد الله

---

(١) راجع المطول ص ٢٠٢

(٢) سورة الأنعام آية : ١٥١

(٣) سورة الإسراء آية : ٣١

(٤) سورة غافر آية : ٢٨

(٤) انظر الإيضاح ضمن شروح التلخيص ج ٢ ص ١٦٣

محتويات الكتاب

صواب الخطأ

ص	السطر	الخطأ	الصواب
١٥	١	كثيرة	كثرة
١٥	٨	بالمعروف	بالعرف
١٧	١٠	فيهات	فهيهات
٢٥	٦	لوضع	لووضع
٢٨	١٤	كل	كلا
٤٥	٢١	لله	الله
٤٨	٣	وثل	ومثل
٥٣	١٠	رب	حرب
٥٥	١	إهتزاز	اهتزازا
٥٥	٦	يفسرونه	ويفسرونه
٦٠	هامش (١)	بفئة	بغية
٦٤	١٠	وذكذا	وهكذا
٦٦	١٣	ويتفقق	ويتفق
٧٠	١٨	رقه ورقة	دقة ورقة
٧٣	١٩	هيثوا	هيئوا
٧٣	٢١	لما يردمنه	لما يراد به
٧٧	١٨	السلم	السليم
٨٠	هامش (١)	ج	ص
٨٢	١٣	لينتل	لينتقل
٨٦	١١	وقرأ	وقرا
٩١	١٨	ندى	زى
٩٣	١٠	ومتا لله	وتا لله
٩٧	١١	اذكث	اذكرت
٩٨	٨	قسية	تسمية